٢٠٠١

مكتبة نوبل

ف . س . نايبول

في بلاد حرة

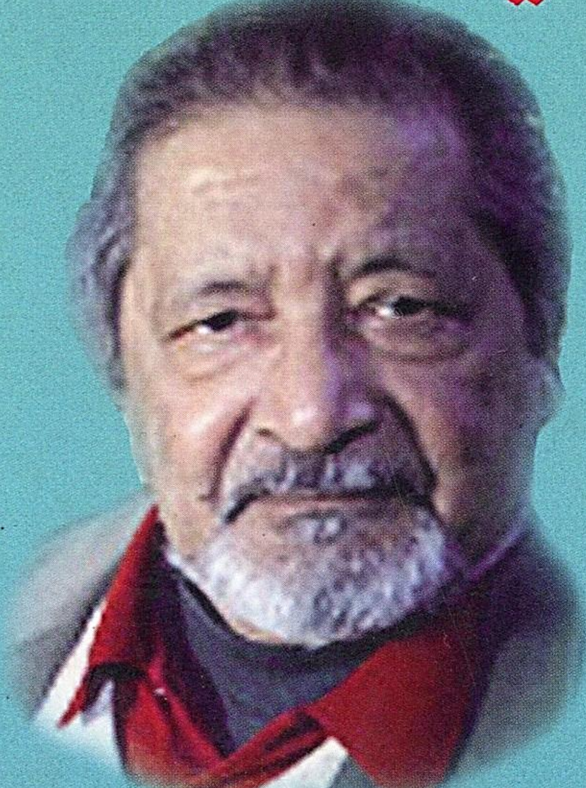

ترجمة:
سعدي يوسف

في بلاد حرّة

مكتبة نوبل

اسم المؤلف : ف . س . نايبول
عنوان الكتاب : في بلاد حرّة
المترجم : سعدي يوسف
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الاولى : سنة ٢٠٠٣
الحقوق محفوظة

Author:V.S. Naipaul
Title:In A Free State
Translator:Saadi Yousef
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2003
Copyright © V S Naipaul 1971
Arabic copyright Al Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفون: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

٢٠٠١

مكتبة نوبل

ف. س. نايبول

في بلاد حرّة

ترجمة

سعدي يوسف

المحتويات

١- مفتتَح من يوميات : الصعلوك في بيروس. 7

The tramp at Piraeus

٢- واحد من كثيرين. 27

One out of many

٣- قل لي من أقتل. 75

Tell me who to kill

٤- في بلاد حرة. 129

In a free state

٥- مختتم من يوميات : السيرك في الأقصر. 309

The circus at Luxor

مُفتتَح من يوميات

الصُّعلوك في بيروس

The tramp at Piraeus

يستغرق العبور من بيروس إلى الاسكندرية يومين فقط، لكني ما إن رأيت الباخرة اليونانية المتداعية الصغيرة حتى شعرت بأنه كان عليَّ أن ألجأ إلى ترتيبات أخرى. حتى من الرصيف بدت مزدحمة مثل سفينة لاجئين، وحين صرت على متنها وجدت أن ليس فيها متّسعٌ لأحد.

لا يمكنك الكلام عن سطح لها. والبار المفتوح من جهتين لريح كانون الثاني كان في حجم رفّ صحون. وراء نُضده الصغير، كان الساقي اليوناني الذي يقدم قهوة رديئة، نكِد المزاج. العديد من الكراسي في غرفة التدخين الصغيرة، وقَدْرٌ لا بأس به من الأرضية، كان احتلّهما منذ الليل مسافرون من إيطاليا، بينهم فريق طلاب مدارس أميركيين في حوالي الخامسة عشرة، بيضٍ منضبطين، لكنهم يراقبون كل شيء. المكان العام الآخر الوحيد كان المطعم، وكان يُهيّأ لاستقبال أوائل متناولي الغداء، ويتولى هذا الأمر نادلون كانوا أشد تعباً وأنكد مزاجاً من الساقي. لقد خلّفْنا التهذيب الإغريقي على الشاطئ، ولربما كان هذا التهذيب نابعاً من الكسل، والبطالة، واليأس الريفي.

لكنّا، نحن أهل القسم العلوي من السفينة، محظوظون. إذ لدينا قمرات وأسرّة. أمّا أهل السطيحة السفلى فليس لديهم ذلك. إنهم مسافرو سطيحة ليس لهم إلا موضع منام. إنهم الآن تحتنا و يجلسون أو يتمددون في الشمس، ويحتمون من الريح، أشباحاً محدودبة، في سوادٍ

متوسطيّ، بين الرافعات والمداخن البرتقالية. كانوا يونانيين مصريين.كانوا مسافرين إلى مصر، لكن مصر لم تعد وطنهم. لقد طُردوا منها ؛ كانوا لاجئين. لقد خرج المحتلون من مصر، وتحررت مصر بعد مهانات كثيرة ؛ وهؤلاء اليونانيون، الفقراء، الذين أفلحوا بمهارات بسيطة في أن يجعلوا أنفسهم أقل فقراً فقط من المصريين، كانوا ضحايا تلك الحرية. سفنٌ يونانية متداعية، مثل سفينتنا ، أخذتْهم من مصر. والآن، وبكل اختصار مدّة، يعودون، صحبة سوّاحٍ مثلنا ، محايدين، مسافري فُرجةٍ فحسب، صحبة رجال أعمال لبنانيين، وفرقة رقص إسبانية لنوادي الليل، وطلبةٍ مصريين سمانٍ عائدين من ألمانيا.

الصعلوك، حين ظهر على الرصيف، بدا جِدّ انجليزيّ، لكن ربما يعود ذلك إلى أن انجليزاً آخرين لم يكونوا على ظهر السفينة. إنه لا يبدو، على مَبعدةٍ، صعلوكاً. القبعة والجعبة وسترة التويد وبنطلون الفلانيل الرمادي والجزمة قد تكون لجوّاب آفاقٍ رومانسيّ من جيلٍ أسبق، وهذه الجعبة ربما ضمّت ديوان شعر، ويوميات، وبدايات رواية.

كان نحيفاً، متوسط القامة، يتحرك من الركبتين فنازلاً، بخطوات قصارٍ وثّابة، وكل قدمٍ مرفوعة عالياً عن الأرض. كانت مشيةً متميزةً، شأنها شأن لفاعه الزعفران المبقّع. أمّا حين اقترب، فقد رأينا كل ملابسه أسمالاً، وأنّ عقدة لفاعه كانت مُحْكمةً كابيةً، وأنه كان صعلوكاً. وعندما بلغ أسفل سلّم الصعود نزع قبّعته، ورأينا أنه عجوز، ذي وجهٍ مرهَقٍ وعينين زرقاوين مبتلّتين.

صعّد نظره فرآنا، نحن جمهور مستمعيه. ارتقى السلّم مسرعاً، بدون أن يمسك بالحبال. أي تباهٍ قدّم تذكرته إلى اليوناني أكيداً، ثم مضى، غير متلفت حوله، غير مستفسرٍ من أحد، في سبيله، خفيفاً،

كأنه عرف من قبلُ مجالَه في السفينة. انعطف إلى مجازٍ مغلق. وفي فُجاءةٍ مضحكة دار على عقبٍ واحدة، وخبط بقدمه الأرض خبطةً قوية. قال لأهل السطيحة كمن تذكَّر للتوّ أمراً : "المحاسب، سأذهب وأرى المحاسب". وهكذا سلك طريقه إلى قمرته وسريره.

تأخّر إقلاعنا، عددٌ من تلاميذ المدارس الأميركيين، كلّفوا أحداً بالمحافظة على أماكنهم في غرفة التدخين، وهبطوا إلى الشاطئ يشترون طعاماً ؛ وكنا ننتظر عودتهم. وما إن عادوا - لا ضحكات : البنات كنّ عاديّات الشكل، شاحبات، ومنكفئات -حتى فار اليونانيون بخاصةً واندفعوا. قعقعت اللغة اليونانية قعقعةَ سلسة المرساة . أخذ الماء يفصلنا عن الرصيف، وكنا نرى، غير بعيدٍ عن موضعنا، المدخنة السوداء الكبرى للسفينة ليوناردو دافنشي، التي رست الآن.

عاد الصعلوك إلى الظهور. كان بدون قبّعته وجعبته، وبدا أقل عصبيةً. يداه في جيبي بنطلونه الممتلئين الطافحين منذ الآن، ورجلاه متباعدتان، وقف على السطيحة الضيقة مثل مسافرٍ بحارٍ مجرِّب يعرِّضُ نفسه لنسمة البحر الأولى في رحلة بحرية حقيقية.

كان أيضاً يَزِنُ المسافرين ويزورُهم، كان يبحث عن رفيق. أهملَ من نظروا إليه ؛ وعندما يستجيب آخرون لنظرته فيلتفتون إليه، يشيح برأسه عنهم.

أخيراً، ذهب ووقف إلى جانب شاب أشقر طويل. غريزته كانت دليله الجيّد إليه. الشخص المختار كان يوغوسلافياً لم يغادر يوغوسلافيا إلا يوم أمس. اليوغوسلافيّ راغبٌ في الإستماع. عَسُرَت عليه لهجة الصعلوك لكنه ابتسم مشجعاً، وتكلّم الصعلوك مستفيضاً.

"زرت مصر ست مرات أو سبعاً. وطفت حول العالم اثنتي عشرة مرة. استراليا، كندا، كل تلك البلدان. كنت جيولوجياً أو نحو ذلك. أولاً ذهبت إلى كندا في ١٩٢٣. حتى الآن بقيت فيها ثماني مرات. ظللت أسافر ثمانياً وثلاثين سنة. أسكنُ في مضافات الشباب، هكذا فعلتُ. لا تستنكفْ من شيء. نيوزيلندة، هل كنت هناك ؟ ذهبت إليها سنة ١٩٣٤. أسرِّكَ القول إنهم أفضل قليلاً من الاستراليين.

لكن، ما معنى الجنسية اليوم ؟ أنا، نفسي، أعتقدُ أنني مُواطن العالم".

كانت خطبته، هكذا، ملأى بالتواريخ والأسماء والأرقام، مع رأي بسيطٍ أحياناً مستمدٍ من حياة أخرى. لكن الحديث آليٌّ، بلا إيمان، حتى المباهاة غير مؤثرة. تلكما العينان الرامشتان المبتّلتان ظلتا نائيتين.

اليوغسلافي ابتسم، وتدخّل قليلاً. لكن الصعلوك لم يرَ ولم يسمع. لم يكن بمقدوره أن يتحادث، ولم يكن ليريد محادثةً. بل لم يطلب حتى مستمعين. كان كما لو أنه، عبر السنين، استطاع أن يتوصل إلى هذه الطريقة في شرح نفسه لنفسه بسرعة مختصراً حياته إلى أسماء وأرقام. وحين تُتلى الأسماء والأرقام لا يبقى لديه ما يقول. هكذا، وقف فقط، إلى جانب اليوغسلافي. حتى قبل أن تختفي بيروس وليوناردو دافنشي أمام عيوننا كان الصعلوك استنفد تلك العلاقة. هو لم يُرِدْ رفيقاً، أراد فقط التمويه والحماية من الرفقة. الصعلوك يعرف أنه غريب الطبع.

في الغداء، جلستُ مع لبنانيين اثنين. كانا مسافرَي ليلٍ من إيطاليا، ولم يترددا في إعلان أن ما جعلهما يختاران السفر بحراً، لا

جواً، كان الحقائب لا المال. وبدا أنهما ليسا شقيينِ في هذه السفينة على مستوى شكواهما. تكلّما بخليط من الإنجليزية والفرنسية والعربية، وكان أحدهما يثير الآخر بالحديث عن أموالٍ كسبها آخرون، لبنانيون بخاصة، من ذلك الأمر المعيب أو هذا.

كلاهما كان تحت الأربعين. أحدهما كان متورد الوجه، مكتنزاً، فضفاض الملبس، مع كنزة مريشة، عمله في بيروت : النقود تحديداً. اللبناني الآخر كان أسمر، متين البنية، في جمال متوسطيّ وشاربين، وبدلةٍ ذات ثلاث قطع. كان في القاهرة يصنع أثاثاً مقلّداً، وقال إن أشغاله تدهورت بعد رحيل الأوروبيين. اختفت التجارة والثقافة من مصر، وأهلُ مصر لا يطلبون الأثاث المقلّد، كما أنهم شرعوا يكرهون اللبنانيين أمثاله. لكني لم أستطع أن أصدق بلواه. إذ بينما هو في حديثه معنا، كان يغمز لواحدة من الراقصات الإسبانيات.

في الطرف الآخر من الغرفة كان طالب مصريّ سمينٌ ذو نظارتين سميكتي العدسات متدفق الكلام بالألمانية والعربية. والزوجان الألمانيان على طاولته كانا يضحكان. ثم شرع المصري يغني أغنيةً بالعربية.

قال البيروتي بلهجته الأميركية : "عليك أن تكون حديثاً". قال صانع الأثاث : "أبداً. سأترك مصر أولاً. سأغلق معملي. إنه لمرعبٌ هذا الأثاث الحديث. شنيعٌ. شنيعٌ جداً.

* Mais le style Louis seize , ah, voila l’ame

ثم قطع كلامه مصفقاً للمصريّ، مهنئاً إياه باللغة العربية. ثم قال حذراً، خافت الصوت، وبلا خبث : "أهل البلد هؤلاء". دفع صحنه

* أورد النص الأصلي العبارة بالفرنسية : لكن طراز لويس السادس عشر. آه. هناك الروح.

مبعداً، وغاص في كرسيه، قارعاً أصابعه على مفرش الطاولة القذر. غمز للراقصة وانتصب طرفا شاربيه.

جاء النادل لينظف البقايا. كنت آكلُ. لكن صحني ذهب أيضاً.

قال صانع الأثاث : "كنت تتغدى، يا سيدي ؟ عليك أن تكون هادئاً. علينا جميعاً أن نكون هادئين".

ثم رفع حاجبيه، ودوّر عينيه. ثمة شيء أرادنا أن ننظر إليه.

كان الصعلوك، واقفاً في مدخل الباب، يتفحص الغرفة. كان مسيطراً على وقفته، حتى بدت ثيابه للوهلة الأولى، كاملة. جاء إلى الطاولة المنظّفة التالية لطاولتنا، جلس على الكرسي، وظلّ يتحرك عليه، حتى استقرّ. ثم مال بظهره إلى الخلف، ووضع ذراعيه على المسندين، مثل رب عائلةٍ على رأس مائدته، مثل مسافر رحلة بحرية طويلة ينتظر تقديم الطعام. تأوّهَ، وحرّك فكّيه، مختبراً أسنانه. كانت سترته في حالٍ يُرثي لها. الجيوب فاغرة، وقد ثُبِّتت مُنطبِقاتُها بالدبابيس.

صانع الأثاث قال شيئاً بالعربية فضحك البيروتيّ. النادلُ أخرجنا، فتبعنا الفتيات الإسبانيات إلى البار الصغير المزويع كي نشرب قهوة.

في ما بعد، ناشداً الوحدة، عصراً، ارتقيت درجاتٍ حادّة إلى المنطقة المفتوحة ذات الحاجز، فوق القمرات.

الصعلوك كان يقف هناك، وحيداً . بنطلونه وسخٌ منتفخ، مهترئ الحواشي، وكان في مهب الريح والسخام. كان يمسك بما بدا لي كتاب صلوات صغيراً.

كان يحرك شفتيه، ويُطبق عينيه ويفتحهما ، مثل غارقٍ في الصلاة. كم كان ذلك الوجه رقيقاً، كم فعلتْ به الأيام فعلَها. كم كانت

الرقبة نحيفة تحت العقدة المحْكمة للّفاع الأرقط البشرة حول العينين تبدو ناعمةً جداً. لكأنه كان يبكي. أمرٌ غريب. لقد طلب الرفقة، لكنه احتاج إلى الوحدة. طلب الانتباه، وفي الوقت نفسه أراد ألا يُلحظَ.

لم أزعجه. كنت أخشى التورط معه.

بعيداً، في الأسفل، كان اللاجئون اليونانيون يجلسون أو يتمددون في الشمس.

في غرفة التدخين، بعد العشاء، استمر الشاب المصري السمين يؤدي دوره في الملهى حتى بُحَّ صوته. الناس الذين فهموا ما كان يقوله ضحكوا طيلة الوقت. حتى صانع الأثاث نسي بلواه وأهل البلد فهتف وصفّق مع الباقين. التلامذة الأميركيون تكوّموا مع دوار البحر، مثل قومٍ عاجزين محاصرين، وإن تكلموا مع بعضهم تكلموا همساً.

القسم غير الأميركي من الغرفة كان في غالبه من العرب والألمان، وكان ذا نظام. المصريّ هو مُسَلّينا، والفتاة الألمانية الطويلة نرى أنها مضيفتنا. قدمت لنا الشوكولاته، وكلمةً لكل واحدٍ منا. لي قالت: "أنت تقرأ كتاباً انجليزياً جيداً جداً. هذه الكتب الصادرة عن بنجوين جيدة جداً". ربما كانت مسافرة لتلتحق بزوجٍ عربي، لم أكن متأكداً.

كنت جالساً، وظهري إلى الباب، فلم أر الصعلوك يدخل. لكنه صار بغتة أمامي، وقد احتلَّ كرسياً كان أحدهم تركه للتوّ. لم يكن الكرسي بعيداً عن كرسيّ الفتاة الألمانية، لكنه لم يكن ذا قربى من ذلك الكرسيّ أو أي مجموعة كراسي. لم يكن يواجه مباشرةً أي أحد، ولهذا، وفي هذه الغرفة الصغيرة، لم يُمْسِ بعضاً من جَمْعٍ، وبدلاً من ذلك بدا كمن يحتل المركز في مسرح صغير داخل الغرفة. جلس الشيخ متباعد

الساقين، وسترته الثقيلة مخيمة على جيوب بنطلونه الفاغرة. جاء بأشياء كي يقرأها، مجلة، الكتاب الصغير الذي حسبته كتاب صلاة. أرى الآن ان ما حسبته كتاباً هو دفتر جيب لليوميات. انتُزعتْ بعض أوراقه. طوى المجلة أربع طيّات، وخبأها تحت فخذه، وشرع يقرأ يوميات الجيب. ضحك، ونظر ليعرف إن كان أحدٌ انتبه إليه. قلب الصفحة، قرأ، وضحك ثانيةً، ضحكةً أعلى. مال على الفتاة الألمانية وقال لها عبر كتفها : "أقول، هل تقرأين الإسبانية ؟".

ردت باهتمام : "لا".

"هذه النكات الإسبانية مضحكة جداً".

لكنه وإن ظلّ يقرأ قليلاً، لم يضحك ثانيةً.

المصري استمرٌ في تهريجه. وسرعان ما عادت الفتاة الألمانية توزع الشوكولاته : "تفضّلْ !" كان صوتها ناعماً.

الصعلوك كان يفتح مجلته. توقّف ونظر إلى الشوكولاته. لكن ليس له من نصيب فيها. فتح مجلته، ثم شرع، بلا توقّعٍ، يمزّقها. بيدين عصبيتين مزّق صفحة مرةً ، مرّتين. قلب صفحاتٍ أخرى وشرع يمزقها. التفت إلى وراء. ومَزَّقَ. كان صوت تمزيق الورق مسموعاً حتى في الهرج المحيط بالمصري. أتراه كان يمزق صوراً أغضبتْه – رياضة، نساء، إعلانات ؟ أم تراه كان يهيئ ورق تواليت لمصر ؟

المصري اعتراه الصمت. ونظَر. التلامذة الأميركيون نظروا. الآن، وإن تأخرالأمر طويلاً بعد الهرج، تصرّف الصعلوك في هذا الجو الأقرب إلى الصمت، تصرفاً معقولاً. فتح المجلة المهترئة واسعةً، وأداها غاضباً، كمن صَعُب عليه أن يعرف الوضع السليم للمجلة، وتظاهر أخيراً

بالقراءة. حرّك شفتيه، أومأ برأسه، مزّق ومزّق. مزَقٌ وأشرطة من الورق غطّت الأرض حول الكرسي. طوى البقايا المنزوعة للمجلة، وحشرها في جيب سترته ، وثبّت المنغَلق بالدبوس، وخرج من الغرفة، كمن دُفع الى الغضب دفعاً.

صباح اليوم التالي، في الفطور، قال صانع الأثاث : "سأقتله». كان يرتدي بدلته ذات القطع الثلاث، لكنه كان غير حليق، وتحت عينيه دوائرُ سودٌ كالكدمات. البيروتي أيضاً بدا متعباً متهالكاً. لم يقضيا ليلةً مريحة. السرير الثالث في قمرتهما احتله فتىً نمساويّ، مسافر من إيطاليا، مقبول المعشر. لقد رأوا الجعبة والقبعة على السرير الرابع، لكنهم لم يكتشفوا إلا متأخرين جداً، وهم على أسرّتهم، ان الصعلوك سيكون معهم، على السرير الرابع. "أمر بالغ السوء" قال البيروتي وهو يبحث عن تعابير دقيقة وأضاف "هذا الشيخ مثل الطفل".

رفع صانع الأثاث ذراعه وأشار إلى الباب : "طفل ! لو دخل الخنزير الإنكليزي الآن، لقتلتُه، الآن".

كان مسروراً بالإشارة والكلمات وردّدهما ، للغرفة. الطالب المصري وقد بُحَّ صوته وداخ رأسه من أداء الليل، قال شيئاً باللغة العربية. لا شك في نباهة ما قاله، لكن صانع الأثاث لم يبتسم. نقر على الطاولة بأصابعه، ونظر إلى الباب، واستنشق من خلال أنفه استنشاقاً مسموعاً. لم يكن أحدٌ رائق المزاج. لقد فعل قَرْع السفينة وهديرها وتقلُّبُها فِعله في المِعَدِ والأعصاب، والريح الباردة في الخارج تزعج بقدر ما تنعش، وفي المطعم كان الهواء وخيماً، له رائحة المطّاط الساخن. ليس من ناس. ليس سوى النادلين، أرِقينَ، وسخينَ، غير ممشوطي الشعر، متعجلين كالسابق.

صرخ المصريّ.

دخل الصعلوك. جلس هادئاً ينتظر قهوته وفطائره. لا شكوك لديه الآن حول الترحيب به. جاء بلا تردد أو تعجُّلٍ إلى الطاولة المجاورة لنا، استقر في كرسيه، وشرع يختبر أسنانه. قُدِّم إليه الفطور بسرعة. كان يلوك ويشرب بشهية كاملة.

صرخ المصري ثانيةً.

قال له صانع الأثاث : "سأرسله إلى غرفتك الليلة".

الصعلوك لم ير، ولم يسمع. كان يأكل ويشرب فقط. تحت عقدة لفاعِه المحكمة كانت تفاحة آدم مشغولةً جداً. شربَ بصوتٍ عالٍ، متأوهاً في ما بعد كان يلوك في سرعة الأرنب، متلهفاً للُقمة التالية، وبين اللقمتين كان يعانق نفسَه، مسِّداً جانبيه بذراعيه وكوعيه، في اغتباط خالصٍ بالطعام.

اندهاش صانع الأثاث استحال غضباً. نادى، وهو ينهض، دون أن يفارق نظرُه الصعلوك " "هانز !". نهض الفتى النمساوي الذي كان مع المصري عند الطاولة. كان في حوالي السادسة عشرة أو السابعة عشرة، مستديراً مكتنزاً مكتمل العافية، ذا وجه عريض بسّامٍ. البيروتي نهض أيضاً، وخرج الثلاثة جميعاً.

أما الصعلوك، الذي كان لا يدري بهذا كله، ولا بماذا يُعَدُّ له، فقد ظَلَّ يأكل ويشرب حتى انتهى بآهةٍ أقرب إلى آهة الإعياء.

سيتم الأمر مثل صيد النمور. حيث يوضَع الطُّعمُ، ويراقبُ الصيادُ والمتفرجون العملية من منصةٍ آمنة. الطُّعم في هذه الحالة هو جُعبة

الصعلوك نفسها. وضعوا الجعبة على السطيحة خارج باب القمرة، وراقبوها. صانع الأثاث ما زال يتظاهر بغضبٍ أعجزَه عن الكلام. لكن هانز ابتسم وشرح قواعد اللعبة لكل من سأله.

لكن الصعلوك، لم يدخل في اللعبة، حالاً. اختفى بعد الفطور. كان البرد في السطيحة، حتى تحت الشمس، وأحياناً كان الرذاذ يَصَّاعَدُ. الناس الذين جاؤوا يتفرجون على اللعبة لم يمكثوا، حتى صانع الأثاث والبيروتي ذهبا من وقت إلى آخر كي يستريحا في غرفة التدخين بين الألمان والعرب والفتيات الإسبانيات قُدِّمت لهم الكراسي. وكان ثمة تعاطُفٌ مع غضبهم وتعبهم. هانز ظلَّ في موقعه وحين ترغمه الريح الباردة على دخول القمرة يظلّ يراقب من الباب المفتوح، جالساً على أحد الأسرَّة المنخفضة، مبتسماً للناس إذ يمرون.

ثم جاءت الأخبار؛ فقد عاد الصعلوك إلى الظهور، وأُمْسِكَ به، حسب قواعد اللعبة. بعض التلامذة الأميركيين كانوا على السطيحة يتفحصون البحر. كذلك كانت الفتيات الإسبانيات والفتاة الألمانية. سدَّ هانز بجسمه باب القمرة. أستطيع أن أرى الصعلوك ممسكاً بحزام الجعبة. أستطيع أن أسمعه يشكو باللغة الإنجليزية خلال صيحات صانع الأثاث بالفرنسية والعربية، وهو يلوِّح بذراعيه، ويشير بيمناه، بينما تتراقص حواشي سترته.

في المطعم بدا غضب صانع الأثاث مسرحياً، وجانباً من المظهر المتوسطي، كالشاربين، والشعر المتموج. أما الآن، في الهواء الطلق، ومع جمهور متوقع وضحية سلبية تقريباً، فقد كان في منتهى الهياج.

"خنزير! خنزير!"

قال الصعلوك متوسلاً الذين لم يأتوا إلا ليتفرجوا :"ليس هذا صحيحاً".

"خنزير !"

اللحظة العظمى حلّتْ. إذ أن صانع الأثاث، القوي، الأنيق بسترته ذات الكتفين المربعتين، توجّه بيسراه إلى رأس الشيخ. الصعلوك انحرف برأسه كما يفعل حين يتحاشى نظرةً. وشرع يبكي. طاشت يد صانع الأثاث، فتعثّرَ وهوى إلى أمام على الحاجز في رشّة من رذاذ. وضع يده على صدره، متحسساً قلم الحبر وحافظة النقود والأشياء الأخرى، وصاح صيحة أسىً ويأس : «هانز! هانز !"

انطوى الصعلوك على نفسه. توقف عن البكاء. وجحظت عيناه الزرقاوان. إذ أمسك به هانز من لقاعة الأرقط وجعل يلويه، ويسحبه إلى أسفل. وبينما كان يرفس الجعبة بقوّة أسقط الصعلوك باستعمال اللفاع المعقود، فتهاوى ذلك متعثراً بقدم هانز. اختفى التوتر من وجه هانز الباسم، مخلّفاً محض ابتسامة. كان بمقدور الصعلوك أن يتفادى عثرته وسقطته، لكنه فضّلَ أن يسقط ثم أن ينهض. كان لا يزال يمسك بحزام جعبته. وكان يبكي ثانيةً.

"ليست صحيحة. إن ما يتقوّلونه ليس صحيحاً".

الفتيان الأميركيون كانوا ينظرون عبر حاجز السفينة.

نادى صانعُ الأثاث : "هانز ! "

توقف الصعلوك عن البكاء.

"هـ-ا-ا-نز !"

لم يلتفت الصعلوك. نهض مع جعبته وهرول هارباً.

قيل إنه تحصَّن بأحد المراحيض. لكنه ظهرَ بيننا، مرتين.

بعد حوالي الساعة دخل إلى غرفة التدخين، بدون جعبته، رائق الوجه. لقد رمَّمَ حاله. دخل، بطريقته المباغتة، غير ملتفتٍ يسرةً أو يمنةً. خطوات قليلة فقط وضعتْه في وسط الغرفة الصغيرة، لصق رِجلَي صانع الأثاث، الذي مستريحاً على أريكةٍ، متعباً، واضعاً إحدى يديه على عينيه المتعبتين. شرع يشيح برأسه.

"هانز !" نادى صانع الأثاث ، مفيقاً من دهشته، ساحباً رِجليه، منحنياً إلى الأمام.

"هـ-ا-ا-نز !"

أدار الصعلوك رأسه، فرأى هانز يقف وفي يديه أوراق لعبٍ. بدا الرعب في عيني الصعلوك. وامتدت حركة دورة رأسه إلى باقي جسمه، فاستدار على كعبٍ واحدة، وضرب بقدمه الأخرى الأرضَ ضربةً قويةً، وهرب.

الدخول - التقدم - دورة الرِجل الواحدة - والتراجع، هذه كلها شكّلت حركة واحدة متصلة.

"هانز !"

لم يكن هذا نداءً للفعل. كان صانع الأثاث يؤكد المزحة فقط. وقد فهم هانز الأمر، فضحك، وعاد يلعب الورق.

لم يحضر الصعلوك لتناول غدائه. ربما نزل حالاً إلى حيث أوائل المتغدِّين. لكنه ، بدلاً من هذا، اختبأ في أحد المراحيض بدون شك، وخرج ليكون تماماً مع أوائل المتغدِّين. وهذا هو الأوان الذي اختاره اللبناني وهانز. نظر الصعلوك من الممر.

"ها-ا-ا-نز !"

لكن الصعلوك كان مضى.

في ما بعد، أمكنتْ رؤيته مع جعبته، لكن بلا قبعته، في السطيحة السفلى، مع اللاجئين. بدون الصعلوك، ثم بدون الإشارة إليه، استمرت المزحة، في البار، وعلى السطيحة الضيقة، وفي غرفة التدخين. "ها-ا-ا-نز ! ها-ا-ا-نز !"

في الأخير، لم يعد هانز يضحك أو يُصَعِّد نظره، وحين يسمع اسمه يظل مستمراً في المزحة مطْلقاً صفيراً. المزحة عاشت. لكن الصعلوك نُسيَ بعدما هبط الليل.

عشاءً، تحدث اللبنانيان ثانيةً، بطريقتهما غير المهتمة، عن المال. قال البيروتي إنه بسبب ظروف خاصة معينة في الشرق الأوسط، ذلك العام، صار بالإمكان الحصول على ثروة من التصدير المرتَّب للأحذية المصرية، لكن هذا لا يعرفه أناسٌ كثار. قال صانع الأثاث إنه يعرف الأمر منذ شهور. عيَّنا استثماراً ، تباريا في معرفتهما الكُلَفَ المحلية الخفيّة، وحسبا بهدوءٍ الأرباح الهائلة، لكنهما، في الحق، أخذا يشعران بالضجر من بعضهما. اللعبة هي اللعبة. وقد عرف أحدهما مقاسَ الآخر. وكلاهما الآن متعب.

شيء من تحفُّظ التلامذة الأميركيين انتقل إلى المسافرين الآخرين في هذا المساء الأخير. الأميركيون أنفسهم بدأوا يتخلون عن تحفظهم. وفي غرفة التدخين، حيث تبدو الأنوار أكثر خفوتاً، كانت أصواتهم تتعالى في مناوشات ولد - بنت ودّيّة. وكانوا يكثرون الرواح و المجيء،

والأنشط بينهم كانت فتاة طويلة ترتدي لباس راقصة باليه، كامل السواد من العنق حتى الركبة. والفتاة الألمانية، مضيفتنا البارحة، كانت معتلّةً تماماً. والفتيات الإسبانيات لم يعدن يغازلن أحداً. المصري الذي انضاف دوار البحر إلى صداع سُكره كان يلعب البريدج، مُطْلقاً بين حين وآخر دُعابة، أو بيتاً من أغنية، لكنه كان يحظى بالابتسامات لا بالضحكات. صانع الأثاث وهانز كانا يلعبان الورق أيضاً. وحين تأتي ورقة جيدة أو أخرى رديئة كان صانع الأثاث يقول بهتافٍ ناعمٍ لا ينتظر استجابةً : هانز ! هانز! كان هذا كل ما تبقى من مزحة النهار.

دخل البيروتي وشرع يراقب. وقف إلى جنب هانز. ثم وقف إلى جنب صانع الأثاث وهمس له بالإنجليزية، لغتهما السرية.

"الرجل أغلقَ القمرةَ على نفسه".

هانز فهمَ. نظر إلى صانع الأثاث.

لكن صانع الأثاث كان منهكاً. لعبَ ما بيده من أوراق، ثم خرج مع البيروتيّ. وحينما عاد قال لهانز : "قال إنه سوف يشعل النار في القمرة لو حاولنا الدخول. ذكر أن لديه كمية من الورق ومن أعواد الثقّاب. أنا أعتقد أنه سيفعلها".

تساءل البيروتي : "ماذا ترانا فاعلين ؟".

"ننام هنا، أو في المطعم ".

"لكن أولئك النادلين اليونانيين ينامون في المطعم. لقد رأيتهم هذا الصباح"

قال صانع الأثاث : "هذا يبرهن أن الأمر ممكن".

في ما بعد، وفي آخر الأمسية، توقفت خارج قمرة الصعلوك. في

البداية لم أسمع شيئاً. ثم سمعت ورقاً يُكرمَش : الصعلوك يحذِّر. لست أدري كم سهر تلك الليلة، منصتاً إلى وقع الخُطى، منتظراً الهجوم على الباب ودخول هانز.

صباحاً، عاد إلى السطيحة السفلى، بين اللاجئين. قبّعته الآن لديه، إذ استعادها من القمرة.

كانت الاسكندرية خطاً متألقاً طويلاً على الأفق : الرمل، وفضة صهاريج الوقود. السماء غائمة، والبحر الأخضر صار أغمق. ولجنا مياه المرفأ تحت مطرٍ باردٍ ونورٍ وعاصفةٍ.

وقبل أن يأتي موظفو الهجرة بوقت طويل، اصطففنا طابوراً ننتظرهم . الألمان انفكّوا عن العرب. هانز انفكّ عن اللبناني. اللبناني عن الفتيات الإسبانيات. والآن، كما عبر الرحلة، ومنذ لقائه مع الصعلوك، كان اليوغوسلافي الأشقر الطويل وحيداً. من السطيحة السفلى صعد اللاجئون بصناديقهم وصُرَرهم، وهكذا صاروا ، أخيراً، أكثر من الأسود الذي يلفُّهم. إن لديهم الأجسام المرتخية والبَشَرات الرديئة لمن يأكلون الكثير من الكربوهيدرات. كانت وجوههم المغضنة ساكنة، نائية، لكنها ملأى بمكر أحمق شديد. كانوا يراقبون.

وما إن صعد الموظفون على ظهر السفينة حتى شرع اللاجئون يتدافعون ويندفعون نحوهم. كان هياجاً عجيباً، مبالاة المضطهَد بالسلطة.

صعد الصعلوك مع قبعته وجعبته. حركاته لا تنمّ عن عصبية، لكن عينيه كانتا سريعتي الرمش خوفاً . أخذ مكانه في الطابور وتظاهرَ

بالانحناء في نهايته. كان يحرِّك قدميه إلى أعلى وإلى أسفل، مرَّةً كمن نفد صبره من الموظفين، ومرَّةً كمن يحتمي من البرد. لكنه أقلُّ مدعاةً للانتباه ممّا ظَنَّ. هانز، الشاخص ضخماً مع جعبته هو، رآه، ثم لم يعد يراه. واللبنانيان، حليقين، مستريحين، بعد ليلتهما في المطعم، لم يرياه.

لقد مضت تلك المعاناة.

واحدٌ من كثيرين

ONE OUT OF MANY

أنا الآن مواطنٌ أميركيّ، وأعيش في واشنطن، عاصمة العالم. أناس كثارٌ، سواءً هنا أو في الهند، سوف يشعرون أنني وُفِّقْتُ. لكن، كنت جدّ سعيد في بومباي. كنت محترماً ذا مكانة معينة. اشتغلتُ عند رجلٍ مهم. عِلْيةُ القوم كانوا يأتون إلى مسكن العزّاب، يستطيبون طعامي، ويُثنون عليّ. لديّ أيضاً أصدقائي. كنا نلتقي، في الأماسي على الرصيف تحت رواق مسكننا. بعضُنا، مثل خادم الخياط ومثلي، يسكن في الشارع ذاته. الآخرون كانوا يأتون إلى هذا الجزء من الرصيف ليناموا. إنهم قومٌ محترمون، فنحن لا نشجّعُ من هبّ ودبّ.

الجو بارد في الأماسي. والمارة قليلون، وفي ما عدا حافلة عابرةً ذات طابقين، أو سيارة أجرة، لا توجد حركة نقل كثيرة. الرصيف يُكنس ويُرَشّ، ويؤتى بالأفرشة من مخابئ النهار، وتوقد قناديل زيت صغيرة. وبينما القوم في الطابق العلويّ يسمرون ويضحكون، كنا نحن على الرصيف نقرأ الصحف ونلعب الورق، ونروي الحكايات وندخن. غليون الطين ينتقل من صديق إلى صديق، حتى يغلبنا النعاس. في ما عدا موسم الأمطار، بالطبع، أنا أفضل النوم على الرصيف مع أصدقائي، مع أنّ لي في مسكننا صندوقاً كاملاً تحت الدّرج يمكنني استعماله.

شيءٌ جيدٌ، بعد ليلة عافيةٍ في الهواء الطلق، أن تستيقظ قبل شروق الشمس، وقبل مجيء الكنّاسين. أحياناً أرى مصابيح الشارع

تطفأ .الأفرشة تُطوى، والكلام قليل، وسرعان ما يخفّ أصدقائي في مباراة صامتة نحو أزقة وقِطَع أرض مفتوحة لقضاء حاجتهم. أنا معفوٌّ من هذه المباراة، ففي مسكننا مرحاض.

بعد هذا، ولنصف ساعة، كنت استطيع أن أتسكّع. أنا أحب التمشي عند بحر العرب، منتظراً شروق الشمس. آنذاك تتلألأ المدينة ويلتمع المحيط كالذهب آهٍ على مماشي الصباح تلك، على البريق المباغت للمحيط، على النسيم المالح الرطب في وجهي، على خفْق قميصي، على الفنجان الأول الساخن الحلو من "بَسْطَةً" على مذاق سجارة الورق الأولى.

لاحظ ما فعلته بي يد الأقدار. إن ما تمتعتُ به من احترامٍ وأمانٍ كان بفضل أهمية مخدومي. هذه الأهمية بالذات، هي التي دمَّرَتْ فجأةً نمط حياتي. لقد انتُدب مخدومي من قِبل مؤسسته للعمل في الحكومة، وبُعث إلى واشنطن، سُعدت له، لكني خفتُ على مصيري. سيكون خارج البلاد عدة سنين، وهو لا يعرف في بومباي من ينتدبني إليه. لهذا، سأفقد عملي وسكني. اعتبرتُ نفسي لعدة سنين ذا حياة مستقرة. لقد شقيتُ حتى وصلتُ إلى ما وصلت إليه، ولا أشعر أني قادرٌ على البدء من جديد. شعرت باليأس. أفي بومباي عملٌ لي ؟ تخيّلتُ نفسي وقد وجبتْ عليّ العودةُ إلى قريتي في التلال، إلى زوجتي وأطفالي هناك ليس لقضاء عطلة، وإنما للبقاء نهائياً. تخيَّلتُني حمّالاً من جديد في الموسم السياحي، راكضاً وراء الحافلات إذ تصل إلى المحطة، صائحاً بين أربعين أو خمسين آخرين طلباً للحقائب. الحقائب الهندية، لاتلك الأميركية الخفيفة، الحقائب الصناديق المعدن الثقيلة !

كدتُ أبكي. ذلك النمط من الحياة لم يعد يناسبني. عشتُ في بومباي عيشةً ناعمة ، كما أنني لم أعد فتيّاً. صار عندي ما أملكه.

وقد ألِفتُ خصوصية صندوقي صرت ابن مدينةٍ، له وسائل راحة معينة.

قال مخدومي : "واشنطن ليست بومباي ! اسمعْ يا سانتوش. واشنطن غالية. حتى لو استطعتُ أن أرفعَ أجركَ فإنك لن تقدر على العيش هناك مثل طريقتك في العيش هنا".

لكن، أن أكون حافياً على التلال، بعد بومباي ! الصدمة، العار. لم أستطع مواجهة أصدقائي. توقفت عن النوم على الرصيف، وقضيتُ ما استطعتُه من وقتي الحر في مقتطَعي، بين ممتلكاتي، كأنني بين أشياء سوف تؤخذ مني سريعاً.

قال مخدومي : "سانتوش قلبي ينزف ألماً عليك".

قلت : "يا صاحب، إن ظهَر عليّ القلقُ قليلاً فهو لأنني قلقٌ عليك. أنت مشوّشٌ دائماً، ولا أدري كيف ستدبِّر أمرك في واشنطن".

"لن يكون الأمر سهلاً. لكنه المبدأ. هل يسافر ممثل بلد فقير مثل بلدنا مع طبّاخه ؟ هل سيُحدث هذا انطباعاً حسناً ؟ ».

"ستفعل أنت الصواب دائماً، يا صاحب".

اعتراه الصمت.

بعد بضعة أيام قال : "المسألة ليست الكلفة فقط، يا سانتوش. هناك مسألة العملة الأجنبية وأسعار الصرف. إن روبيتنا لم تعد مثل ما كانت".

"أنا أفهمُ، يا صاحب. الواجب هو الواجب".

بعد أسبوعين، وبعد أن كدت أفقد الأمل . قال : "سانتوش. استشرتُ الحكومة سوف ترافقني. لقد أصدرت الحكومة الأمر. ستهيء المأوى، لا النفقات. ستحصل على جواز سفرك، وعلى وثيقة " P ". لكن أريد منك أن تفكر، يا سانتوش. واشنطن ليست بومباي".

تلك الليلة نزلت إلى الرصيف مع فراشي.

قلت وأنا أنفخ داخل قميصي : "بومباي تغدو أشد حرارةً فأشدّ».

قال خادم الخياط : "أتعرف ما أنت فاعلٌ؟ هل سيدخن الأميركيون معك ؟ هل سيجلسون ليتحدثوا إليك في المساء ؟ هل سيمسكون بيدك ويتمشون معك عند المحيط ؟".

سُعدتُ لأنه يحسدني. أيامي الأخيرة في بومباي كانت في منتهى السعادة.

أوسقتُ حقيبتيّ مخدومي، وحزمتُ ما أملكه في أطوال من القماش القطني العتيق. في المطار اعترضوا بشدّة على حُزَمي. قالوا إنهم لا يستطيعون قبولها كحقائب، لأنهم لا يتحملون مسؤوليتها. ولهذا تعيَّن عليّ أن أصعد إلى الطائرة حاملاً معي حُزَمي كلّها. الفتاة الواقفة أعلى السلّم تبتسم للجميع، توقفت عن الابتسام حين رأتني. جعلتني أذهب إلى آخر مكان في الطائرة، بعيداً عن مخدومي. معظم المقاعد هناك كان فارغاً، مع ذلك، وهكذا تمكنتُ من أن أنشر حُزَمي حولي. أجل. كان مكاني مريحاً.

خارج الطائرة كان الجو ساخناً ساطعاً، وفي الداخل كان الجو بارداً. أقلعت الطائرة، ارتفعت في الهواء، وبومباي والمحيط يميلان هذه الناحية أو تلك. أمرٌ لطيف. حين استقرَّ كل شيء بحثت عن أناس مثلي، لكني لم أجد بين الهنود أو الأجانب من يبدو في هيأة الخادم مثلي. والأسوأ من هذا كله، أنهم كانوا متأنقي اللباس كأنهم ذاهبون إلى زفاف، ويا أخي، سرعان ما عرفت أنّ العجب لم يكن فيهم، بل فيَّ أنا. كنت في لباس بومباي العادي، القميص الطويل الفضفاض والسراويل ذات المَحْزم

العريض المشدود بحبل. إنه لباسُ خدمٍ محترم، ليس وسخاً وليس نظيفاً. هذا اللباس لن ينظر إليه أحد في بومباي. أمّا هنا، على الطائرة، فإن الرؤوس لتستدير كلما انتصبتُ واقفاً.

كنت قلقاً. خلعت حذائي، الضيّق حتى بعد إرخاء الخيوط، وسحبتُ قدميّ إلى أعلى. شعرتُ بتحسُّن. أعددت قليلاً من خليط جوزة البيتل فشعرتُ بمزيد من التحسن. لكن نصف مَسَرَّة البيتل هي في البصق. ولم أتبين المشكلة إلا بعد أن هيّأتُ بصقةً ملءَ الفم. لاحظت الفتاة ذلك. فتاة الطائرة لم تحبني البتة. تكلمت معي بخشونة. كان فمي مليئاً، وخدّاي على وشك الانفجار. وعجزت عن قول أي شيء. كنت أستطيع النظر إليها فقط. مضت، واستدعت رجلاً يرتدي بدلةً رسمية، جاء ووقف عندي. انتعلتُ حذائي ثانيةً وابتلعت عصير البيتل. لقد اعتللت تماماً.

الفتاة والرجل، كلاهما، دفعا عربةً صغيرةً للمشروبات على الممر. الفتاة لم تنظر إليّ، لكن الرجل قال : "أتريد شراباً ، يا هذا ؟". لم يكن شخصاً سيئاً. أشرتُ عشوائياً إلى قنينة. كان نوعاً من الصودا، لطيفاً ولاذعاً في البداية، لكن ليس بهذا اللطف فيما بعد. كنت أقلّب الأمر على وجوهه و حين قالت الفتاة : "خمسة شلنات استرلينية أو ستون سنتاً أميركياً". فوجئت تماماً. لم يكن لديّ من المال سوى بضع روبيات. أصرَّت الفتاة، وظننتُ أنها ستضربني بلوحها، حين وقفتُ وأشرتُ إلى حيث كان مخدومي.

للتو جاء مخدومي عبر الممر . لم يكن يبدو في حالة حسنة. قال بدون أن يتوقف "شمبانيا، يا سانتوش ؟ نحن نبالغ منذ الآن ؟" ثم ذهب

إلى المرحاض. وحين مر بي عائداً قال : "صرفٌ أجنبيّ، يا سانتوش ! صرفٌ أجنبي !". هذا كل مافي الأمر. المسكين، كان هو أيضاً يعاني.

الرحلة صارت تعيسة. بعد الخمرالذي شربت، وعصير البيتل، وحركة الطائرة وضجيجها، صرتُ أتقيّأ على لوازمي كلها، ولم أهتم بما قالته الفتاة أو فعلته. في ما بعد ألحّتْ عليّ حاجات أشنعُ. كدتُ أختنق في غرفتي الصغيرة الأزّازة بمؤخر الطائرة. صُدمتُ حين رأيت وجهي في المرآة. في ضوء الفلورسنت كان لونه لون جثة. كانت عيناي مجهدتين، والهواء الحاد يؤذي أنفي، ويكاد يدخل إلى مخي. جلست على مقعد المرحاض. لم أسيطر على نفسي. وهربت فور استطاعتي إلى متّسع المقصورة آملاً في ألاّ يلحظ أحد فِعلتي. الأضواء خافتة الآن. بعضهم خلع سترته ونام. تمنيتُ لو تحطمت الطائرة.

أيقظتني الفتاة، كادت تصرخ : "أنت فعلتَها؟ أنت؟ أليس كذلك ؟" ظننتُ أنها ستقدُّ قميصي قداً. تراجعتُ ولذتُ بالنافذة. انفجرت باكيةً، وانهمرت دموعها، وكادت تتعثر بالساري الذي ترتديه وهي تسرع في الممر لتأتي بالرجل ذي البدلة الرسمية.

كابوس . وكل ما عرفته، هو أن في النهاية، بعد المطارات والأبهاء المزدحمة حيث الكل أنيق، وبعد كل الإقلاعات والهبوطات، مدينة واشنطن. منذ الآن كنت متخوفاً قليلاً من تلك المدينة. أقول هذا صراحةً. أردت فقط أن أغادر الطائرة وأكون في الهواء الطلق ثانيةً، أن أقف على الأرض وأتنفس وأحاول أن أفهم في أي وقتٍ من اليوم نحن.

وصلنا أخيراً. كنت دائخاً. يا لعبء تلك الحُزَم ! مزيد من الغرف المغلقة والأضواء الكهربائية. ثمة أسئلة من الموظفين.

"أهو دبلوماسي ؟"

قال مخدومي : "إنه خادمٌ فقط".

"أهذه حقائبه ؟ ماذا في ذلك الجيب ؟"

شعرتُ بالخجل.

قال مخدومي : "سانتوش".

سحبتُ أكياس الفلفل والملح الصغيرة، والسكاكر، ومغلفات المناديل العطرة وأنابيب الخردل الصغيرة. ألاعيب الطائرة. كنت أجمعها طوال الرحلة، آخذاً حفنةً كلما مررت بالصواني.

قال مخدومي : "إنه طبّاخ".

"هل يسافر دوماً مع بهاراته ؟".

قال مخدومي فيما بعد، ونحن في السيارة : "سانتوش، سانتوش، في بومباي لا يهم ماذا تفعل. أما هنا فأنت تمثل بلادك. يجب عليّ القول إنني لا استطيع أن أفهم السبب في خروج سلوكك عن المعتاد".

"أنا متأسف، يا صاحب"

"خذ الأمر هكذا يا سانتوش. أنت هنا لا تمثل بلادك فقط، أنت تمثلني أيضاً". لأهل واشنطن كان الوقت عصراً، أو أوائل المساء، لستُ متأكداً من الاثنين. فالوقت والضوء لا يتلازمان تلازمهما في بومباي. عن تلك الجولة بالسيارة أتذكر حقولاً خضراً، وطرقاً واسعة، وسيارات كثيرة مسرعة، مطْلقة هسهسة دائبة لا تشبه ضجة سياراتنا في بومباي. أتذكر بنايات عالية، وحدائق واسعة، ومناطق أسواق عدة، ثم بيوتاً صغيرة بلا أسيجة، وذات حدائق كالغابة، مع الأحباش* جالسين أو واقفين، جالسين غالباً في كل مكان. إنني أتذكر الأحباش خصوصاً.

* الأحباش Hubshi، السود، بتعبير سانتوش.

فلقد سمعت عنهم في الحكايات ورأيت واحداً منهم أو اثنين في بومباي. لكني لم أحلم بأن هذا الرسّ المتوحش موجودٌ في واشنطن بهذا العدد، وبأن أفراده مسموحٌ لهم بالطواف في الشوارع أحراراً هكذا. يا أبتي، أي مكان أتيتُه ؟

أقول، أردت أن أكون في الخلاء، أن أتنفس، وأتمالك نفسي، وأتفكّر. لكني لم أجد خلاء ذلك المساء. من الطائرة إلى مبنى المطار إلى السيارة إلى بناية الشقق السكنية، إلى المصعد إلى الممر إلى الشقة نفسها، كنت حبيساً، ودائماً مع هسهسة مكيفات الهواء.

كنت دائخاً، فلم أتبيّن الشقة جيداً. رأيتُها مكان توقُّفٍ حسب. مخدومي مضى إلى فراشه في الحال، منهكاً تماماً، ومسكيناً. بحثت عن غرفتي. لم أجدها فصرفتُ النظر. تملّكني الحنين إلى عادات بومباي، فبسطتُ فراشي في الممر المكسوّ بالسجاد خارج باب شقتنا. كان الممر طويلاً : أبواب، أبواب. السقف المضاء مزيّن بنجومٍ مختلفة الأحجام، الألوان كانت الرمادي والأزرق والذهبي. تحت تلك السماء التي تقلد السماء أحسست بأني سجين.

عندما استيقظت، ونظرت إلى السقف، ظننت للحظةٍ أنني كنت نائماً على الرصيف أسفل رواق مسكننا في بومباي. ثم أدركت مدى ضياعي. لم أستطع معرفة ما مرٌّ من وقت، ولا إن كان ليلاً أو نهاراً. الدليل الوحيد هو الصحف التي رأيتها ملقاةً عند عدد من الأبواب الآن. وقد أزعجني التفكير بأنني حين كنت نائماً، وحيداً، أعزلَ، تعرضتُ لمراقبة غريب أو أكثر.

حاولتُ فتح باب الشقة، لأجد أنني أغلقتُها عليّ من الخارج. لم أشأ إزعاج مخدومي. قلتُ فلأخرج أتمشّى. تذكرت مكان المصعد. دخلتُ

وضغطتُ الزر. هبط المصعد سريعاً صامتاً كأني في الطيارة من جديد. عندما توقّف المصعد وانزلق البابُ المعدنُ الأزرقُ رأيت ممرات اسمنتية عارية وجدراناً صقيلة. كان صوت المكائن عالياً جداً. عرفت أني في القبو وأن الطابق الرئيس كان غير بعيد، فوقي. لكني لم أعد أريد المحاولة. وصرفتُ النظر عن فكرة الهواء الطلق. فكرتُ بالعودة فقط إلى الشقة. لكني لم أسجل الرقم، ولاأعرف في أي طابق نحن. فارقتني شجاعتي. جلستُ على أرضية المصعد وأحسست بالدموع تنهمر من عينيّ. انغلق باب المصعد بلا صوت تقريباً، ووجدتُني أرفَع بسرعة عظيمة، وسكون. توقف المصعد وانفتح الباب. كان مخدومي. شعره أشعث. والقميص الذي كان يرتديه أمس وسخٌ غير مزررٍ بالكامل. كان يبدو خائفاً.

"سانتوش، أين كنت في هذه الساعة من الصباح، وأنت حاف؟".

كدت أعانقه. عاد بي مسرعاً عبر الصحف إلى شقتنا، وأُدخلتُ فراشي. النافذة العريضة أظهرت سماء الصبح المبكر، والمدينة الكبيرة، كنا في الأعالي، أعلى من الأشجار.

قلت : "لم أستطع أن أجد غرفتي".

قال مخدومي : "أمرٌ حكومي. أمتأكدٌ من أنك بحثتَ ؟".

بحثنا معاً. ممرٌ صغيرٌ يؤدي عبر الحمّام إلى غرفته، وآخر أقصر يؤدي إلى الغرفة الكبيرة والمطبخ. لا غير.

قال مخدومي وهو يتحرك في المطبخ ويفتح أبواب الخزانات : "إمرٌ حكومي. مدخل منفصل. رفوف. لديّ المراسلات". فتح باباً آخر ونظر داخله : "سانتوش، أممكنٌ أن هذا ما قصدتْه الحكومة ؟".

الخزانة التي فتحها كانت عالية مثل سائر الشقة،وواسعة مثل المطبخ، مساحتها حوالي ستة أقدام. عُمقها حوالي ثلاثة أقدام. ذات بابين. باب ينفتح على المطبخ، وآخر يواجهه مباشرةً، ينفتح على الممر.

قال مخدومي : "مدخل منفصل. رفوف . ضوء كهربائي. مَقْبَس كهرباء. سجادة ملصقة".

"ينبغي أن تكون هذه غرفتي، يا صاحب".

"سانتوش. عدوٌ لي في الحكومة، فعل بي ذلك".

"لا. يا صاحب. لا تقُلْ ذلك. ثم أن الخزانة كبيرة جداً. وأستطيع أن أجعلها مريحةً لي. إنها أوسعُ كثيراً من صندوقي الصغير في مسكننا. كما أنها ذات سقف لطيف. لن أرطم رأسي به".

"أنت لا تفهم ياسانتوش. بومباي هي بومباي. إن أخذنا نعيش هنا في الخزائن فسنقدم انطباعاً سيئاً. سيظنون أننا في بومباي نعيش جميعاً في خزائن".

"آه، يا صاحب، لكن بمقدورهم أن ينظروا إليّ فقط ليعرفوا أني نُفاية".

"أنت جيد جداً، يا سانتوش. لكن هؤلاء الناس خبثاء. مع ذلك، إن كنتَ سعيداً فأنا سعيد".

"إنني سعيد جداً ، يا صاحب".

وبالرغم من كل شيء. كان أمراً لطيفاً أن أزحف ذلك المساء، وأبسط فراشي، وأشعر بأني محميٌ ومختبئ. نمتُ نوماً جيداً.

في الصباح قال مخدومي : "يجب أن نتكلم عن المال، يا سانتوش. معاشك مائة روبيّة في الشهر. لكن واشنطن ليست بومباي. كل شيء

هنا أغلى قليلاً. وسوف أعطيك علاوة تقدير. فمنذ هذا اليوم أنت تتقاضى مائة وخمسين روبية».

«صاحب».

«وأعطيك مقدماً معاش أسبوعين، بالعملة الأجنبية. خمساً وسبعين روبية. كل روبية عشر سنتات. سبعمائة وخمسون سنتاً. سبعة دولارات وخمسون سنتاً. اخرجْ عصر هذا اليوم، تمشَّ، واستمتعْ. لكن انتبهْ. تذكَّرْ أننا لسنا بين أصدقاء».

هكذا، ارتحت أخيراً، وخرجت مع نقود في جيبي، إلى الهواء الطلق. لم تكن المدينة، طبعاً، تلك المخافةَ التي حسبتُها. المباني ليست كلها عالية، ولا كل الشوارع مزدحمة، وهناك أشجار جميلة كثيرة. الكثير من الأحباش هناك، وبعضهم متوحش الهيأة حقاً، ذو نظارات سود، وشعر منتصب. لكن يبدو أنهم لن يهاجموك إن لم تلحق بهم أذىً أو تزعجهم.

كنت أبحث عن مقهى أو بسطة شاي قد يجتمع فيها الخدم. لكني لم أجد خدماً، وكانوا يطردونني من أي مكانٍ دخلتُه. قالت لي البنت بعد أن انتظرتُ حيناً: «ألا تستطيع القراءة؟ نحن لا نخدم الهيبيين ولا الحفاة هنا».

آه، يا أبتي! لقد خرجت بدون حذائي. وفكرتُ، أي بلادٍ هذه، حيث لا يُسمح للناس بالملبس الطبيعي، لكن عليهم أن يلبسوا أفضل ما لديهم أبداً! لِمَ يتعيّن عليهم أن ينتعلوا أحذيةً ويرفلوا في ثيابٍ فاخرة، بلا غاية؟ أي مناسبةٍ يحتفلون بها؟ أي تبذير! أي تباهٍ! من يظنونه يراقبهم طيلة الوقت؟

حتى وهذه الأفكار تدور في رأسي، وجدتُني أدخلُ موضعاً ذا شجر ونافورة، حيث - مثل حلم متحقق يصعب تصديقه - كان أناسٌ كثارٌ يشبهون قومي. أحكمتُ شدّ الحبل على سروالي الفضفاض، وأنزلتُ قميصي الخفّاق، وركضت بين السيارات نحو المستديرة الخضراء.

عددٌ من الأحباش كانوا هناك، يعزفون على آلات موسيقية، ويبدون جِدَّ سعداء، على طريقتهم. كما أن هناك عدداً من الأميركيين يجلسون على العشب وعند النافورة والناصية. كثير منهم كانوا يرتدون ملابس خشنة أليفة، وبعضهم كان حافياً. وشعرتُ بأنني كنت متعجلاً جداً في إدانتي الرسَّ بأجمعه. لكن من جذبني إلى الدائرة لم يكن هؤلاء الناس، وإنما الراقصون. كان الرجال ملتحين، حفاة، ذوي أردية زعفرانية، والفتيات كنّ يرتدين الساري وينتعلن أخفاف الخيش التي تشبه أحذية باتا لدينا. كنّ يخضضن صنوجاً صغيرة ويغنين ويرفعن رؤوساً ويخفضنها ويدرن في حلقة، مثيراتٍ الغبار. لكأنها رقصة هنودٍ حمر في فيلم رعاة بقر، لكنهن كنّ يغنين كلماتٍ سنسكريتية في تعظيم الإله كريشنا.

سررتُ سروراً بالغاً. لكن داهمتني فكرة مزعجة. ربما كان مصدرها مرأى الراقصات الرثّ، ربما كانت اللهجة، والطريقة الرديئة في نطق السنسكريتية. فكرت بأن هؤلاء الناس غرباء الآن، لأنهم ربما كانوا في أحد الأيام مثلي. وربما، مثل ما تروي القصص، جيء بهم إلى هنا مع الأحباش، سبايا، منذ زمن بعيد، وصاروا شعباً ضائعاً، مثل غجرنا المترحلين، ونسوا أصلهم. حين فكرت ذلك فقدتُ استمتاعي بالرقص، وشعرت بامتعاض إزاء الراقصات، مثل ذلك الشعور الذي ينتاب أحدَنا

حين يواجَه بشيء يفترض حُسنه فإذا به غير ذلك، مثل شخص مشوّه أو مجذوم تراه سليماً من بعيد.

لم أمكث. غير بعيد عن الحلقة رأيت مقهى بدا أنه يخدم الحفاة. دخلتُ، تناولت قهوة، وقطعة كيك ظريفة، وابتعتُ علبة دخان. كل شيء على ما يرام. لكن الحفاة أخذوا ينظرون إليّ، وجاء ملتحٍ منهم وتشمّمني بصوت عالٍ وابتسم وتكلم برطانةٍ ما، ثم جاء حفاةٌ آخرون وفعلوا فعل أولهم. لم يكونوا غليظين، لكني لم أفهم التصرف، ومما أخافني قليلاً أن اثنين أو ثلاثة منهم بدا كأنهم يتبعونني حين تركت المكان. لم يكونوا غليظين. لكني أحسب لكل شيء حسابه. مررت بدار سينما، ودخلت. كنت أريد ذلك على أي حال، فقد اعتدتُ في بومباي أن أذهب مرةً كل أسبوع.

كل شيء على ما يرام. بدأ عرض الفيلم. كان ناطقاً باللغة الإنجليزية، تعسر عليّ متابعته قليلاً، مما أتاح لي وقتاً للتفكير. هناك فقط، في العتمة، فكرتُ بالمال الذي كنت أنفقه. بدت لي الأسعار معقولة جداً، مثل أسعار بومباي. ثلاثة لتذكرة السينما، واحد وخمسون سنتاً للمقهى مع المكافأة. لكني كنت أفكر بالروبية وأدفع بالدولار.

في أقل من ساعة أنفقت معاش تسعة أيام.

لم أستطع متابعة الفيلم بعد ذلك. خرجت وشرعت أسلك طريق العودة إلى بناية الشقق السكنية. مزيدٌ من الأحباش هناك الآن، وحيث اجتمعوا كان الرصيف مبتلاً، وخطراً، بالزجاج المكسور والقناني. لم أستطع التفكير بالطبخ حين عدت إلى الشقة. لم أستطع أن أتحمل المنظر. بسطت فراشي في الخزانة، وتمددتُ في العتمة وانتظرت عودة مخدومي.

عندما عاد قلت له: "يا صاحب، أريد العودة إلى البلد".

"سانتوش. أنا دفعت خمسة آلاف روبية لآتي بك هنا. فإنْ أعدتُكَ تعيَّنَ عليك أن تعمل ست سنوات أو سبعاً بلا معاش، لتدفع ما أنفقتُ عليك".

انفجرتُ بالدموع.

"يا سانتوشي المسكين. لا بد أن أمراً ما وقع. قل لي ما حدث؟"

"يا صاحب، أنا صرفت أكثر من نصف التسبيقة التي أعطيتني هذا الصباح. خرجت وتناولت قهوة وقطعة كيك ثم ذهبت إلى السينما".

ضاقت عيناه والتمعتا خلف نظاراته. عضَّ باطن شفته العليا ومسح شاربيه بإسنانه السفلى، ثم قال "ها أنتذا ترى. أنت ترى. لقد أخبرتك إنها غالية".

فهمتُ أني سجين. تقبّلت ذلك، وتكيّفت له. تعلمت العيش داخل شقة. بل كنت حتى هادئاً.

كان مخدومي ذوّاقةً، وسرعان ما جعل الشقة تبدو كأنها في مجلة، مع الكتب، والرسوم الهندية، والأنسجة الهندية، والمنحوتات، والتماثيل البرونزية لآلهتنا. كنت معنيّاً بألاّ أبتهج بها. كانت الشقة، بالطبع، جميلة جداً، مع الإطلالة. لكن الإطلالة ظلت أجنبية، ولم أشعر، يوماً، بأن الشقة حقيقية، مثل غرفات بومباي العتيقة الرثة ذات كراسي الخيزران، كما لم أشعر بأي علاقة معها.

حين يأتي الناس للعشاء أقوم بواجبي. وفي الوقت المناسب أقول للجماعة :تصبحون على خير، وأغلق المطبخ خلف ستارته التي تنطوي،

وأتظاهر بأني غادرت الشقة. بعد ذلك أتمدد، هادئاً، في خزانتي، وأدخن. كان مسموحاً لي بالخروج، فلديّ مدخلي المنفصل. لكني لم أرد المكث خارج الشقة. بل لم أحبب حتى النزول إلى غرفة الغسيل في القبو.

مرة، أو مرتين كل أسبوع، أذهب إلى السوبر ماركت في شارعنا. وعليّ، دائماً، أن أمرّ بجماعات من الأحباش رجالاً وأطفالاً. حاولتُ ألاّ أنظر إليهم لكن الأمر صعب كانوا يجلسون على الرصيف، على الدّرجات، وفي الدغل حول منازلهم المبنية بالطابوق الأحمر، وبعضها ذو نوافذ سُمِّرتْ عليها ألواح. يبدو أنهم يحبون الهواء الطلق كثيراً، ولا يعملون كثيراً، بل أن بعضهم يسكر حتى في الصباح.

تتناثر بين منازل الأحباش، منازل أخرى قديمة أيضاً، لكنها ذات مصابيح غاز مضاءة ليل نهار في المدخل. هذه هي منازل الأميركيين. لا أكاد أرى هؤلاء القوم، إذ يبدو أنهم لا يقضون وقتاً طويلاً في الشارع. مصباح الغاز المضاء كان الطريقة الأميركية في القول بأن المنزل وإن بدا قديماً في خارجه، إلا أنه لطيف وجديد في داخله، كما شعرت بأن المصباح المضاء هو تحذيرٌ للأحباش بأن يبتعدوا.

خارج السوبر ماركت، يقف دائماً شرطي ذو مسدس. وفي الداخل تجد، دوماً، حارسين حبشيين ذوي هراوة، وهناك، وراء متسلمي النقود، متسولون أحباشٌ شيوخٌ يرتدون الأسمال. ثمة، أيضاً، كثير من الفتيان الأحباش، الصغار لكن الأقوياء، ينتظرون أن يحملوا الرُّزَم، مثل ما كنت أنا، يوماً ما، في التلال، أنتظرُ لأحمل حقائب السوّاح الهنود.

هذه السفرات إلى السوبر ماركت كانت طلعاتي الوحيدة، وكنت

على الدوام سعيداً بالعودة إلى الشقة. العمل هناك خفيف. شاهدت التلفزيون كثيراً، وتحسنت لغتي الإنجليزية. وصرت أحب إعلانات معينة. في تلك الإعلانات رأيت الأميركيين الذين لا أكاد أراهم في الحياة العادية، والذين لا أعرفهم إلا بمصابيحهم الغازية. لكني في الشقة، مع الإطلالة على القباب البيض والأبراج وخضرة المدينة الشهيرة، أدخل في منازل الأميركيين، وأراهم ينظفون تلك المنازل، أراهم يمسحون الأرضية، ويغسلون الصحون. أراهم يشترون ملابس، ويغسلون ملابس، يشترون سيارات، ويغسلون سيارات. أراهم ينظّفون وينظّفون.

تأثير مشاهدتي التلفزيون كان غريباً. فإن رأيت، بالمصادفة، وفي الشارع، أميركياً، أو أميركيةً، حاولتُ أن أضعه أو أضعها في إعلان تجاري، وأشعرُ أنني قد أمسكتُ بالشخص في استراحة بين واجباته التلفزيونية. ولهذا، ظل الأميركيون لديّ، وإلى حدٍّ بعيد، أناساً غير حقيقيين، أناساً غائبين، مؤقتاً، عن التلفزيون.

أحياناً يظهر حبشيٌّ على الشاشة، لا ليتحدث عن أمور الأحباش، وإنما لينظّفَ تنظيفه القليل أيضاً. هذا الحبشي مختلف. إنه مختلفٌ عن الحبشي الذي رأيته في الشارع والذي أعرف أنه ممثل. أعرفُ أن واجباته التلفزيونية ليست سوى خداع، وإنه سرعان ما سيعود إلى الشارع.

في أحد الأيام بالسوبر ماركت، حين أخذت البنت الحبشية نقودي، تشممت وقالت : "أنت دائماً زكي الرائحة، يا صغيري".

كانت ودوداً، وصرتُ أخيراً قادراً على حل ذلك اللغز المتصل برائحتي. كان ذلك عشبة البلاد الفقيرة التي كنت أدخنها. إنها ذات مذاقٍ فلّاحي كنت أخجلُ منه قليلاً، في الحقيقة، لكن متسلّمة النقود

كانت مشجّعة. حصلَ أنني جئت معي بكمية عشبة من بومباي في إحدى حُزَمي، مع حوالي مائة موسى حلاقة، معتقداً أن العشبة والموسى شيئان هنديان خالصان. قدَّمتُ للبنت شيئاً منها هديةً. وبالمقابل علّمتني بضع كلمات انجليزية، وكان أول ما علّمتني "أنا سوداء وجميلة". ثم أشارت إلى الشرطي ذي المسدس في الخارج، وعلّمتني : "هو خنزير".

دروسي الإنجليزية بلغت مرحلةً أعلى بواسطة امرأة حبشية تشتغل عند أحد ساكني طابقنا بمبنى الشقق السكنية. هي أيضاً اجتذبتها الرائحة والغرابة. كانت هي بذاتها امرأة بدينة، عريضة الوجه، طافحة الخدّين، جريئة العينين، ذات شفتين مكتنزتين لكن غير متدليتين. أزعجتني بدانتُها، ورأيت الأفضل لي التركيز على وجهها. لقد أساءت فهمي. كانت أحياناً تغازلني بطريقة عنيفة. لم أحبب ذلك، لأنني لا أستطيع أن أدفعها عني كما أريد، ولأنني، بالرغم مني، مفتونٌ بمظهرها. إن رائحتها الممزوجة بالعطور التي ألفتْ استعمالها تُنسيني نفسي.

كانت تجيء، دائماً، إلى الشقة.كانت تزعجني وأنا أشاهد الأميركيين على التلفزيون. خفتُ من الرائحة التي تخلّفها. العَرق. العطر. عشبتي: الروائح تستقر كثيفة في الغرفة. وصلّيتُ للآلهة البرونزية التي نصبها مخدومي زينةً لغرفة المعيشة، ألاّ يفتضح أمري، كما أقول، وأنا أعرف أن هذا قد يبدو غريباً للناس هنا الذين سمحوا للأحباش بالإقامة معهم، أعداداً كبيرة، والذين لا بد انهم يقدِّرونهم بطرق معينة. لكننا في بلادنا، وبكل صراحة، لا نهتم بالأحباش. لقد دُوِّن في كتبنا، المقدسة، والتي ليست بتلك القداسة، أن من العيب

والخطأ لرجل من جبِلّتنا أن يعانق المرأة الحبشية. أن يلحق بالمرء العار في هذه الحياة، وأن يُبعث قطّاً أو قرداً أو حبشياً في الدار الأخرى!

لكنني كنت أسقط. أهي العطالة أم الوحدة؟ لقد وُجدتُ جذاباً. أردتُ أن أعرف السبب. أخذتُ أذهب إلى حمّام الشقة فقط لأتملّى وجهي في المرآة، لا لأتملّى ملامحي، وإنما لأعرف إن كان الحلّاق قصَّ شعري أكثر من اللازم، أو أن الدمّلة توشك أن تنفجر. وببطءٍ حققتُ اكتشافاً.

كان وجهي جميلاً. لم أفكر بنفسي هكذا، البتة. كنتُ حسبتُني خارج الإنتباه، ذا ملامح لا تنفع إلا للتعرُّف.

اكتشافي ملامحي الجميلة جاء بعواقبه. صار مظهري هاجسي، مع رغبةٍ في أن أرى نفسي. كان هذا مثل الداء. أشاهدُ التلفزيون وإذا بفكرة تداهمني: أأنت أنيقٌ مثل هذا الرجل؟ فيتعيّن عليّ أن أنهض وأذهب إلى الحمّام لأنظر في المرآة.

عدتُ بأفكاري إلى ذلك الزمان حين لم تكن هذه الأمور لتهمّني، وتخيّلت مدى رثاثتي حين صعدت إلى الطائرة، وفي مقهى الحفاة ذاك، وفي المطار، حين كانت ملابسي الخشنة الوسخة تناسب خادماً بلا شك. اختنقت بالعار. ورأيتُ أيضاً، كم كان الناس في واشنطن طيبين، يرونني في الأسمال ومع ذلك يهتمون بي إنساناً.

كنت فرحاً لأن لي مخبأ. كنت ظننتُني سجيناً. أما الآن فأنا فرحٌ لأن لي من واشنطن القليل: الشقة، خزانتي. التلفزيون. مخدومي. الذهاب ماشياً إلى السوبر ماركت. المرأة الحبشية.

وفي أحد الأيام وجدتُ أنني لم أعد أعرف إن كنت أريد العودة إلى بومباي أم لا. في الأعالي. في الشقة، لم أعد أعرف ما أريد أن أفعل.

صرتُ أكثر عناية بمظهري. ليس لديّ الكثير مما أستطيع فعله. اشتريت خيوطاً لحذائي الأسود القديم، وجوارب، وحزاماً. ثم حصلت على بعض المال. فهمتُ أن العشبة التي أدخنها ذات قيمة لدى الأحباش والحفاة، وقد تخلّصت مما لديّ بخسارة، كما عرفت الآن، عن طريق البنت الحبشية في السوبر ماركت. حصلت على أقل بقليل من مائتي دولار. وما أن تخلصتُ من عشبتي حتى خرجت واشتريت ملابس.

لا تزال لديّ مشترياتي ذلك الصباح. قبعة خضراء، بدلة خضراء. البدلة كانت واسعةً عليّ دوماً. الجهل، عدم الدراية، لكني أتذكر أيضاً الإحساس بالإستحياء. أراد البائع أن يتكلم. أن يقوم بعمله. أنا لم أُرد الإستماع. أخذت أول بدلة عرضها عليّ وذهبت إلى الغَريفة ولبستُها لم أكن استطيع التفكير بالمقاس واللياقة. عندما اعتبرتُ كل ذلك القماش، وكل تلك الخياطة، من أجل أن أزيِّن جسمي البسيط، جسمي الذي لا يحتاج سوى القليل، شعرتُ بأني أطلبُ دماري. أعدتُ ارتداء ملابسي، وخرجتُ من الغُريفة وقلت إنني سآخذ البدلة الخضراء. أخذ البائع يتكلم، قاطعتُه. طلبتُ قبعة. حين عدت إلى الشقة انتابني الوهن فتمددت حيناً في خزانتي.

لم أعلّق البدلة قطّ. حتى في المخزن، حتى وأنا أعدّ دولاراتي الثمينة، عرفت أنني غلطتُ أبقيت البدلة مطويّة في العلبة مع كل ورق التغليف. ارتديتها ثلاث مرات أو أربعاً، وتمشيت في الشقة وجلست على الكراسي ودخّنت سجائر ووضعت رجلاً على رِجلٍ، أجرِّبها. لكني لم استطع إقناع نفسي بارتدائها خارجاً. في ما بعد لبست البنطلون، لا السترة. لم أشتر بدلة أخرى، وسرعان ما بدأت ارتدي الثياب التي أرتديها اليوم، بنطلون مع نوع من السترة ذات السَحّاب.

في السابق لم يكن لديّ أسرار أُخفيها عن مخدومي، من الأبسط كثيراً ألا يحتفظ المرء بأسرار. لكن غريزةً ما أوحت لي الآن بأن من الأفضل ألا يعرف بأمر البدلة الخضراء ودولاراتي القليلة، كما أن هذه الغريزة ذاتها أوحت لي بأن عليّ الإحتفاظ لنفسي بمعرفتي اللغة الإنجليزية معرفةً متزايدة.

في السابق، كان مخدومي بالنسبة لي، حضوراً فقط. ولطالما قلت له إنني نُفايةٌ بجانبه. هذا كلامٌ في كلام، نوع من مجاملات لغتنا، إلا أن فيه شيئاً من حقيقة. أعني أنه الرجل الذي غامر في العالم من أجلي، وأنني عرفت العالم من خلاله، وأنني راضٍ بكوني جزءاً ضئيلاً من حضوره. كنت راضياً بأن أنام على رصيف بومباي مع أصدقائي، لأسمع حديث مخدومي مع ضيوفه في الطابق العلويّ. كنت أكثر من راضٍ، أواخر الليل، بتعرُّف أحد الضيوف عليّ بين النائمين وتحيته لي، قبل أن ينصرفوا.

الآن، وجدت دون أن أريد، أنني لم أعد أرى نفسي جزءاً من حضور مخدومي، وبدأت في الوقت ذاته أراه كما يراه شخصٌ غريبٌ، أو ربما كما يراه الناس الذين يجيئون إلى الشقة لتناول العشاء. رأيته رجلاً في مثل سني، في حوالي الخامسة والثلاثين. وقد دُهشت لأنني لم ألحظ ذلك من قبل. وجدته سميناً، بحاجة إلى تمارين، وأنه يمشي بخطوات قصيرة مضحكة، رجلاً ذا نظارات، وشَعرٍ متساقط، أسير عاداتٍ مثل مسح شاربيه بأسنانه وقضم باطن شفته العليا، رجلاً قلقاً في الغالب، مثقَلاً بعمله، موضع ملاحظات قاسية على مائدته نفسها من جانب زملائه في المكتب، وشعرتُ بأنه يبدو غير مرتاحٍ في واشنطن، ويتصرف بحذر مثل ما تعلمتُ أن أتصرف.

أتذكر أميركياً جاء للعشاء. نظر إلى قطع المنحوتات في الشقة، وقال إنه جاء برأسٍ كاملٍ من أحد معابدنا القديمة، بعد أن تولّى الدّليلُ قَطْع الرأس.

استطعت إدراك أن الغيظ تملّكَ مخدومي. قال: "لكن هذا مخالفٌ للقانون".

"لهذا السبب كان عليّ أن أعطي الدليل دولارين. ولو أعطيتُه قنينة ويسكي لَهَدَّ المعبد بأسره من أجلي".

اختفى أي تعبير من وجه مخدومي. ظل يؤدي واجب المضيف، لكنه كان شقياً طوال العشاء. لقد حزنت له.

في ما بعد، دقَّ على الخزانة. عرفت أنه يريد الحديث. كنت بملابسي التحتية، لكني لم أشعر بأني عارٍ، وقد ذهب الأميركي. وقفت بباب خزانتي. مخدومي يسير جيئة وذهاباً في المطبخ الصغير. كانت الشقة محزنة.

"أسمعتَ ما قاله ذلك الرجل، يا سانتوش؟".

تظاهرت بأني لم أفهم، وحين شرح الأمر حاولتُ مواساته. قلت: "يا صاحب، لكننا نعرف أن هؤلاء الناس هم فرنجةٌ وبرابرة".

"إنهم قومٌ خبثاء، يا سانتوش. فبسبب فقر بلادنا يعاملوننا كلنا معاملة واحدة. هم يعتقدون أن موظفاً حكومياً شأنه شأن دليلٍ فقير يشحذ بضع روبيات ليقيم أوَدَه".

وجدتُ أنه رأى الإهانة بطريقة شخصية، فاستأتُ منه. ظننتُه كان يفكر بالمعبد.

بعد أيام قليلة كانت لي مغامرتي. دخلت المرأة الحبشية متصرفةً بين تحفيّات مخدومي مثل ثور. لقد استفزّتني. كانت الرائحة شديدة، وكذلك مرأى إبطيها. سقطتُ. سحبتني على الأريكة، على الدثار الزعفراني الذي كان أفضل ما لدى مخدومي من النسيج الشعبي البنجابي. وجدتُ اللحظةَ، وأنا مكتوف اليدين، مشينةً. رأيتها مثل كالي، ربة الموت والدمار، سوداء كالفحم، حمراء اللسان، بيضاء البؤبؤين، ذات أذرعةٍ قويةٍ عدّةٍ.توقعتُ أن تكون متوحشةً شديدةً، لكنها أضافت إهانةً إلى الجرح بتصرفها تصرفاً لاعباً غنجاً، كما لو أن الفعل لم يكن حقيقياً بسبب أني ضئيلٌ غريبٌ. كانت تضحك طيلة الوقت. كنت أود أن أنسحب لكن الفعل تغلّبَ، وأتَمَّ نفسه بنفسه. بعدها تولّاني الرعب. أردت المغفرة، والطهر، أردتُها أن تذهب. لم يُخفني شيء أكثر من الطريقة التي لم تعد تتصرف بها في الشقة تصرُّفَ زائرةٍ، لقد تصرفتْ كمن تملك الشقة. نظرتُ إلى النحت والنسيج وفكرتُ بمخدومي المسكين، المعذَّب في مكتبه بمكانٍ ما.

استحممتُ، واستحممت ثانيةً. الرائحة لم تكن لتتبدَّد عني. وتخيلتُ أن زيت المرأة لا يزال على ذلك الجزء البائس من جسمي البائس. وطرأ لي أن أفركه بنصف ليمونةٍ. توبةٌ ووضوءٌ، لكني لم أتألم مثل ما توقعت، وأدَمْتُ التوبة بتقلبي عارياً على الأرضية، أرضية الحمام وغرفة المعيشة، وبعوائي. أخيراً انهمرت الدموع، حقيقةً، فارتحتُ.

الشقة باردة، ومكيف الهواء يطنّ دائماً. لكني كنت أرى أن الجو ساخن في الخارج، مثل أحد أيام صيفنا في التلال. وخطر لي أن أرتدي

ما كنت أرتديه في قريتي إبّان مناسبة دينية. في إحدى حُزَمي إزارٌ طويل من القطن، هدية من خادم الخياط، لم أستعمله من قبل البتة. لففتُه حول محزمي وبين ساقيَّ. أشعلت أعواد بخور، واقتعدتُ الأرضية متصالب الرجلين، وحاولت أن أتأمّل، وأهدأ. وسرعان ما شعرت بالجوع. فغمرتني السعادة. وقررت أن أصوم.

فجأةً دخل مخدومي. لم أهتم ّبأن رآني في هيأة الصلاة ولباسها. كان حدوث الأسوأ ممكناً. لكنني لم أكن أتوقع مجيئه إلا مساءً.

"سانتوش، ماذا حصل؟".

شعرتُ بعزّة النفس. قلت: "يا صاحب،هذا ما أفعله بين حين وآخر".

لكني لم أر في عينيه ما يريح. كان أكثر اهتياجاً من أن يلحظني بدقّة. نزع سترته الخفيفة، وألقى بها على الدثار الزعفراني، ومضى إلى الثلاجة، وشرب كأسين من عصير البرتقال، الواحد تلو الآخر. ثم أطلَّ على الخارج، ماسحاً شاربيه.

"آه، يا سانتوشي المسكين، ماذا نفعل هنا؟ لماذا جئنا إلى هذا المكان؟".

نظرتُ معه. لم أر شيئاً غير اعتياديّ. النافذة العريضة أرتني ألوان النهار الساخن: السماء شاحبة الزرقة، القباب البيض عديمة اللون تقريباً للمباني الشهيرة تعلو على الشجر ذي الخضرة الميتة، السطوح غير المرتّبة للمباني السكنية حيث يعرِّض الناس أجسادهم للشمس أيام السبوت والآحاد، صباحاً، وفي الأسفل واجهات البيوت الأمامية والخلفية على الشارع ذي الشجر حيث أذهب إلى السوبر ماركت.

أوقف مخدومي تكييف الهواء فغاب أي ضجيج من الغرفة. بعد لحظة بدأت أسمع الصفّارات بعيدةً وقريبةً. وعندما فتح مخدومي النافذة

اندفع هدير المدينة المنزعجة داخل الغرفة. أغلق النافذة، فخيَّم الصمت ثانيةً. على مبعدةٍ يسيرة من السوبرماركت رأيت دخاناً أسود ينحلّ، مرتفعاً، متحولاً بسرعة إلى عديم اللون. إنه ليس الدخان الذي تطلقه بعض المباني السكنية طوال اليوم. كان دخان حريقٍ حقيقيّ.

"الأحباش استُنفروا، ياسانتوش. إنهم يحرقون واشنطن".

لا يهمني الأمر. بل كانت الأنباء برداً وسلاماً، وأنا في جو التوبة والصلاة. بإحساسٍ من الرضا راقبت المدينة وسمعتها تحترق عصر ذلك اليوم، وراقبتها تحترق تلك الليلة. راقبتها تحترق مراراً وتكراراً على التلفزيون. وراقبتها تحترق في الصباح. لقد احترقت مثل مدينة شهيرة، ولم أُرد أن يتوقف الحريق. أردت النار تنتشر وتنتشر، وأردت كل شيء في المدينة، حتى المباني السكنية، حتى الشقة، حتى أنا نفسي، يُدمَّر ويفنى. أردت أن تكون النجاة مستحيلة. أردت حتى لفكرة النجاة أن تكون عبثاً. وكلما صدرت إشارة عن أن الحريق سيتوقف شعرت بالخيبة والإحباط.

لأربعة أيام، ظللنا، مخدومي وأنا، في الشقة، وراقبنا المدينة تحترق. وظل التلفزيون يعرض علينا ما نستطيع رؤيته، وكل ما نستطيع أن نسمعه حين نفتح النافذة. ثم انتهى كل شيء. الإطلالة من النافذة لم تتغير. المباني الشهيرة ظلت منتصبة، والأشجار. لكن للمرة الأولى منذ فهمتُ أنني كنت سجيناً، أردت أن أخرج من الشقة وأكون في الشوارع.

الدمار كان خلف السوبر ماركت. أنا لم أذهب، من قبلُ، بتاتاً، إلى تلك الناحية من المدينة وكان غريباً أن يمشي المرء في تلك الشوارع

العريضة لأول مرة، وأن يرى الأشجار والمنازل والمخازن والإعلانات، وكل شيء مثل مدينة حقيقية، وأن يرى، في ما بعد، أن كل لافتة في كل مخزن قد احترقت أو اسودت بالدخان، وأن المخازن ذاتها كانت سوداء ومقتحَمة، وأن ألسنة اللهب طالت نوافذ عليا وسفعت الطابوق الأحمر. أميالاً وأميالاً كان الأمر هكذا.

كانت ثمت جماعات من الأحباش، في البداية حين مررت بهم تظاهرت بأني مشغولٌ، أتابع أموري، لكنهم ابتسموا لي، ووجدتُني أبتسمُ لهم. كانت السعادة متبدية على وجوه الأحباش. كانوا كمن دُهشوا لأن بمقدورهم أن يفعلوا كل ذلك، ولأن بيدهم الكثير. كانوا في مثل العيد، وقد شاركتُهم ابتهاجهم.

فكرة الهروب كانت بسيطة، لكنها لم تخطر لي من قبل. وعندما تكيفتُ لسجني أردتُ فقط أن ابتعد عن واشنطن وأعود إلى بومباي. لكني تشوشتُ. نظرت في المرآة فرأيت نفسي، وعرفت أن ليس بإمكاني العودة إلى بومباي وإلى نوع العمل الذي كنت أتّخذه والحياة التي كنت أعيشُها ليس سهلاً عليّ أن أكون جزءاً من حضور سواي. إن سمر الليالي على الرصيف، وجولات الصباح تلك: أوقاتٌ سعيدة، لكنها كانت كالأوقات السعيدة للطفولة: لم أرِد لها أن تعود.

بعد الحريق، اعتدتُ التجوال طويلاً في المدينة. وفي أحد الأيام، عندما لم أكن أفكر في الهروب، عندما كنتُ أستمتُع بالمَشاهد وبحريتي الجديدة، وجدتُني في أحد تلك الشوارع الشجراء التي حُوِّلت فيها البيوت الخاصة إلى محالّ تجارية. رأيت أحد أبناء بلدي يثبت لافتةً على رواقه. عرفت من اللافتة أن المحل مطعم، وافترضتُ أن هذا الرجل

المكلّف هو المالك. بدا قلقاً، وخجلاً شيئاًما، وابتسم لي. أمرٌ غير مألوف، ذلك لأن الهنود الذين رأيتهم في شوارع واشنطن تظاهروا بأنهم لم يروني، وجعلوني أشعر بأنهم لا يريدون حضوري المنافِس، أو لم يريدوا أن أسألهم أسئلة صعبة.

أثنيت على لافتة الرجل القلِق وتمنيتُ له التوفيق في عمله. كان رجلاً ضئيل الحجم في حوالي الخمسين، وكان يرتدي سترةً مزدوجة قديمة الطراز، تحت عينيه سوادٌ غائرٌ، كمن فقد شيئاً من وزنه مؤخراً. واضحٌ أنه كان في بلادنا رجلاً ذا شأن، وليس من أولئك المتصلين بمهنة المطاعم. انجذبتُ إليه. دعاني إلى الدخول لأتفرّج على المكان، سألني عن اسمي، وذكر اسمَه. كان بريّا.

عبر الرواق بالضبط، كانت أبهى وأغنى غرفةٍ رأيتُها في حياتي. ورق الجدران كان كالمخمل، أردتُ أن أتحسسه بيديّ. المصابيح النحاس المتدلية من السقف كانت ذا أشكال جميلة، وضياؤها متعدد الألوان. بريا تفرَّج معي، واشتدَّ السواد تحت عينيه، كأن إعجابي يزيده قلقاً من بذخه. لم يكن المطعم فُتح للزبائن، وعلى رفٍّ بإحدى الزوايا رأيتُ مجموعة بريا للحظّ السعيد: صحن نحاس فيه كومة رزّ غير مطبوخ لجلب الشراء، دفتر صغير وقلم يوميات صغير للتوفيق في الحسابات، قنديل طينيّ لجلب الحظ عموماً.

"ماذا تظن يا سانتوش؟ هل سينجح الأمر؟"

"سوف ينجح، يا بريا".

"لكن عندي أعداء، كما تعرف، ياسانتوش. أصحاب المطاعم الهنود لن يمتدحوني. هذا المكان كله لي، ياسانتوش. دفعتُ نقداً.

لاقرض ولا شيء من ذلك. أنا لا أؤمن بالقرض. نقداً أولاشيء". فهمت أنه يعني محاولته الحصول على قرض وفشله في المحاولة، وأنه قلقٌ بصدد المال.

"لكن ماذا تفعل هنا، ياسانتوش؟ هل كنت في الحكومة أو في شيء آخر؟".

"تستطيع أن تقول هذا، يابريا".

"مثلي. يقولون هنا: إن لم تغلبْم صاحبْهم. أنا صاحبتُهم. لكنهم لا يزالون يغلبونني".

تأوَّهَ، ومدَّ ذراعيه على مقعد الحائط الأحمر. "آه، ياسانتوش، لماذا نفعلها؟ لمَ لا نتخلى ونذهب إلى ضفة النهر نتأمل؟" لوَّح مشيراً إلى الغرفة: "صغائر العالم، سانتوش، صغائر فقط".

لم أعرف الكلمة الإنجليزية التي استعملها، لكني فهمتُ معناها، وللحظةٍ أحسستُ أني في بومباي، نتبادل الحكايات والفلسفات، أنا وخادم الخياط والآخرون، في المساء.

"لكني نسيت، ياسانتوش، أتريد شاياً أو قهوةً أو شيئاً آخر؟".

هززتُ رأسي من جهة إلى أخرى، معلناً الترحيب، فنادى بلغةٍ غريبةٍ شديدة شخصاً ما خلف باب المطبخ.

"نعم، ياسانتوش. صغائر!" تأوَّه وضربَ المقعد الأحمر الجاسي.

خرج رجلٌ من المطبخ مع صينية. للوهلة الأولى بدا مثل أبناء بلدي، لكن في الثانية عرفت أنه أجنبيٌّ. قال بريا حين عاد الأجنبي إلى المطبخ: "أنت مُحقٌّ. إنه ليس من بهارات. هو مكسيكي. لكن، ماذا بمقدوري أن أفعل؟ أنت تأتي بأبناء بلدك، تدبِّر أوراقهم وكل شيء، البطاقة الخضراء

وكل شيء وماذا بعد؟ يهربون. يهربون. محتالون هنا. محتالون هناك. لا أستطيع أن أخبرك. اسمع، ياسانتوش. كنت في تجارة الملابس سابقاً. اشترِ بخمسين روبية هنا، بعْ بخمسين دولاراً هناك. المسألة سهلة. ثم...... القفطان. الجميع يريدون القفطان. قفطان -أفتان، أقول، سأدبِّر قفطانك. أشتري ألف قفطان، ياسانتوش. تأخير في الجانب الهندي، طبعاً. تصل القفاطين بعد عامٍ. آنذاك لا أحد يريد القفطان. نحن لسنا منظَّمين، ياسانتوش. ليس لدينا بحث كافٍ في المستهلِك. هذا مايقوله لي ذلك الرجل في السفارة. لكنْ، إن قمتُ ببحث في المستهلك، فمتى أقوم بشُغلي؟ المشكلة، كما تعرف، ياسانتوش، أن الدكان ليس في دمي. عندما كنت في تجارة الملابس، كنت أختبئ أحياناً، وقتَ مجيء زبون. وأحياناً كنت أتظاهرُ بأني مُشترٍ. بحث في الإستهلاك! أولئك الناس يجعلوننا نرقص، ياسانتوش. أنت وأنا، سوف نتخلى عن كل شيء، وسنذهب معاً، ونتمشى على ضفة بوتوماك ونتأمل".

أحببتُ حديثه. لم أسمع حديثاً عذباً وفلسفياً مثله، منذ أيام بومباي. قلت: "بريا، سأطبخ لك، إن أردتَ طباخاً".

"أشعر بأنني عرفتك منذ وقت طويل، ياسانتوش. أشعر بأنك أحد أفراد عائلتي. سأعطيك مكاناً للنوم، وقليلاً من الطعام لتأكل، وقليلاً من مصروف الجيب الذي أستطيعه".

قلتُ: "أرِني مكان النوم".

قادني خارج الغرفة البهيّة، وصعدنا درجاً مفروشاً بالسجّاد. كنت أتصورالسجاد والصبغ الجديد يتوقفان في مكان ما، لكن كل شيء كان

جميلاً وجديداً طوال الطريق. دخلنا غرفةً هي صورة مصغرة لشقة مخدومي.

"خزانات داخل الجدران، وكل شيء، ياسانتوش".

ذهبت إلى الخزانة، كانت لها بابٌ منطوية، تنفتح إلى الخارج. قلتُ: "بريا، إنها صغيرة جداً. هناك على الرف متّسعٌ لحاجاتي. لكني عاجزٌ عن رؤية كيف سيكون بإمكاني أن أبسط فراشي داخل المكان، إنها جدُّ صغيرة".

قهقه بعصبية: "سانتوش، أنت صاحب نكتة. أشعرُ منذ الآن بأنك أحد أفراد عائلتي".

ثم فهمتُ أن الغرفة كلّها لي. صُعقتُ.

بريا بدا مصعوقاً أيضاً. السواد تحت عينيه اشتدّ. وبدا ضئيلاً في سترته المزدوجة. "هكذا يجعلوننا نرقص، ياسانتوش. أنت تقول: سكَنُ الإدارة، وهم يقولون :سكَنُ الإدارة. هذا مايعنونه".

صمتْنا لثوانٍ. أنا خائف. هو كئيب. نتأمل في طرائق هذا العالم الجديد.

نادى أحدهم من أسفل الدرج: "بريا!".

انجلت كآبته، ابتسم مسبقاً، وغمز لي، ثم أجاب بلهجة البلد: "هاي، باب!".

تبعتُه إلى أسفل.

قال الأميركي: "بريا. جئت بالقوائم".

كان رجلاً طويلاً، ذا سترة جلد، وجينز، وجوارب بيض، وحذاءٍ ذي مداسٍ جلديّ. لقد بدا مثل من يوشك أن ينطلق في سباق للجري. كانت

القوائم كبيرة، على الغلاف رسمٌ لرجلٍ بدينٍ ذي شاربين وعمامة مريّشة، يشبه ذلك الرجل في إعلان الخطوط الجوية "تبدو ممتازة، ياباب".

"أنا أيضـاً أراها هكذا. لكن مـاذاك، ياباب؟ مـامـعنى الرفّ هناك؟".

تقدم باب مثل الجزء الأمامي لحصان، نحوالرفّ ذي الزر والصحن النحاس وقنديل الطين الصغير. آنذاك فقط رأيت أن الرفّ قد رُكّب بصورة رديئة .

بدا بريا مذنباً، وكان واضحاً أنه هو من ركّب الرفّ. كان واضحاً أيضاً أنه لا يريد أن يهدّه. قال باب: "حسناً، إنه رفُّك. أعتقد أن علينا الاحتفاظ بلمسة من الشرق. والآن، يابريا___

قال بريا مستعجل الكلمات كأنه يطلق مزحةً لتسلية طفل: "مال، مال، مال، أهذا هو؟ لكن، يا باب، كيف تستطيع أن تطلب مني مالاً؟ إنْ سمعك أحدٌ ظنَّ هذا المطعم لي. لكن هذا المطعم ليس لي، يا باب. هذا المطعم لك".

إنها إحدى مجاملاتنا، لكنها حيَّرتْ باب، فسمح لنفسه بأن ينجرَّ إلى شؤون أخرى. رأيت أن بريا، بالرغم من حديثه عن العزوف وإخفاق الأعمال، قادرٌ على التعامل مع واشنطن.

أعجبتُ بقوّته قدر إعجابي بغنى حديثه. لا أدري إلى أي حدٍّ أصدِّقُ حكاياته، لكنني أحببت أن أفسِّرَ كلماته وأحزر معناه. أحببتُ سر الرجل. هذا السر مصدره صلابته. عرفتُ موقعي منه. بعد الشقة والبدلة الخضراء والمرأة الحبشية والمدينة المحترقة أربعة أيام، صار كوني مع بريا يعني الأمان.

لا يمكنني القول أنني دخلت. لقد بقيتُ ببساطة. لم أشأ العودة إلى الشقة حتى لآخذ حاجياتي. كنت أخشى حدوث أمرٍ يُبقيني سجيناً هناك. قد يجيء مخدومي ويطالبني بالآلاف الخمسة من الروبيات. والمرأة الحبشية قد تدَّعيني فيُحكم عليّ بالعيش مع الأحباش. على أي حال، أنا لم أترك في الشقة أشياء ثمينة. بل أنا سعيدٌ حتى بنسيان البدلة الخضراء. لكن .

دفع لي بريا أربعين دولاراً في الأسبوع، واعتبرت المبلغ كبيراً بعد أن كنت أتقاضى ثلاثة دولارات وخمسة وسبعين سنتاً. ما أتقاضاه الآن أكثر من كافٍ. وأنا لا أحبُّ حقاً الإنفاق. أعرف أن مخدومي والمرأة الحبشية سيسألان عني، كلٌ بطريقته الخاصة، فقرَّرت ألا أخرج إلى الشوارع فترةً. لم يكن الأمر صعباً، إذ كانت حياتي في واشنطن هكذا. كما أن أيامي في المطعم مليئة، وللمرة الأولى في حياتي صارت لي متعتي البسيطة.

كان المطعم ناجحاً منذ البداية، وبريا دقيقاً. كان دائماً يندفع داخل المطعم وبيده إحدى تلك القوائم الكبيرة، قائلاً باللغة الإنجليزية: "عمل مفتخر ياسانتوش، مفتخر".

لم أهتم. أحبُّ الشعور بضرورة أن أتقن ما أعمل، لقد أحسستُ بأنني أكسبُ حريتي. وبالرغم من اختبائي، بالرغم من عملي يومياً حتى منتصف الليل، شعرتُ أكثر من أي وقتٍ مضى بأني مسؤولٌ عن حالي، عددٌ من نادلينا كانوا مكسيكيين، لكنّ هيأتهم مقبولة حين نعقد على رؤوسهم العمائم. إنهم يغدون ويروحون مثل العاملين الهنود. لم أستطع

تقبُّلَ هؤلاء الناس. كانوا خائفين، خدّاعين، يغار أحدهم من الآخر. كانوا دائماً إمّا يوشكون على نيل البطاقة الخضراء أو يتعرضون للغش في البطاقة الخضراء أو يكونون نالوها للتو. في البداية لم أعرف عمَّ يتحدثون، وعندما فهمتُ ضقتُ بهم أكثر.

فهمتُ أن وضعي في أميركا صارغير قانوني بعد فراري من مخدومي. وفي أي لحظة يمكن أن يوشى بي، ويُقبض عليّ، وأُسجن، وأرَحَّلَ وقد لحق بي العار. الأمر معقد. لا بطاقة خضراء لديّ، ولا أعرف كيف أبدأ الحصول على واحدة. وليس من أحدٍ أتحدَّث إليه.

ثقلتْ أسراري عليّ. كنت بلا سرٍ، الآن لديّ أسرارٌ عدّة. لم أستطع إخبار بريا بأني لا أملك بطاقة خضراء. لم أستطع إخباره بأني خنت ثقة مخدومي ولطّختُ شرفي مع إمرأة حبشية، وعشتُ خائفاً من العواقب. لم أستطع إخباره بأني أخاف مغادرة المطعم، وبأني أتحاشى هذه الأيام رؤية هنديّ، كما كان الهنود يتحاشون رؤيتي. كان سخفاً أن أعترف. تظاهرتُ مع بريا منذ البداية بأني قويّ، وأريد أن يستمر الأمر هكذا. وبدلاً من ذلك، حين نتحدث الآن، ويغدو هو متفلسفاً، أُحاول أن أجد أسباباً أكبر للحزن. التصقَ ذهني بهذه الأسباب، مما أدّى إلى أن يمسي حزني داءً من أدواء النفس.

الأمر أسوأ من الشقة، لأن المسؤولية تقع الآن عليّ، عليّ وحدي. لقد قررت أن أكون حراً، وأن أعمل لنفسي. لقد آلمني ابتهاجي أيام الحريق، وشعرتُ بأني غُششتُ حين تذكرت أنني ظننتُني أملكُ نفسي في الأيام الأولى لفراري.

مضى العام، وجاء الثلج وذاب. وزادت خشيتي من الخروج إلى الشوارع. كان الداء أكبر من كل الأسباب. رأيت المستقبل مثل حفرةٍ كنت أسقط فيها. أستيقظُ في الليل أحياناً ملتهب الجسم فأحسّ بالعَرَق الساخن يغمرني.

اعتمدتُ على بريا. فهو أملي الوحيد، وصلتي الوحيدة بالواقع. إنه يخرج، ويعود بحكايات إنه يخرج كي يأكل في المطاعم المنافِسة خصوصاً.

قال: "يا سانتوش، لم أؤمن البتة بأن أفتح مطعمٍ هو سبيل إلى الله. لكنها الحقيقة. أنا آكل مثل عالمٍ. كل يوم آكل مثل عالم. أشعرُ أنني عازفٌ عن الدنيا، فعلاً".

هذا كان بريا. وهكذا أسرني حديثه ومنحني أسباباً أكبر لإضعافي تدريجياً. صرتُ مبتعداً أكثر فأكثر عن أهل المطبخ. وعندما يتحدثون عن البطاقة الخضراء والأعمال التي سيتولونها أشعر بأني أكاد أسألهم: لماذا؟ لماذا؟

وكل يوم تحكي المرآة حكايتها. فبدون الترّيُض، وبالقلب المثقل والذهن المرهق، بدأتُ أفقد جمال وجهي. صار وجهي منتفخاً مترهلاً متبقعاً. صار قبيحاً. كدتُ أبكي وأنا أخسرُ جمالي بعد أن اكتشفتُه. كان ذلك عقاباً على مباهاتي، العقاب الذي خشيتُه حين اشتريت البدلة الخضراء.

قال بريا: "سانتوش، يجب أن تتريّض. انت لا تبدو معافى. عيناك تمسيان مثل عينيّ. لمن تحنُّ؟ لبومباي أم لعائلتك في التلال؟

لكني الآن، حتى ذهنيّاً، غريبٌ عن تلك الأماكن.

قال لي بريا صباح يوم أحد: "سانتوش، سآخذك اليوم لمشاهدة فيلم هندي. كل هنود واشنطن سيكونون هناك، الخدم والجميع".

خفتُ جداً. لم أرد الذهاب، ولم أستطع أن أخبره السبب. أصرَّ. بدأت دقّات قلبي تتسارع حين ركبت السيارة. وسرعان ما اختفت البيوت ذات مصابيح الغاز في الأبواب، ولم يبق سوى الشوارع العريضة المتفحمة للأحباش، والآن مع ورق الشجر الغضّ، أكوام نفايات، قطع أرض مسيجة، واجهات مخازن مغلقة بالألواح، ولافتات مسفوعة تعلن عما ليس موجوداً. السيارات تتسابق على الطرق العريضة، لا حياة إلا على الطرق. كدتُ أتقيأ خوفاً.

قلت: "عُد بي، يا صاحب".

استعملت التعبير الغلط. كنت أستعمل الكلمة مائة مرة في اليوم. لكني آنذاك كنت اعتبرني جزءاً صغيراً من وجود مخدومي، فلم تكن الكلمة نابية، كانت أقرب إلى الإسم، أقرب إلى صوتٍ مطَمْئنٍ، بعضاً من كرامة مخدومي، وبالتالي بعضاً مني. لكن كرامة بريا لن تكون مني، لم تكن علاقتنا هكذا. إني أدعو بريا دائماً بريا، كانت تلك رغبته، الطريقة الأميركية، رجلاً لرجل. مع بريا كانت الكلمة نابية. وقد استجاب للكلمة. فعل كما أردتُ. أعادني بالسيارة إلى المطعم. لم أدعُه باسمه ثانيةً.

كنت جميلاً، وقد فقدتُ جمالي. كنت حراً، وقد فقدت حريتي.

نادلٌ مكسيكي دخل إلى المطبخ في مساءٍ متأخر وقال: "في الخارج رجلٌ يريد أن يرى الطباخ". لم يطلب أحدٌ ذلك من قبل، وقد اهتاج بريا

فـجـأةً. "أهو أمـيـركيّ؟ أحـد الأعـداء أرسله إلى هنا. نظافـة. نظافـة. صحة.صحة. بمقدورهم أن يفتشوا مطبخي متى شاؤوا".

قال المكسيكي: "إنه هندي".

قلقتُ. ظننتُه مخدومي. فهي طريقته الهادئة. بريا ظنّه خصماً. ومع أن بريا يأكل بانتظام في مطاعم خصومه فـهـو لا يرضى بدخول خصومه المطعم. ذهبنا، معاً، إلى البـاب، ودقـقنا النظر من وراء الزجاج، زجاج النافذة، في قاعة الأكل ذات الأضواء الخافتة.

"أتعرف ذلك الشخص، يا سانتوش؟"

"نعم. صاحب".

لم يكن مخدومي. كان أحد أصدقائه في بومباي، موظفاً كبيراً في الحكومة، طالما خدمتُه في مسكن مخدومي هناك. كان مرتاحاً ويبدو كمن وصل إلى واشنطن للتوّ. شعره حليقٌ قصيراً على طريقة بومباي، وبدلته داكنة من خياطة بومباي. قميصه أزرق. لكن كل أبيض يبدو أزرق تحت أضواء القاعة الشاحبة متعددة الألوان. بدا مرتاحاً لما أكل. وكان كوعاه كلاهما على مفرش المائدة المبقع بالكاري، وكان ينظف أسنانه، نصف مغمض العينين، وقد أخفى فمه براحة يده اليسرى.

قال بريا: "لم أحببه. موظف حكومي كبير. اذهب إليه أنت، ياسانتوش".

خرج بريا إلى قاعة الطعام وسمعته يقول بالإنجليزية إني قادم.

أسرعت إلى غرفتي، وضعت بعض الزيت على شعري، ومشطته، ولبست أفضل بنطلون وقميص لديّ، وانتعلت حذائي اللامع. هكذا، مثل رجل من المدينة، لا مثل طباخ، وذهبت إلى قاعة الطعام.

كان ذلك الرجل من بومباي مندهشاً مثل بريا. تبادلنا المجاملات القديمة، وانتظرتُ. لكن لحسن الحظ لم يكن ثمة كثير مما يقال. لم يوجِّه إلى أسئلة عسيرة. وكنت ممتناً لتهذيب رجل بومباي. تجنبت الحديث قدر المستطاع. ابتسمتُ. رجل بومباي ابتسم أيضاً. بريا ابتسم لنا، نحن الاثنين، غير مرتاح. هكذا ظللنا، فترةً، نبتسم، في القاعة خافتة الأضواء. رجل بومباي قال لبريا: "يا أخي. لديّ فقط بضع كلمات أقولها لصديقي القديم سانتوش".

لم يحبب بريا ذلك، لكنه تركنا.

انتظرتُ تلك الكلمات. لكنها لم تكن الكلمات التي خشيتُها. رجل بومباي لم يتحدث عن مخدومي السابق. ظل يبادلني المجاملات. نعم. إنه بخير، وأنا بخير، وكل من نعرفهم بخير. وأن أموري ماشية، وأموره هو ماشية. هذا كل ما كان.

ثم أعطاني رجل بومباي، سرّاً، دولاراً.

دولار. عشر روبيات. مكافأة هائلة في بومباي. لكنها حين أتت منه، أكثر بكثير من مكافأة. إنها دليل تهذيب. وبعضٌ من عذوبة الأيام السوالف. في السابق كانت تعني لي الكثير. أما الآن فهي أقل من القليل. حزنتُ وتضايقتُ. وكنت أتوقع العداء!

بريا كان ينتظر خلف باب المطبخ. وجهه الصغير متوترٌ متجهمٌ، وعرفت أنه رأى الفلوس تقدَّم. قرأ وجهي سريعاً، وبدون أن يقول شيئاً خرج إلى قاعة الطعام.

سمعته يقول لرجل بومباي باللغة الإنجليزية: "سانتوش شخص طيب. إن له غرفته ذات الحمّام وكل شيء. وإنني سأعطيه مائة دولار منذ

الأسبوع القادم. ألف روبية أسبوعياً. إنها مؤسسة من الدرجة الأولى".

ألف روبية أسبوعياً! ترنّحتُ. إنها أكثر بكثير مما يتقاضاه أي موظف حكومي. وأنا متأكد من أن رجل بومباي ترنّح كذلك، وربما أسفَ لإيماءته الطيبة، ولذلك الدولار الثمين من العملة الأجنبية.

قال بريا عندما أغلق المطعم تلك الليلة: "سانتوش! ذلك الرجل كان عدواً. عرفته لحظة رؤيته. وقد فعلتُ أمراً سيئاً جداً لأنه عدوّ، ياسانتوش".

"صاحب!".

"كذبتُ يا سانتوش. لأحميك. أخبرتُه يا سانتوش بأنني سأعطيك خمسة وسبعين دولاراً اعتباراً من عيد الميلاد".

"صاحب!".

"والآن عليّ أن أجعل هذه الكذبةَ حقيقيةً. لكنك تعرف ياسانتوش أنني غير قادر على دفع ذلك المال. لاأريد أن أرهقك بالكلام عن أشياء كثيرة. سانتوش، سأدفع لك ستين".

قلت: "لن أبقى لأقلّ من مائة وخمسة وعشرين".

التمعت عينا بريا، واسودّ ماتحت عينيه. ضحك وزمّ شفتيه. في آخر الأسبوع حصلتُ على مائة دولار. ولم يخلّف ذلك في بريا الطيب أي أثر سيّء.

لقد حققتُ نصراً. لكنني لم أدرك إلا بعد التحقيق، مدى حاجتي إلى نصر كهذا، وإلى أي مدى بعد هذا النصر واستعادة حريتي، بدأتُ أتقبّل الموت لانهايةً بل غايةً. لقد انبعثتُ. بل أن حواسي انبعثت. لكنْ، ممّ تغتذي حواسي في هذه المدينة؟. لا مماشيَ تُتّبع، لا أحاديث مسترخية

مع أصدقاء متفهمين. بمقدوري أن أشتري ملابس جديدة. وما بعد؟ هل سأكتفي بالنظر إلى نفسي في المرآة؟ هل أخرج أتمشى، داعياً المارة إلي النظر إليّ ومعاينة ملابسي؟ لا، الملبس وارتداؤه يعيدانني، حسبُ، إلى نفسي.

في دكان فطائر، بعد بضع أبواب، امرأة سويسرية أو ألمانيّة. وفي المطبخ كانت امرأة فليبينية. لم تكن أي واحدة منهما جذابة إن أردتَ الحقّ. كان بإمكان السويسرية أو الألمانية أن تقصم ظهري بضربة، والفلبينية، مع أنها شابة، إلا أنها كانت تماماً مثل إحدى نسائنا الجبليات. مع هذا، شعرت بأن الحواس تطالبني، وفكّرتُ بمغازلة هاتين المرأتين. تعلمتُ أن المرأة ليست بدناً وثياباً ومعاملةً، بل مخلوقاً ضخماً يزن مائةً وعدة أرطال ينبغي التعامل معه في ما بعد.

هكذا مضت لحظة النصر، بلا احتفال. وفكّرتُ، كم هو غريبٌ أن يستمر الأسى، ويجعل المرء يتطلع إلى الموت، لكن مزاج النصر يملأ لحظةً ثم ينتهي. حين انتهت لحظة نصري، اكتشفتُ تحتها، بانتظاري، كل علّتي القديمة ومخاوفي: خوفي من اللاشرعية، مخدومي السابق، مباهاتي، المرأة الحبشية. عرفتُ آنذاك أن النصر الذي حققتُه لم يكن أمراً جهدتُ من أجله، لكنه الحظّ، وأن ذلك الحظّ كان فقط خديعة القدَر، إذ قدَّمَ وهماً عن القوة.

لكن الوهم طال، وغدوتُ قلقاً. قررتُ أن أفعل، وأن أتحدى القدر. قرَّرت ألا أظلّ في غرفتي مختبئاً. وشرعتُ أخرج متمشياً في الأصائل. اكتسبت شجاعة. كل مساءٍ أمشي أبعد قليلاً. وصار مطمحي أن أمشي إلى تلك المستديرة الخضراء ذات النافورة، حيث التقيت، في يومي الأول

بواشنطن، أولئك الناس ذوي الملابس الهندوسية، مثل خدمٍ مهجورين طويلاً، يغنون الرطانة السنسكريتية، ويرقصون رقصة الهنود الحمر الغريبة تلك. وفي أحد الأيام وصلتُ.

في أحد الأيام، قطعتُ الطريق إلى المستديرة وجلست على مصطبة. كان الأحباش هناك، وراقصات الساري، والأردية الزعفران. كان الوقت عصراً. السخونة شديدة. والكل خامل. تذكرتُ كم كانت تلك المستديرة ساحرة وغامضة أول مارأيتها. الآن بدت لي عاديةً جداً ومتعَبة: الطرق، السيارات، الدكاكين، الأشجار، رجال الشرطة المنتبهون : شيءٌ من النفاية واللاجدوى اللذان هما عالمنا. لم يعد ثمة سرٌّ. أحسست بأني أعرف من أين جاء الجميع، وإلى أين تمضي تلك السيارات. لكني أحسست أيضاً بأن الجميع هناك لهم إحساسي ذاته، وكان في هذا بعض المواساة. شرعت اذهب إلى المستديرة كل يوم بعد زحمة الغداء، لأجلس حتى أوان العودة إلى مطعم بريا، للعشاء.

في وقتٍ متأخرٍ من العصر، بين الراقصات والموسيقيين، والأحباش والحفاة، والمغنين ورجال الشرطة، رأيتُها. المرأة الحبشية. وثانية دُهشتُ لحجمها، لم تكن ذاكرتي تبالغ. قررت البقاء حيث كنت. رأتني وابتسمتْ. ثم نظرتْ إليّ نظرة شزراء كأنها تستعيد الغضب وثانيةً رأيتها مثل كالي، متعددة الأذرع، إلهة الموت والدمار. نظرت في وجهي نظرة قاسية ودققت في ملابسي. فكرتُ: ألهذا اشتريت هذه الثياب؟ نهضتْ. كانت بالغة الضخامة، وقد زادتها سراويلها الضيقة بشاعةً. مضت نحوي. نهضتُ وركضتُ. ركضتُ عبر الشارع، وأسرعت عبر طرق ملتوية إلى المطعم.

بريا كان يرتب حساباته. كان دائماً يبدو أكبر من سنه حين يرتب حساباته، لا قلقاً، بل أكثر من سنه فقط، مثل امرئ لن تفاجئه الحياة بمفاجآتها. حسدتُه.

"سانتوش. صديقٌ جاءك برزمة".

كانت الرزمة كبيرة مغلفة بورق أسمر. سلّمني الرزمة. وأُعجبتُ بهدوئه، وهو مع القوائم والأوراق، والقلم الذي يدون به أرقامه الدقيقة، والدفتر الذي اعتاد أن يكتب فيه كل يوم حتى يهترئ، فيبدأ بآخر.

أخذت الرزمة إلى غرفتي وفتحتها. فيها علبة من الورق المقوّى، وداخل تلك العلبة، وأوراق اللفّ لا تزال فيها، كانت البدلة الخضراء.

أحسست بمعدتي تتغوّر. امتنع عليّ التفكير. سُعدتُ لأن عليّ النزول مباشرةً إلى المطبخ، لأكون منشغلاً حتى منتصف الليل. لكن كان عليّ أن أصعد إلى غرفتي ثانيةً، لأكون وحدي. لم أنجُ. لم أكن حراً البتة. لقد هُجرتُ. كنت مثل لا شيء. لقد جعلتُ من نفسي لا شيء. وليس بمقدوري العودة.

في الصباح، قال لي بريا: "أنت لاتبدو معافى، يا سانتوش".

نبّهني قلقه أكثر. كان الوحيد الذي أستطيع التحدث معه، ولم أعرف ماذا بمقدوري أن أقول. أحسست بدموعي تسيل. تلك اللحظة تمنيت لو استحال العالم كله دمعاً. قلت:

"صاحب. لا أستطيع البقاء معك، أكثر".

لم تكن سوى كلمات، جزءاً من مزاجي، جزءاً من رغبتي في البكاء والراحة. لكن بريا لم يستقر. بل لم يبد مندهشاً. "إلى أين ستذهب، ياسانتوش؟".

كيف لي أن أجيب عن سؤاله؟

"هل سيختلف الأمر حيث تذهب؟".

لقد حرَّر نفسه مني. لم يعد بإمكاني التفكير بالدموع. قلت: "صاحب. عندي أعداء".

ضحك. "أنت هازلٌ ياسانتوش. كيف يكون لامرئ مثلك أعداء؟ لن يستفيد أحدٌ من ذلك. أنا لي أعداء. جزءٌ من سعادتك وجزءٌ من عدل هذا العالم أنك لا تستطيع أن يكون لك أعداء. لهذا أنت قادرٌ على الهرب، الهرب". ابتسم وأدّى إشارة الهرب براحة يده المنبسطة.

هكذا، أخيراً، أخبرته قصتي. أخبرته عن مخدومي السابق وعن فراري والبدلة الخضراء. جعلني أحس أنني لم أخبره بأمر يجهله. أخبرته عن المرأة الحبشية. كنت آمل في أن يوبخني. التوبيخ يعني أنه مهتمٌ بشرفي، أن بمستطاعي الإعتماد عليه، أن الإنقاذ ممكن. لكنه قال: "سانتوش. ليست لديك مشكلة. تزوج الحبشية. هذا سوف يجعلك بصورة أوتوماتيكية مواطناً. بعدها ستكون حراً".

لم يكن ذلك ما توقعتُه. كان يطلب مني أن أكون وحيداً إلى الأبد. قلت: "صاحب. لديّ زوجة وأطفال في التلال بالبلد".

"لكن هذا بلدك، ياسانتوش. زوجة وأطفال في التلال، أمرٌ حسنٌ جداً، وهو هناك دوماً، لكن ذلك انتهى. عليك أن تفعل ما هو خيرٌ لك هنا. أنت وحيد هنا. حبشية، حبشية. لا أحد يهتم بذلك هُنا، إن اخترتَ الأمر. هذه ليست بومباي. لا أحد ينظر إليك حين تسير في الشارع. لا أحد معنيٌّ بما تفعل".

كان على حقّ. كنت إنساناً حراً، وبمقدوري أن أفعل ما شئت.

أستطيعُ، إن كان ذلك ممكناً، أن أستدير، وأذهب إلى الشقة، وأطلب من مخدومي السابق، الصفح. أستطيع، إن كان ذلك ممكناً، أن أعود إلى ما كنته يوماً، فأذهب إلى الشرطة وأقول: "أنا مهاجرٌ غير شرعيٍّ هنا. أرجوكم إعادتي إلى بومباي". أن أهرب، أن أشنق نفسي، أن استسلم، أعترف، أختبئ. لا يهم ما أفعله لأني وحيد. وأنا لم أعرف ما أردتُ فعله. شأني الآن، شأن ذلك الوقت حين شعرت بحواسي تنبعث فأردت أن أخرج وأستمتع، فلم أجد ما استمتعُ به.

أن تكون خاوياً ليس أن تكون حزيناً. عليك العزوف. بريا لم يقل لي المزيد. كان مشغولاً دائماً في الصباحات. تركته وصعدت إلى غرفتي. إنها لا تزال غرفة عارية، مثل واحدة يمكن أن تكون لشخص آخر في نصف ساعة. لم أعتبرها يوماً لي. كنت خائفاً من جدرانها متقنة الصبغ، وكنت أحرص على بقاء الجدران نظيفة. من أجل لحظة كهذه فقط.

حاولت أن أفكر بتلك اللحظة المتميزة في حياتي، الفعل المتميز الذي جاء بي إلى تلك الغرفة. أكانت لحظة المرأة الحبشية، أم تلك التي جاء فيها الأميركي للعشاء وأهان مخدومي؟ أكانت لحظة فراري، رؤيتي بريا في الرواق، أم تراها حين نظرت في المرآة واشتريت البدلة الخضراء؟ أم تراها قبل ذلك بكثير، في تلك الحياة الأخرى، في بومباي، في التلال؟ لم أستطع أن أجد لحظة واحدة. كل لحظة بدت هامّةً. سلسلة لا تنتهي من الأحداث جاءت بي إلى تلك الغرفة. أمرٌ مخيف. مرهِق. ليس وقت قرارات جديدة. إنه وقت التوقف. تمددت على الفراش، أرقب السقف، أرقب السماء.

انفتح الباب مدفوعاً. كان بريا.

"سانتوش! كم بقيتَ هنا ؟ لقد نسيتُ أمرك".

أجال بصره في الغرفة. دخل الحمّام، وخرج ثانيةً.

"أأنت بخير، يا سانتوش؟".

جلس على حافة السرير، وكلما طالت جلسته أدركتُ كم أنا مسرورٌ برؤيته. الأمر كالتالي:

حين حاولت أن أفكر به مندفعاً في الغرفة، لم أستطع أن أعيِّن وقتاً. كما لو أن الأمر حدث في ذهني فقط. جلس معي. عاد الوقت حقيقياً. شعرت بحب عظيم له. سرعان ما صار بمقدوري الضحك لاهتياجه. في ما بعد، حقاً، ضحكنا سويةً.

قلت: "يا صاحب. لتعذرْني هذا الصباح. أردت أن أتمشى. سأعود وقت الشاي". ثبَّت نظرته عليّ، وعرف كلانا أنني أقول الحقّ.

"نعم، نعم، سانتوش.اذهب وتمشَّ طويلاً. جَوِّع نفسك بالمشي. ستتحسن كثيراً".

كنت وأنا أتمشى في الشوارع المعروفة لديّ الآن، أفكر كم هو لطيفٌ لو أن الناس ذوي الملابس الهندية في المستديرة كانوا حقيقيين. إذاً لانضممتُ إليهم. كنا سنمشي على الدروب، وفي الظهيرة نتوقف تحت ظلال الدوح، وفي الأصيل ستحوِّل الشمسُ الغارية الغيوم المغبّرة إلى ذهب، وكل مساءٍ سترحب بنا القرى، ماء، وطعام، ونارٌ في الليل. لكن هذا حلمٌ من حياة أخرى. لقد راقبت الناس في المستديرة بما يكفي لمعرفة أنهم كانوا من مدينتهم، وأن حياة التلفزيون تنتظرهم، أن عزوفهم ليس كعزوفي. لا حياة تلفزيون تنتظرني. لايهمّ. أنا في هذه المدينة وحيد، ولايهم ماذا فعلت.

ساحراً كان مبنى الشقق بالنسبة لي، مثل المستديرة ذات النافورة. الآن أرى المبنى عادياً، ليس عالياً جداً، مكسواً بقرميد أبيض صغير. باب زجاجي، أربع درجات قرميد إلى أسفل، المنضدة إلى اليمين، رسائل ومفاتيح في الكوى الصغيرة، سجادة إلى اليسار، أرائك، طاولة خفيضة ذات أزهار ورقية في مزهرية، الباب الأزرق للمصعد السريع الصامت. رأيت بساطة تلك الأشياء كلها. عرفت الطابق الذي أريد. في المر، مع السقف المزين بالنجوم المضاءة، تقليد السماء، الألوان كانت زرقاء، رمادية وذهبية. عرفتُ الباب الذي أريد. دققتُ الباب.

المرأة الحبشية فتحت. رأيت الشقة التي تشتغل فيها. لم أكن رأيتها من قبل، البتة، وكنت أتوقع مكاناً مثل شقة مخدومي السابق التي كانت في الطابق ذاته. بدلاً من ذلك، وللمرة الأولى، رأيت مكاناً مرتّباً لحياة التلفزيون.

ظننتُها ستغضب. بدت مندهشةً فقط. فكنت لها ممتناً.

قلت لها بالإنجليزية: "هل تتزوجينني؟".

وهذا ما حصل.

قال بريا وهو يقدم لي الشاي بعد عودتي إلى المطعم: "هذا خيرٌ لك يا سانتوش. ستكون إنساناً حراً. مواطناً. سيكون العالم كله أمامك".

سُررتُ لسروره.

هكذا صرت الآن مواطناً، حضوري قانونيّ، وأعيش في واشنطن. أنا لا أزال مع بريا. نحن لا نتحدث مع بعضنا مثل ماكنا. المطعم عالمٌ، وحدائق واشنطن وشوارعها الخضراء عالمٌ آخر. وكل مساء يأخذني بعض هذه الشوارع إلى ثالث.

بيوت طابوق مسفوعة، أسيجة مهشّمة، حدائق مهملة، وفي أرض ممهدة بين جدران الطابوق العالية لمنزلين، ملعبٌ فنيٌّ للأطفال لا يرتاده، أبداً، أطفال الأحباش، ثم البيت المظلم الذي أسكنه الآن.

روائح البيت غريبة، كل شيء فيه غريب. لكنّ قوّتي في هذا البيت هي أني غريب.

لقد أغلقت ذهني وقلبي عن اللغة الإنجليزية، عن الصحف والإذاعة والتلفزيون، عن صور العدّائين والملاكمين والموسيقيين الأحباش المعلقة على الجدران.

لا أريد أن أفهم أوأتعلم المزيد.

أنا إنسانٌ بسيطٌ قرَّر أن يفعل ويرى لنفسه، وكأن لي عدة حيوات. أنا لا أريد أن أضيف إلى هذه. أوقات العصر، أحياناً، أمشي إلى المستديرة ذات النافورة. أشاهد الراقصات لكنهن معزولات عني كأنهن خلف زجاج. مرةً، حين سرتْ شائعاتٌ عن حرائق جديدة، كتب أحدهم بالطلاء الأبيض على الرصيف خارج بيتي: أخٌ في الروح.

أنا أفهم الكلمات، لكني أخٌ لِمَ، ولمن؟ كنت يوماً ، جزءاً من الدُّفق، لا أعتبرُ نفسي حضوراً. ثم نظرت في المرآة وقررت أن أكون حراً. كُل ما جاءتني به حريتي هو معرفة أن لي وجهاً وأن لي جسداً، وأنَّ عليّ أن أغذو هذا الجسد وأكسو هذا الجسد لعدد من السنين معيّن. ثم ينتهي كل شيء.

قلْ لي مَن أقتُل

TELL ME WHO TO KILL

هذا الصباح يشبه أخي تماماً. لقد اختار صباحاً رديئاً ليتزوج. الأجزاء الريفية الصغيرة بين البلدات، رطبةً باردةً، اكتست بالبياض لا بالخضرة، فالضباب يهبط مثل المطر، والحقول نقيعةٌ، وأحياناً ترى بقرةً واقفةً هكذا. الجداول الصغيرة ذات لون حليبي قذر، وبعضها مليء بالعلب الفارغة والقمامة. الماء في كل مكان، مثل البلد بعد زخّة ثقيلة في موسم الأمطار، لكنّ السماء هنا لا تتبدى في متجمّعات الماء، كما أن الشمس لاتظهر لتسخّن كل شيء وتبخّره ليجف سريعاً.

القطار ساخنٌ في الداخل، والنوافذ تسيل ماءً، والرائحة تصّاعَدُ من الناس وملابسهم. بدلتي العتيقة لها رائحة أيضاً. هي واسعةٌ عليَّ الآن، لكنها الوحيدة التي أملكُ، أمّا تاريخها فيعود إلى أيّام البحبوحة.

آهٍ يا إلهي. قطعٌ صغيرةٌ فقط من الريف بين البلدات، وأحياناً أرى بيتاً بعيداً، منعزلاً وحده، فأفكر: كم هو جميل أن أكون هناك، أرقب المطر والقطار في الصباح الباكر. ثم يمضي هذا، وإذا ببلدةٍ، وبلدة ثانيةً، كل شيء بُنّيّ، كل شيء من الطابوق والحديد أو الصفيح الصديء، مثل مزبلة كبيرة رطبة. قلبي يهبط ومعدتي تنكمش.

فرانك ينظر إليّ، متأمّلاً وجهي. فرانك المرتدي سترته التويد اللطيفة وبنطلونه الفلانيل الرماديم. طويل، نحيف، أصلع قليلاً. لكنه سعيد، سعيدُ بأن يكون معي، سعيد حين ينظر الناس إلينا ويرون أنه

معي. هو إنسان طيب. صديقي. لكنه منتفخٌ كبرياءً في دواخله. لاأحد مثل فرانك لطيفُ معي، لكنه بالغُ السعادة حين يجعل نفسه متضائلاً، ضاماً ركبتيه كأنه يحمل فوقهما علبة كعك صغيرة. هو لا يبتسم. ذلك لأنه كامل الحكمة والسعادة. حذاؤه العتيق الضخم يلمع مثل حذاء معلّمٍ، واضحٌ أنه يلمّع حذاءه بنفسه كل مساء، كمن يؤدي صلاته فيشعر بالراحة. هو لا يتعمّد، لكنه يُشعرني دائماً بالحزن، وبأني ضئيل، ذلك لأنني أعرف عدم استطاعتي أن أكون في مثل حكمته وسعادته. لكني أعرف، ياإلهي، أنني فقدت كل من سواه، وأن صديقي الوحيد في هذه الدنيا هو فرانك.

ولدٌ يكتب بإصبعه على الزجاج المبتلّ، والحروف تسيل إلى أسفل. الولد مع أمه، وهو بخير. هو يعرف أين سيذهبان حين يتوقف القطار. لا أحبّ اللحظة إطلاقاً، حين يتوقف القطار ويتفرق الشمل، حين ترسو السفينة ويأخذ كل واحد حقائبه. لكلٍ أمتعته، وأمتعة كل واحدٍ مختلفة. كل امرئ يكون نشطاً آنذاك، سعيداً، ولا وقت لديه للكلام، لأنهم يستطيعون أن يعرفوا مقاصدهم. لكني منذ حللتُ هذه البلاد لا أستطيع أن أعرف إلى أين أقصد. فقط أستطيع أن أنتظر لأرى ماسيأتي به الزمن.

أنا الآن ذاهبٌ إلى زفاف أخي. لكني لا أعرف أي حافلة سنركبها حين ننزل من القطار، ولاأي قطار آخر، ولا أي شارعٍ سنسلكه، أي بوابةٍ سندخل، وأي بابٍ سنفتح إلى أي غرفة.

أخي. أتذكر يوماً كهذا، لكنه ساخن. السماء سوداء مطبقة ليل نهار، والمطر يهطل دوماً، ويدقّ على سقف الصفيح، الأرض تستحيل

وحلاً أسفل المنزل، وفي الحوش يفور الماء أصفر بالوحل، وحشيش الحقل خلف المنزل منحنٍ من البلل، كل شيء رطبٌ دبقٌ، جلدٌ عارٍ يتحكحك.

العربة تحت المنزل والحمار في الحظيرة خلف المنزل. الحظيرة مبتلة، قذرة بالوحل والروث، الحشيش الطريّ مختلط بالقديم، والحمار واقفٌ هادئاً، وعلى ظهره كيس سكر من الخيش اتّقاءَ البرد. في سقيفة المطبخ تطبخ أمي، والدخان يَصّاعد من الخشب الرطب ثقيلاً ذا رائحة. كل شيء سيكون له طعم الدخان، لكن ليس بمقدورك في يوم كهذا أن تفكر بالطعام. فالوحل والحرارة والرائحة تجعلك تتقيأ. أبي في الأعلى، يتقلّب، وهو يحكّ ذراعيه بيديه، فالدخان لا يمنع البعوض من لسعه. هو لا يفكر بالكثير. هو ينظر فقط إلى السماء السوداء وقصب السكّر الممتد حقولاً، ويتقلّب. وفي إحدى غرف الداخل، تحت سقف الصفيح، يتمدد أخي على الأرضية مصاباً بالحُمّى.

إنها غرفة عارية، وليس على ألواح الأرز العارية سوى المسامير وبعض الثياب وتقويم سنوي. أنت تبني منزلاً ولا تملك ماتضع فيه. وأخي الوسيم يرتجف بالحمّى، متمدداً على الأرض، على كيس طحين مفروشٍ فوق كيس سكر، مع كيس طحين آخر كستارٍ.بإمكانك رؤية المرض على وجهه الصغير. الحمّى أصابته لكنه لا يتعرّق. لا يستطيع أن يفهم ما تقول، ولا معنى لما يقول. يقول إن كل ما حوله، وما في أحشائه، ثقيل وناعم، ناعم جداً.

لكأنه يحتضر، وتفكر أن ليس عدلاً أن يعاني امرؤٌ صغيرٌ جميلٌ مثله هذه المعاناة، بينما يجب أن يكون آخر مثلك قوياً. إنه وسيمٌ جداً.

إن ترعرع فسيكون نجماً سينمائياً مثل إيرول فليم* أو فيرلي غرينجر. أنا أرى الجمال في تلك الغرفة أعجوبةً، ولا أتحمل فكرة فقدانه، لا أتحمل فكرة الغرفة العارية والرطوبة النازّة من فجوات الألواح والوحل الأسود في الخارج ورائحة الدخان والبعوض ومهبِط الليل.

هكذا أتذكر أخي، حتى في ما بعد، حتى حين كبر. حتى بعد أن بعنا عربة الحمار وبدأنا نعمل بالشاحنة، ونهدّ البيت القديم ونبني بيتاً جديداً لطيفاً، بالصبغ وكل شيء. هكذا أفكر بأخي صغيراً، مريضاً، يتعذب من أجلي، وجميلاً جداً. أشعر أن باستطاعتي قتل أي شخص يجعله يعاني. أنا لا أهتم بنفسي. أنا ليست لي حياة.

أعرف أن ذلك كان في ١٩٥٤ أو ١٩٥٥، في سنة عادية، حين مرِض أخي، ومن الطقس يمكنني القول إن ذلك كان في كانون الثاني أو كانون أول. أمّا في ذهني فقد حدث ذلك منذ زمنٍ سحيق لا أستطيع له تعييناً. ومثل ما لا أستطيع تعيين الزمن، لا أستطيع تحديد المكان. أنا أعرف منزلنا، وأعرف، ياإلهي، أنني لوعدتُ فبمقدوري النزول من سيارة الأجرة عند المفترق، والسير في شارع سافانا القديم. أنا أعرف ذلك الطريق جيداً. أعرفه تحت مختلف الأحوال الجوية. لكني، في ذهني، لا أرى أي مكان بتاتاً. لقد مُحي كل شيء عدا المطر ومهبط الليل والمنزل والوحل والحقل والحمار ودخان المطبخ وأبي في العلية وأخي في الغرفة على الأرضية.

وكما أنك تخشى أمراً ماثل الحدوث، وكما لو أن الخطر آتٍ لأنك تحمل خطراً، كما لو أن الأمر الذي تخشاه آتٍ لا محالة وكما لو أن

* هكذا ورد في الأصل ERRD FLIM

الخطر آتٍ لامحالة لأنك تحمل خطراً. مثل الحلم ثانيةً. أرى نفسي في هذا المنزل الإنجليزي العتيق، مثل شيء في فيلم "ربيكا" للورنس أوليفييه وجوان فونتين. إنها غرفة في الأعلى مع الكثير من أمور الغيرة والإنزعاج. لا طقس. أنا هناك، مع أخي، ونحن غريبان في المنزل. أخي في كلية أو مدرسة بانجلترا، يتابع دراسته، وهو يزور زميله في الكلية، وهو يقيم مع عائلة زميله. ثم، في ممر، خارج الباب بالضبط، يحدث أمرٌ. شجار، جدال ودّي، عراك. إنهما يلعبان فقط. لكن السكين تنغرز في الفتى، بسهولة، فيتهاوى دون أن يندَّ عنه صوت. رأيتُ فقط وجهه المندهش . لم أر أي دم. ولم أرد أن أنحني لأنظر. أرى أخي يفغر فمه، كي يصرخ، لكن الصرخة لاتعلو. لانأمة من أي شيء. أرتعبتُ-المشنقة له، هكذا حسبُ، كان حادثاً فقط، ليس حقيقياً- وأعرفُ تلك اللحظة أن الحب والخطر اللذين أحملهما طيلة حياتي ينفجران. حياتي تنتهي. تفسد. تضيع.

لايزال علينا انتظار الأسوأ. علينا أن نأكل مع والدَي الفتى. هما لا يعرفان بما جرى. وعلينا كلينا، أخي وأنا، أن نجلس ونأكل معهما. والجثة في البيت، في صندوق، مثل فيلم "الرداء" لفيرلي غرينجر. إنها هناك في البداية، إنها هناك إلى الأبد، وكل شيء سوى ذلك خداع. لكننا نأكل. أخي يرتجف. إنه ليس ممثلاً جيداً. الشخصان اللذان آكلُ معهما، لا أستطيع رؤية وجهيهما، ولاأعرف ملامحهما.

ربما كانا مثل أي من الناس البيض في هذا القطار. مثل تلك المرأة والولد الذي يكتب على النافذة المبتلة.

لا أستطيع مساعدة أحدٍ الآن. حياتي دُمِّرتْ. وددتُ لو أن القطار لن يتوقف أبداً. لكن ها هي ذي البنايات تعلو وتقترب، وهي الآن جنب

السكّة تماماً، حتى لترى الغرف والغسيل وما عُلّق في المطابخ خلف النوافذ المبتلّة.لندن. أنا مبتهجٌ لأن فرانك معي. سيهتمّ بي حين يتوقف القطار. سيأخذني إلى بيت الزفاف، مهما كان. أخي يتزوج. وفي دواخلي ثقل رصاص.

حين توقف القطار، تركنا الآخرين يندفعون، وهدأتْ نفسي. لا مطر في الخارج، بل كأنّ الشمس توشك أن تطلّ. قال فرانك إن لدينا وقتاً كافياً فقررنا التحدث قليلاً. الشوارع قذرة بعد المطر. البنايات سود. والصحف القديمة في المجاري. أنا أتبع فرانك وهو يقودني في شوارع أعرفُها جيداً. لاأعلم إن كان هذا مصادفة، أم أنه يعرف. هو يعرف كل شيء.

ثم رأيت الدكان. مثل صندوقٍ قذرٍ ذي واجهة زجاج. إنه الآن دكان مهزلة ذي بطاقات صغيرة داخل الشبّاك المغبّر. سَلٍّ نفسَك. خَوِّف أصدقاءك. حيل ورق، أسنان اصطناعية مصطنعة. أقداح جينس، عناكب مطّاط. مسحوق الحكّة. عظم بلاستيك للكلاب. الدكان ليس ذا شأن، لكنك لن تصدق إن أخبرتُك أن هذا المكان كان ملكي، مرةً، لأشهر قليلة.

أقول لفرانك: "هاهو ذا المكان. غلطة حياتي. هنا ذهب كل مالي. ألفا باوند. الباوندات لا تبدو مالاً حقيقياً إن أمضيتَ معظم حياتك تتعامل بالدولارات والسنتات. لكن أبي لا يستطيع أن يجمع ألفي باوند في عشر سنين. كيف بمقدور امرىء أن يستعيد حياته بعد ذلك؟ قد تقول سأفعلها ثانيةً، سأشتغل ثانيةً وأوفر ثانيةً. قد تقول ذلك، لكنك تعرف أن شجاعتك لو انهارت، انهارت.

وضع فرانك ذراعه حول كتفي ليبعدني عن شبّاك الدكان. المالك، المالك الجديد، الرجل ذو صكّ الملكية، نظر إلينا. إنه شخصٌ ضئيل أصلع أصفر، ذو كرش ناعم صغير، وكأن كل شيء في دكانه يجمع الغبار. تصلّب فرانك قليلاً، إن كبرياءه القديمة تنفخ فيه، وكان يواجه الشخص الأصلع وسواه ممن يراقبوننا.

أقول: "أنت، أيها الكلبة البيضاء".

كأن فرانك يحب اللغة البذيئة. صار أكثر رقّةً ولطفاً، ولأنه رقيقٌ شرعت أقول أموراً لا أشعر بها حقاً.

"أنا ماضٍ لأجمع مزيداً من المال، يا فرانك. أنا ماضٍ لأجمع مالاً لن تستطيع جمعه طوال حياتك، أيها الكلبة البيضاء. سأشتري أعلى بناية هنا. سأشتري الشارع كله".

لكني أعرف أن الأمر حماقة حتى وأنا أتكلم. أعرف أن حياتي ضائعة، بل أردت أن أضحك.

الآن، لا أريد أن أكون في الشارع. ليس معنى هذا أنني لا أريد أن يراني الناس. أنا لا أريد أن أرى الناس. قال لي فرانك، سبب هذا أنهم بيض. أنا لا أدري حين يتكلم فرانك هكذا أشعرُ بأنه يتحداني كي أقتل واحداً منهم.

أريد أن أخرج من الشارع ، لأهدئ نفسي. أخذني فرانك إلى مقهى فجلسنا في آخره، مواجهين الحائط. جلس هو بجانبي وهو يحدثني. يتحدث عن طفولته،وأحسست أنه يحاول بيان أنه هو أيضاً، عانى حمّى،وهو طفل، في غرفة عارية. لكنه ربح في حياته. هو في مدينته. والآن هو حكيمٌ وقويّ. هو لا يعرف كم يجعلني أحسده. لا أريد أن

أستـمع. انظُر إلى أزهار المناديل الورقيـة وأشـرد في الخطوط. هو لا يعرف المخبّأ في رأسي. هو لـن يعرف، ولو في مـائة عام، كم كان العالم عـاديّاً لي، لا شيء ذا خـيـرٍ فـيـه، لا شيء لأرى سـوى قـصب السكر والطريق المعبّد، وكيف عرفت منذ الصغر أن لا حياة لديّ.

الأمور عـاديّةٌ بالنسبـة لي. أمّا لأخي فـقـد اختلفتْ. كـان يريد أن يقطع الحبل، ويغدو ذا مـهنة. وصـار عليّ أن أرعى ذلك. العـالم ليس عاديّاً للأغنيـاء وذوي المهن. أعرف ذلك فقد رأيتـهم. حيثما بنيت كوخاً بنوا قصراً. وحيثما كان لك حقل من الوحل والحشيش كانت لهم حديقة. وعندمـا تقـتـل وقـتك يوم الأحد تـكون لهم حـفـلاتهم. نحن من الطـينة نفسها، لـكن أناساً يتـقدمـون، وأناساً يتـخلّفون. ومن الناس من يتـخلّف كثيـراً فلا يعـود يعرف أو يكـترث. أبي مـثلاً، لا يـقرأ ولا يكتب، ولا يهتمّ. بل يتفكه عن أمّيته ضارباً ذراعه السمينة وهو يضحك. يقول إنه سعيدٌ بترك ذلك لأخيه الأصغر الموظف الحقوقي في المدينة. وكلما التقى ذلك الأخ، حَوّل حيـاته الخـاصـة، دائمـاً، إلى حكـاية وفكاهة، وحـوّلنا أيضاً، نحن أبناءه، إلى فكاهة.

لكن بمقدورك أن ترى أن أبي، بالرغم من كل فـكاهاته، يشـعـر بأنه حكيم، وبأنه قادرٌ على الفوز في المساومة. اختاي الكُبريان، وأخي الأكبر، مثله أيضاً. تعلموا شيئاً في المدرسة، وحسب طريقة الحيـاة القديمة، تزوجوا مبكرين، وشرع أخي الأكبر يضرب زوجته ومـا إلى ذلك، ويقلّد من سبقوه في كل شيء. يسكر في الجمعة والسبت، ويبدد ماله، بلا حياء.

كنت الولـيـد الرابع، والإبن الثـاني. كـان العـالم يتـغـيـر حـولي وأنا أكـبر. رأيـت من يسافـرون لمتـابعـة دراستـهم ويعـودون أشـخـاصـاً مـهـمين.

عرفت أن هذا ما فاتني. عرفت كم خسرتُ حين تركت المدرسة، وقررت أن هذا لن يحدث لأخي الأصغر. شعرت بأني أرى الأمور رؤيةً أفضل من بقية عائلتي. هم يقولون إنني سريع التأثر. لكني أشعر بأنني صررت مثل عميد الأسرة. أشعرُ بالأمل والعار إزاءهم. الأمل مثل العار، والعار مثل السرّ، يوجع دائماً وحتى الآن، وقد انتهى كل شيء، يمكن أن يعود إلى الوجع. لن يستطيع فرانك أن يرى ما أرى في رأسي.

ألِفَ رجلٌ العيش قربنا في منزل ذي طابقين كبير. المنزل مشيد بالكونكريت، مع قوالب كونكريتية مزينة، كان لونه جوزيّاً بهيجاً، وكان مكسواً بخشب في لون الشوكولاتة. كل شيء فيه دقيقٌ لطيف المرأى حتى ليكاد يؤكل. أتملّى هذا المنزل كل يوم وأراه منزل الغنيّ، لأن الرجل كان غنيّاً. كان غنيّاً، لكنه كان فقيراً يوماً ما، مثلنا، ويروى أنه يملك عدة أكرات من أرض البترول في الجنوب. إنه رجل بسيط، مثل أبي، لم يحصل على تعليمٍ كثير. لكني أرى أن أرض البترول والحظّ والمال والمنزل جعلت هذا الرجل عظيماً.

أنا أعبد هذا الرجل. ليس فيه ما يعتبر خارقاً. أحياناً تراه واقفاً في الطريق ينتظر حافلة أو سيارة أجرة لينزل إلى البلدة، وهو لن يثير انتباهك إن لم تكن عرفتَه. دقّقتُ في كل شيء منه، أرى الحظ والمال في كل شيء.في الشعر الذي يمشطه، والقميص الذي تزرره يداه، والحذاء الذي تشد يداه خيوطه وحيداً يعيش في المنزل. أبناؤه تزوجوا، ويقال إنه لا ينسجم وأفراد أسرته، وإن له الكثير مما يقلقه. أما بالنسبة لي، فإني أرى حتى هذا بعضاً من عظمته .

في أحد الأيام، كان زفافٌ في القرية، الزفاف القديم الذي يستمر طيلة الليل، وقد أعار الرجلُ الغنيُّ منزله لهذه المناسبة. وفي ليلة الزفاف

دخلتُ المنزل لأول مرة. المنزل الذي يبدو من الخارج كبيراً جداً، كان من الداخل صغيراً جداً. ليس في أسفله سوى أعمدة كونكريتية وجدران حول مساحة فارغة. وفي أعلاه خمس غرف صغيرة، دع عنك الأروقة. في الأمام والخلف. الأضواء خافتة، خافتة. هذا ما اتذكره في الغالب. هذا ورائحة الفئران الميتة. تشعر بالغبار في كل مكان، الغبار يَسّاقط عليك وأنت تمشي. إنه ليس غباراً، إنه ذرق عثّ الخشب، بيوض صغيرة صلبة من الخشب تتدحرج تحت يديك إن مسستَ أي شيء.

غرفة الاستقبال مختنقة بالأثاث، طقم موريس، وطاولات وسط وكل شيء غير ذلك، لكنك تشعر أن كل شيء سينسحق لو ضغطتَ عليه أشدَّ. ليس في غرفة الاستقبال سوى الأثاث، لا صور أو حتى تقاويم، لا شيء سوى كومة من المجلات المسيحية، شهود يهوه وما إلى ذلك، أشياء نرميها نحن، لكن الرجل الغني يحتفظ بها، مع أنه ليس مسيحياً. كان المكان مثل القبر. كأن أحداً لا يسكن فيه، وكأن الرجل الغني لا يعرف سبب بنائه المنزل.

وذات يوم، أطلق أحدهم الرصاص على الرجل. لا أحد يعرف إن كان السبب متعلقاً بالمال أو بمتاعب الأسرة. لغزٌ آخر من ألغاز البلد. الشرطي الأسود علّق في كل مكان إعلاناً عن جائزة بخمسمائة دولار، كأن القرية صارت بين عشية وضحاها مثل دودج سيتي، أو شيئاً في فيلم "جيسي جيمس" لهنري فوندا وتيروم* باور الدئرَين في الركن هنا.

انتظر الجميع الدراما. لكن الدراما لم تحدث. الإعلانات نصلت ألوانها وتمزّقت، والشرطة نسوا الأمر، وظلَّ البيت. الدهان الجوزي فقد

* هكذا ورد الإسم في النص الأصلي Tyrum Powers

لونه. وسقف الصفيح صدئ، والصدأ انحدر على الجدران، والرطوبة صعدت سريعاً من الأرض مثل شجيرة خضراء لامعة. الخضرة اللامعة صارت غامقة، والغامقة صارت سوداء، ونما دغْلٌ حقيقي أمام البيت. الرطوبة لطّخت البيت، والسقف صدأ كُله. وزال الدهان من الخشب، فبانت عروق الألواح، وأخذ الخشب يتجوف، والأجزاء الناعمة تذوب فتزول، حتى لم يبقَ من الخشب سوى أرومته، مثل هيكل عظمي. وطيلة إقامتي هناك ظلّ البيت ماثلاً ثمّت في هذه الهيأة.

أرى الآن الرجل الذي حسبتُه غنياً، لم يكن غنياً البتة. ومن هنا، من هذه المدينة التي تشبه بلاداً، أشعرُ أنني قادرٌ على أن أرى تلك القرية في الأراضي المنبسطة الرطبة، الطريق المعبَّد الصغير ذا النتوءات، أسود بين قصب السكر الأخضر، والجروف ذات العشب الطويل، والإكواخ المسقوفة بالأغصان، والماء في الباحات الصفر بعد المطر، والسقف الصدئ المتعفن لذلك الذي كان منزلاً كونكريتياً.

وإنك لتتساءل كيف جاء الناس إلى قرية مثل تلك، كيف صار المكان بيتهم. لكنه البيت. وفي صباح يوم أحدٍ مشمس لا يشتغل أحد، فترى الجميع يستريحون في باحاتهم الأمامية، الزينية قليلة هنا وهناك، بضعُ نبتات قطيفة وأولدميد وكوكسكومب وخُفّ السيدة والخبّازى المألوفة.

الحلاّق يؤدي دورته، والناس جالسون تحت أشجار المنجة لقصٍّ شعرهم وفي ذهني، أني في صباح كهذا، أستطيع أن أرى الأخ الأصغر لأبي قادماً على دراجته عبر الطريق المعبد.

عمي يعيش في المدينة. كيف ذهب إلى هناك ، كيف تعلَّمَ بينما أبي لم يتعلم، كيف حصل على هذا العمل مع محامٍ، حدث هذا كله قبل زمن طويل، قبل أن أولد، وصار الآن لغزاً. إنه مسيحي، أو اتخذ اسماً مسيحياً، ستيفن، علامةً على تقدميته. أبي يستغيبه متندراً على اسمه ذاك، لكننا جميعاً فخورون بستيفن، ونتمتع بالشهرة المتواضعة والاحترام في القرية بسببه.

أمرٌ مشهودٌ زيارته لنا. الجيران يذيعون الأخبار مقدماً، وأمي تطارد دجاجة وتذبحها منذ الآن، وأبي يخرج زجاجة الروم والأقداح والماء. عيد! وفي الختام، قبل أن يغادر، يوزع ستيفن قروشاً على الصغار، لسينما صباح الأحد أوهكذا جرت العادة. عبدتُ ستيفن عندما كنت صغيراً. وكنت أعبده، إذ كنت أظنه يعيش في المدينة وحيداً. لكني شعرت بالخيبة، حين عرفت أنه ذو عائلة، وحشدٍ من البنات الذاهبات إلى الدير، وولدٍ ذكيّ، طالبٍ مرموقٍ، وأنه يعبد ابنه. الإبنُ في مثل عمري، أو أكبر قليلاً. جاء ليرانا مرةً أو مرتين. هو لطيفٌ هادئ، غير مترفع علينا، وبمقدورك معرفة طريقة أبي الخاصة في التباهي به أكثر مني أو من أخي الأصغر. وأن ابن ستيفن هو كما يتوقع، ولدٌ مختلفٌ، ذكيٌّ، وذو مستقبل مهنيّ. أبي لا يعطيه نقوداً لسينما الأحد الصباحية. أرسل إليه قلم حبرعليه شيرلي تمبل، وساعة يدوية عليها ميكي ماوس.

ستيفن لا يخبرنا، قط، بقدومه. وإنك تتساءل عمّا حدا برجلٍ مثله إلى أن يقرر مفارقة عائلته صباح الأحد، والإحتفال معنا في القرية. يقول أبي إن ستيفن يسعد بالإبتعاد عن الحياة العصرية أحياناً، وأن ستيفن يقلق كثيراً، بسبب تقدميته.

رجل مثل ستيفن، لا أدري ما يقلقه. إن كان لدينا ما يقلقنا فإن ذلك لا يظهر دائماً.

ستيفن ذو دعابة وسخرية. حتى قبل أن يضع دراجته في السقيفة، حتى قبل أن ينزع قبّعته ومَغالق الدراجة، بل قبل أن يحتسي أول جرعة من الروم، يبدأ ستيفن سخريته. لا أدري السبب في اعتباره حمارنا مضحكاً، كأنه لم ير حماراً من قبل. سخر منّا بسبب الحمار. وسخر منّا بسبب موت الحمار. ثم حين اشترينا الشاحنة، ورفعناها لأسابيع قليلة تحت المنزل، وقد وضعنا تحت محورها قوالب خشب، سخر منّا أيضاً. كل ما نفعله مدْعاة سخرية لستيفن، وكان أبي يشجعه بضحكاته.

ستيفن يسخر مني كثيراً أيضاً، في البداية. اعتاد أن يسأل أبي عندما كنت صغيراً: "متى تزوج هذا ؟". وأبي يضحك دوماً ويقول: "في الموسم القادم. لقد اخترت فتاةً لطيفة له". غير أني عندما كبرتُ، أظهرتُ أني لا أستسيغ هذا النمط من المزاح، فتوقف ستيفن عن سخريته.

ستيفن ليس أمراً سيئاً أو قاسياً. إنه منكِّتٌ طبيعيٌّ، بالرغم من كل ما يقلقه أحياناً يسخر من حاله. مرةً، جاء بابنه ليرانا، وقال: "ولدي لم يكذب حتى الآن كذبةً". وأسأل الولد: "أهذا صحيحٌ؟". يجيب: "لا". وينفجر ستيفن ضاحكاً ويقول: "يا إلهي! أي تأثيرٍ لكم يا ناس! الآن قال الولد كذبته الأولى!". ها هو ذا ستيفن، قليلٌ من الجد دائماً تحت السخرية، فتشعر أنه يسخر منا لأنه يريدنا أن نغدو أكثر تقدميةً، ولو قليلاً. ستيفن يستفسر من أبي، دوماً، عمّا سنفعله لتعليم أخي الأصغر. ويقول: "الآخرون خابوا. لكنك لا تزال تستطيع أت تعطي هذا

قليلاً من التعليم. دايو، يا ولد، أنت تريد أن تدرس؟". يحكّ دايو قدمه بركبته ويقول: "نعم، أريد أن أدرس". أشعر أن جمال الولد هو ما جذب ستيفن. اعتاد القول: " سآخذ دايو معي". فيقول أبي: "نعم. خذه. وأعطه بعض الدروس. هنا، في هذه المدرسة لن يتعلم شيئاً. لا أدري ماذا يفعل المعلمون هذه الأيام".

أفكر دوماً بأنه سيكون لطيفاً لو استطاع ستيفن أن يهتم بدايو، ويستعمل علائقه ليدخل دايو في مدرسة جيدة في المدينة. لكني أعرف أن ستيفن يطلق مجرد كلام، أو أن شراب الروم والدجاج بالكاري يتكلمان فلا أستطيع أنا أن أتكلم معه بصورة جدية عن دايو. سيكون الأمر أسهل لو أن ستيفن غريب. لكن ستيفن من العائلة. والعائلة عجيبة. وأنا لا أريد أن أعطي ستيفن أو ابنه فكرة أني أتنافس معهما. آنذاك سيفعل ستيفن أكثر من السخرية، وقد يغضب.

وهكذا أدع ستيفن يتكلم. أعرفُ أنه سيشرب ويسخر. أن عينيه ستحمرّان وتزدادان احمراراً، حتى تتبدى متاعبه على وجهه حقيقةً، وأنه سوف يثب على دراجته، فور انتهاء العيد، ويعود إلى المدينة وأسرته.

أعرف أن ستيفن غير قادر، فعلاً، على الاهتمام بدايو، لأن عقل ستيفن وقلبه مثبّتان على ابنه. لسنواتٍ يتحدث ستيفن عن دراسات ابنه اللاحقة، ولسنوات ظل يوفر لهذه الدراسات اللاحقة، وهو لا يحفظ سرَّه. حتى حين اقترب موعد هذه الدراسات، حتى حين توافرت هذه الدراسات في جامعات كندا، ظل ستيفن غير مستريح. ولسوف تشعر آنذاك بأن ستيفن أكثر من طَموح بصدد ابنه، وبأنه خائفٌ أيضاً. مثل رجلٍ يحمل شيئاً قد ينكسر فيكسره هو. حتى أبي لاحظ هذا الفرق، فشرع يستغيب

ستيفن قائلاً: "أخي ستيفن سوف ينتهي بسبب ابنه". أبي، مثل امرئ سعيد. لم يعلم أحداً من أبنائه لئلا يُنهوه.

عصر يوم أحد، أشهراً قبل مغادرة الإبن، جاء ستيفن. بلا إنذار كالعادة. لم يكن هذه المرة على دراّجة، وما كان وحده. إنه في سيارة، ومعه العائلة كلها. من حقل الحشيش خلف المنزل أرى السيارة تتوقف وأرى كل بنات ستيفن يخرجن، وأتذكر حال منزلنا. أهرولُ بطريقة خرقاء محاولاً الكنس والترتيب. لكني أشعر باليأس، لأني أرى المنزل كما ستراه البنات. وفي النهاية، وأنا أسمع الأصوات تصعد الدّرج في الجنب، أتظاهر بأن أفعل ما يفعله أبي، ألاّ أكترث، وأن أكون مستعداً لجعل كل شيء مزحةً، تاركاً الناس يعرفون أن لدينا ما لدينا، وهذا كل ما في الأمر.

هكذا صعدوا جميعاً. تستطيع أن ترى الإحتقار في وجه زوجة ستيفن المسيحية، وفي وجوه بناته المسيحيات. كان يمكن تحمُّل ذلك لو كنّ قبيحات. لكنهنّ لم يكنّ قبيحات، وشعرتُ بأن احتقارهنّ في موضعه. حاولت البقاء في الخلف. إلا أن أمي، وهي تمسح قدمها الوسخة بركبتها، ابتسمت وسحبت فوطتَها إلى أعلى رأسها، كأن هذه الحركة هي الوحيدة التي تجعلها مقبولة المنظر أمام الآخرين وقالت: "لكن، يا ستيفن، أنت لم تُخبرنا. وهذا الولد –وأشارت إليّ– يجري هنا وهناك، محاولاً تنظيف المكان". ثم تضحك، فإنها تطلق فكاهة جيدة.

المرأة الحمقاء لم تعرف ماذا كانت تقول. هربت من المنزل إلى حقل الحشيش في الخلف، ثم داخل قصب السكّر، محاولاً إخماد خجلي وغضبي.

أمشي وأمشي، وأشعر أنني لا أريد العودة إلى المنزل أبداً. لكن النهار ينقضي، وعليّ العودة. الضفادع تنقّ وتغني في القنوات والجروف، وفي المنزل أُوقدت المصابيح الخافتة. لم يفتقدني أحد. لم يهتمّ أحدٌ بما قاله لي. لم يسأل أحدٌ أين كنت وماذا أفعل. الجميع في المنزل مشغولون بالنبأ العظيم. دايو سوف يذهب إلى المدينة ليعيش مع ستيفن سيجعله طبيباً، محامياً، أي شيء. كل شيء تمّ ترتيبه.

كان مثل الحلم. لكنه جاء في اللحظة غير المناسبة. كان عليَّ أن أسعد، لكني شعرت بأن كلَّ شيء مسمَّمٌ تجاهي. الآن، وقد أوشك دايو على الذهاب، بدأتُ أشعر أني أحمله في داخلي كما يحمل ستيفن ابنه، مثل شيء قد ينكسر فيكسر وفي الوقت نفسه، استميحك العذر، نما شعورٌ جديد في قلبي. فقط أنا انتظر لأبي وأمي، لستيفن وكل عائلة ستيفن، لكل من كانوا هناك ذلك اليوم، فقط أنا أنتظر لهم جميعاً أن يموتوا، أن يدفنوا عاري معهم. إني أكرههم. حتى اليوم، أستطيع أن أكرههم، بينما يتعيَّنُ عليَّ أن أجد أسباباً أكثر كي أكره القوم البيض، أكره هذا المقهى وهذا الشارع وهؤلاء الناس الذين أقعدوني ودمَّروا حياتي. أمّا الآن فالمرء الميت هو أنا.

ألفْتُ أن تكون لي رؤياي عن مدينة كبرى. لم تكن كهذه، ولا الشوارع كهذه. ألفْتُ أن أرى حديقة جميلة، ذات سياج من الحديد الأسود كالرماح، دوحٌ قديمٌ ينبت على الرصيف العريض، والمطر يهطل كما كان يهطل على روبرت تايلور في فيلم "جسر واترلو"، والرصيف مكسوٌّ بأوراق منبسطة، كاملة الشكل، زاهية الألوان، ذهبية وحمراء وقرمزية.

ورق القيـقب. ابن ستـيفن أرسل لنا واحدةً، بعد ذهابه إلى مونتريال بقليل لمتابعة دراسته العليا. المظروف طويل، والطابع غريب، وفي داخل المظروف ورسـالتـه ورقة قـيقب زاهيـة، ورقة واحدة من آلاف على ذلك الرصـيـف. تملّيتُ المظروف والورقـة طويلاً، درست الطابع، ورأيت ابن ستيفن يتمشى على ذلك الرصيف بجانب السياج الأسود. الجو بارد جداً، وأراه يتوقف ليمسح أنفه، وينظر إلى أسفل فيرى الأوراق ويتذكرنا نحن أبناء عمِّه. هو يرتدي معطفاً يتقي به البرد، وتحت ذراعه محفظة. هكذا أتخيله في مونتريال، يكمل دراساته، سعيداً بين أوراق القيقب. وهكذا أريد أن أرى دايو.

بعد ذهاب ابن ستيفن إلى مونتريال انفجرت الغيرة في عائلة ستيفن ضد دايو. كانوا يحتقرون الولد دائماً. جعلوه ينام في غرفة الإستقبال، وكان عليه أن يرتب له فراشاً بعد أن يذهب الجميع ليناموا. لم تكن لديه غرفة لمتابعة دراسته فيها مثل ابن ستيفن. اعتاد أن يقرأ كتبه في الرواق الأمامي الصغير لمنزل ستيفن الصغير. الرواق يكاد يكون على الرصيف، هكذا يستطيع أن يرى العابرين. ويستطيع العابرون أن يروه. أقول: يرونه؟ بإمكان أحدهم أن يمد يده ويقلب صفحة الكتاب الذي كان يقرؤه. بالرغم من ذلك، فإن قراءته المنتظمة في الرواق جلبت له سمعة جيدة واحتراماً في الحيّ وأعتقد أن سبب الغضب الذي انتاب عائلة ستيفن هو هذا الاحترام الذي حظي به الولدُ المسكين. شعروا بأنّ لهم وحدهم ميزة متابعة الدراسة.

بنات ستيفن، بخاصة، كرهن الولد، بينما ينبغي عليهنّ أن يكُنَّ فخورات بابن عمهن. لكن لا، ومثل كل الناس الفقراء، أردن التفوّق

لهنّ فقط. الفقراء دائماً هم الذين يحطّون من شأن الفقير. هكذا شعرن بأن دايو يقلل من شأنهنّ. ولن استغرب إن تلقيتُ في أحد الأيام رسالة من ستيفن تقول بأن دايو كان يتدخل ويعبث ببناته.

وباستطاعتك أن تتخيل مدى فرحهنّ حين أدّى دايو امتحاناته وأخفق. كم ابتهجت قلوبهنّ! المدرسة الرديئة التي دخلها دايو كانت السبب في إخفاقه. لم يكن يستطيع الدخول في أي مدرسة جيدة. في تلك المدارس يبحثون عن الأصل والفصل والظروف، وكان على دايو أن يدخل مدرسة خاصّة حيث المعلمون أنفسهم كانوا زمرة من الجهلة بلا أي كفاءة. لكن بنات ستيفن لا ينظرن إلى هذا. قد تظن أن ستيفن، بعد كل دعواه العظمى عن التقدمية، سوف يقف إلى جانب دايو، ويفعل ما يعين الولد ويشجعه قليلاً. لكن ستيفن نفسه بعد ذهاب ابنه صار مضحكاً جداً. لم يعد مهتماً بأي شيء على الإطلاق. كان مثل امرئ في الحداد. مثل امرئ يتوقع أنباء سيئة. يتوقع الشيء الذي سينكسر في يده ويجرحه. انتفخ وجهه، وابيضّ شعره واخشوشن.

لكن أولى الأنباء السيئة كانت لي. عدت في عطلة أسبوعٍ إلى البيت، متعباً بعد عملي في الشاحنة، لأجد دايو. كان جيد اللباس، مثل من يزور. لكنه قال إنه ترك منزل ستيفن إلى غير رجعة. قال: "أرادوا أن يجعلوني خادمهم المنزليّ. اردنني أن أحمل رسائلهنّ". استطعتُ أن أرى مبلغ معاناته، واستطعتُ أن أرى أنه خائفٌ من عدم تصديقنا إياه، ومن احتمال أن نجبره على العودة.

هذا ما كان أبي يريد أن يفعله.حكّ ذراعيه، ومسح بيديه شعر ذقنه الخشن الشائب، مُصدراً الصوت التي يحبّه، وقال مثل حكيم يعرف كل شيء: "هذا ما عليك أن تتدبَّره أنت".

هكذا كـان على دايو المسكين أن يلتـفت إليّ. وعندمـا نظرتُ إلى وجهه، جدٌّ حزين وخائف، شعرتُ بجسمي يضعف ويرتجف. غلى الدم في عـروقـي، وشـرعت ذراعي تؤلمانني، كأن فـي داخلهمـا سلكاً، وكـأنَّ هذا السلك جُذِب.

قال دايو: "كان عليّ أن أهرب. كان عليّ أن أترك. شعرتُ بأنني لو بقيتُ فإن أولئك القوم سيُقعدونني بحسدهم".

لم أعرف مـا أقول. أنا لا أعرف الحبـال. وليست لي علائق. ستـيفن هو رجل العلائق، لكني لا أستطيع أن أطلب من ستيفن شيئاً الآن.

قال دايو: "ليس لديّ ما أفعلُه هنا".

سألتُه: "وماذا عن حقول البترول؟".

"حقول بترول، حقول بترول. القوم البيض يحتفظون لأنفسهم بأفضل الأشـغـال. كل مـا بمقـدورك أن تـفـعله هناك هو أن تصـبـح كـيـمـيـائيّ مصطبة".

كـيـمـيـائي-مـصطبـة، لم أسمع بهـذه الـكلمة من قـبـل، وقـد تأثرتُ لسـمـاعـهـا. عـائلة سـتـيـفن لم تقـدم أي عونٍ لدايو كي يـتعلم، لكـني قـادرٌ الآن على أن أرى مـدى التـقـدم الذي حـقـقـه الولد خـلال عـامين، وكـيف توصَّل إلى طريقة حديثةٍ جديدة. هو لا يتعـجل الحديث الآن، وصـوته لايصعد ولا ينزل، هو يسـتـعمل يديه كثيراً، ويتّـخذ لهـجة لطيـفةً، حتى ليـبدو أحيـاناً مـثل امرأة، مـثل مـا ينطق المثـقـفون. أحبُّ طريقـة كلامه الجـديدة، مع أني أتأثر حين أنظر إليـه وأفكرُ بأن أخي الآن هو سيِّدُ لغـة. وهكذا يشرع في الحديث، وأنا أدعه يتحدث، وكلما تحدّثَ تخلَّصَ من حزنه وخوفه.

وأسألُه: "ماذا ستدرس لو سافرتَ؟ الطب، المحاسبة القانونية؟ القانون؟ أمي تقفز وتقول: "لستُ أدري، لكنْ منذ كان دايو صغيراً، شعرت دوماً بأنني أريده أن يعمل طبّ الأسنان".

هذه نباهتُها. وأنت تعرف أنها لم تفكر بطب الأسنان أو سواه لدايو حتى تلك اللحظة. تركناها تقول ما تشاء، فنزلت إلى المطبخ، وبدأ دايو يتحدث بطريقته الخاصة. هو لم يجبني جواباً قاطعاً. كان يفكر في أمرٍ وقد توصّل إليه. قال: "هندسة الملاحة الجوية".

هذه كلمة، مثل كيميائي مصطبة، لم أسمع بها من قبل. أخافتني الكلمة، لكن دايو قال إن في انجلترا كليةً يمكن لك أن تدخلها وتدفع الأجور. اتفقنا، على أي حال. ولسوف يسافر كي يتابع دراسته في هندسة الملاحة الجوية.

ما أن اتفقنا حتى صار دايو يتصرف مثل سجينٍ هاربٍ، كأنَّ لديه سفينةً يجب أن يلحق بها، وكأنه لا يطيق البقاء شهراً آخر في الجزيرة. وتبيَّنَ حقاً أن هناك سفينةً يجب أن يلحق بها. وتبيَّنَ أن له أصدقاء يريد أن يذهب معهم إلى انجلترا. هكذا هُرعت إلى هنا، وإلى هناك، أستدينُ من هذا وذاك، موقِّعاً باسمي على هذه الورقة أو تلك، حتى أمَّنتُ الجانب الماليّ.

حدثَ كل شيء بسرعة، وأتذكرُ كيف كنت أفكر وأنا أرقب دايو يصعد إلى السفينة مبتسماً. كانت من تلك اللحظات التي تظل تفكر فيها في ما بعد. وعندما تحركت السفينة مبتعدةً ورأيتُ الماء المزيَّت بين السفينة والرصيف، هبط قلبي. شعرتُ بالمرض. شعرتُ بأن الأمر كله كان سهلاً جداً، ومادام الأمر سهلاً جداً فإن الخاتمة لن تكون جيدة. وفوق هذا كله، كان حزني على الولد، الولد الرشيق ذي البدلة الجديدة.

تآكلني الحزن. ألقيتُ باللائمة، في سرِّي، على ستيفن وعائلته، بسبب غيرتهم. ولم أستطع مُغالبة الأمر. فبعد يومين أو ثلاثة من مغادرة دايو ذهبت إلى المدينة، وذهبت إلى منزل ستيفن.

كان بيتاً خشبياً صغيراً قديم الطراز في قسمٍ رديء من المدينة، وقد شعرتُ بالعار لأنني اعتبرت ستيفن يوماً ما، رجلاً هامًّاً. الآن أعرفُ أن ستيفن لم يكن ذا شأن في المدينة، وأن كل آماله وآمال بناته معلَّقةٌ على ذلك الإبن الذي يدرس في مونتريال. إنهم ينظرون إليه نظرتَهم إلى أمير. وفي ذلك البيت الصغير، الذي يفتقر إلى باحة أمامية، ولا يحاذي باحةً خلفيةً، يعيشون مثل "الجميلة البيضاء كالثلج" والأقزام السبعة، مع صورهم الأجنبية الصغيرة، في غرفة استقبالهم الصغيرة، وقطع أثاثهم الصغيرة الصقيلة. كأنّ عليك أن تنحني، وكأنك ستكسر شيئاً إن سرتَ كما اعتدتَ.

أوائلَ المساء ذهبتُ. الكل في المنزل. ستيفن يترجَّح في الرواق. وقد أدهشتني رؤيته شائخاً إلى هذا الحدّ. شعر رأسه شائب، منتصبٌ خشنٌ. كلهم ينظرإليّ كأنني جئت أثيرُ المتاعب. خيّبتُ ظنَّهم. قبّلت ستيفن على خدِّه وقبّلتُ زوجته. البنات تظاهرن بأنهن لم يرينني، وكان ذلك خيراً لي.

قدَّموا لي الشاي، ليس بطريقتنا الريفية الفجَّة، حليب مركز، وسكّر بُنّي، وشاي، في مزيجٍ واحد. لا، يارجل. الشاي، الحليب، السكر الأبيض، كل شيء وحده. تظاهرتُ بأني أحد الأقزام السبعة وأني أفعل ما يأمرونني به. ثم سألوا عن دايو، كما توقّعتُ.

حركتُ شايي بملعقتهم الصغيرة، ورشفتُ رشفةً، ثم وضعتُ الكوب، وقلت: "آه، دايو. سافرَ. على السفينة كولومبي".

دُهش ستيفن تماماً، حتى توقّف عن الترجُّح. ثم شرع يبتسم. بدا مثل أبي تماماً.

زوجة ستيفن، الآنسة شيمْلس كريستيان شورتْ دْرَس* نفسُها سألت: "ولماذا سافرَ؟ أبحثاً عن عمل؟".

رفعتُ فنجان الشاي وقلتُ: "ليتابع دراساته العليا".

"ذلك رأيٌ"، قلتُ مستعملاً كلماتٍ التقطتُها من دايو.

إحدى البنات، وهي صغيرة، فاتنة وماكرة، قالت: "وماذا سيدرس؟".

"هندسة الملاحة الجوية".

بدت الصدمة على وجه "ستيفن"، وكدتُ أضحكُ. كلُّهم جُنَّ حسداً الآن. البنات، جميعهنّ، خرجن، ووقفن حولي في غرفة الاستقبال الصغيرة تلك، كأنني البنت السمراء في الحلقة. أنا مكتفٍ برشف الشاي من فنجانهم الصغير. على الجدران كل تلك الرسوم والصور الفوتوغرافية عن مناظر أجنبية، كأنّ عليهم، باعتبارهم مسيحيين، أن يعرفوا تلك الأشياء.

قال ستيفن: "هندسة الملاحة الجوية. خيرٌ له أن يقود سيارة أجرة بين المطار والمدينة". البنات ضحكن. وزوجة ستيفن ابتسمت. ستيفن عاد المازحَ الساخرَ، الرجلَ المسيطر، وهذا خيرٌ لأسرته. صاروا أسعدَ. فكّرتُ أنني لو مكثتُ أكثر فسوف أشرعُ في إهانتهم، وهكذا استأذنتُ وانصرفتُ. سمعتُ إحدى البنات تضحك أثناء انصرافي. لا أقدر أن أخبرك كم كان قلبي مليئاً بالكره.

---

* تلاعب بالألفاظ بقصد الذم. Miss Shameless Christian Short-Dress

في الصباح التالي، استيقظت على الساعة الرابعة، وقلبي لا يزال مليئاً بالكره. ظلَّ الكره يتأكّلني ويتأكّلني حتى انبلاج الصباح، فاستيقظتُ، وظلَّ الكره يتأكلني، طيلة اليوم، وأنا أعمل، أسوق الشاحنة، من حُفر الحصا وإليها.

مع العصر، وقد انتهى العمل، والشاحنة متوقفة أسفل البيت، أخذتُ سيارة أجرة وعدتُ إلى المدينة، إلى منزل ستيفن. لم أعرف ماذا أفعل. نصف الوقت، كنت أفكر بأني سأذهب لأصادقهم ثانيةً، أتلقّى فكاهات ستيفن وأُظهر أنني أضحكُ لها.

لكن ذلك مسلكُ ضعفٍ، وسيكون عملاً أحمقَ خاطئاً، إذ أنك لا تستطيع أن تمزح مع عدوك. عندما تعرف من هو عدوك عليك أن تقتله، قبل أن يقتلك. هكذا، مع نصف دماغي الآخر كنت أفكر بالذهاب إليهم، وتهشيم كل من في المنزل، قاذفاً بكراسي غرفة الاستقبال المصنوعة من الخشب الملْويّ، هذه الناحية أو تلك من الجدران، ومن حسدٍ إلى حسدٍ، في تلك الغرف الصغيرة كلها، في ذلك المشتبَك الملعون كله.

ثم حدث أمرٌ غريب. ربما لأنني استيقظت جدَّ مبكرٍ ذلك الصباح. الإمساكُ الذي عانيتُ منه طوال اليوم توقّف فجأةً، وحين بلغتُ بيت ستيفن كان أول ما أردته المرحاض.

هكذا اندفعتُ داخل البيت. ستيفن يترجّح في الرواق الصغير. لكني لم أقل له شيئاً. لم أقل مساء الخير لزوجته وبناته. ذهبت رأساً إلى مرحاضهم ومكثت مدة طويلة. أسحب السلسلة وأنتظر امتلاء الخزان ثانيةً وأسحبُ السلسلة ثانيةً. ثم أخرج، وأمشي في البيت، أقطعهُ، ولا أقول شيئاً لأحد، ثم أخرج إلى الشارع، فيعود الإحساس إلى ذراعيّ.

لامزيد من الأسلاك الممتدة فيها، وأظل أمشي وأمشي حتى يبرد رأسي، فآخذ سيارة أجرة، وأعود إلى المفترق.

وصباح اليوم التالي أيضاً استيقظُ في الظلام على الساعة الرابعة، لكني خفتُ هذه المرة. شعرت فقط برغبة في البكاء وصلاة المغفرة، وبدأت أشعر أنني أعاني من خللٍ فيّ، وأن حياتي وذهني ليسا بخير. حتى الكره تبدّد في داخلي. لم أعد أشعر بالكره. بدأت أشعر بالضياع. فكّرتُ بدايو، متمدداً على الأرض، مريضاً، في البيت العتيق، وفكرتُ به مسافراً في السفينة كولومبي البيضاء. حتى عندما استيقظتُ صباحاً شعرتُ بالضياع.

أتوقّع العقاب. لا أدري كيف هو آتٍ، لكني انتظره كل يوم. كل يوم أتوقّع أن أسمع من دايو، لكنه لا يكتب. أشعر برغبةٍ في الذهاب إلى بيت ستيفن، الذهاب فقط، والجلوس، وعدم القيام بأي أمر، حتى الكلام. لكني لم أذهب.

ثم وصلت الى ستيفن أنباء عن ولده. وأفادت الأنباء أن ابن ستيفن جُنّ في مونتريال. فالدراسات العليا في مونتريال، وأبوه أيضاً، أكثر مما يتحمل، وهكذا جُنّ في مونتريال، مثل كلاب الشرطة التي تُجنُّ، مثل الحيوانات الأليفة حين تقتلُ رعاتَها. أنباء ستيفن السيئة وصلته الآن! الأمير لن يعود، وفي ذلك البيت الصغير بالمدينة سُحقت العائلة بأكملها، حقاً.

يقول أبي: "كنتُ أقول دائماً إن ستيفن سيتحطم بسبب ذلك الولد".

يشعر بأنه ربح. هو لا يفعل شيئاً. ينتظر فقط ويربح.

لكني أتذكر كرهي الخاص ، الكره الذي أمرضني، وأشعر بالرغبة في أن أقتلهم جميعاً.

الآن أفكرُ بورقة القيقب التي أرسلها إلينا الولد في مظروفٍ بالبريد الجويّ، وبطابع غريب. ماشياً في الشارع مع معطفه ومحفظته، آن كان يتابع دراساته. الشارع مازال هناك، المطر يهطل عليه ألف مرة، الأوراق مازالت على الرصيف جنب السياج الأسود. الآن أشعرُ بأنني أسير بنفسي على ذلك الرصيف بين الأوراق الغريبة، والأزهار العجيبة التي أقتطفُها أحياناً. ولديّ ورقة. وعلى الورقة خطوطٌ مثل كراس تلميذ، ورقمٌ، وفرانك يكتب اسمي بخطِّه في الأعلى على الخط المنقط. لكن ليس لي من أحدٍ أكتبُ إليه وأرسلُ ورقةً أو زهرةً.

الماء أسود، السفينة بيضاء، الأضواء ساطعة. وفي داخل السفينة، في الأسفل العميق، صار الجميع، منذ الآن، مثل السجناء. الأضواء معتمة وكل واحدٍ على فراشه. الماء أزرق في الصباح، لكنك لا تستطيع رؤية الأرض. أنت تمضي فقط حيث تمضي السفينة، لن تكون إنساناً حراً ثانيةً. للسفينة رائحة القيء، رائحة الباب الخلفي لمطعم. السفينة تمضي ليل نهار. البحر والسماء يفقدان لونهما. كل شيء رماديّ.

لا أريد للسفينة أن تتوقف. لا أريد أن أطأ اليابسة ثانيةً. في الفراش تحتي بائع مجوهرات اسمه خان أو محمد. وهو يعتمر قبعة طوال الوقت ، وتظنه يعتمرها بغية المزاح. لكنه لا يضحك. وجهُه صغير، وهو يتحدث منذ الآن عن العودة. أنا لا أستطيع العودة. عليّ البقاء. لا أعرف كيف أوقعتُ نفسي في المصيدة.

اليابسة تقترب، وفي صباحٍ، خلل المطر، تراها، بيضاء أكثر منها خضراء لا ألوان هناك. السفينة تتوقف فجأةً، هادئةً جداً، وفي الأسفل، في الماء زورقٌ ورجالٌ يرتدون المشمَّع. أنت تراهم يتحركون لكنك لا تسمعهم وبعد كل أيام البحر، يكون كل شيء في ذلك الزورق الصغير وحوله زاهياً، كأن صورةً بالأبيض والأسود تحوّلت بغتةً إلى صورةٍ بالألوان.

الماء المتلاطم عميقٌ أخضر، وأردية المشمّع فاقعة الصفرة، ووجوه الناس ورديةٌ جداً.

أرض الأسرار أرضُهم. وأنت هو الغريب. لا منزل من هذه المنازل تحت المطر، هو لك. غير قادرأنت على رؤية نفسك ماشياً في هذه الشوارع الممهّدة باستواء تام على ذلك السفح. لكن عليك أن تذهب إلى هذا المكان، وما إن نزل الجميع في الزورق مع أمتعتهم حتى أطلقت السفينة صفارتها. إنها بيضاء كبيرة آمنة، وهي تقول الوداع متعجّلةً كي تبتعد وتخلفك وراءها. انتهت الألوان، تغيرت الصورة. ليس سوى الضجيج والتزاحم والأمتعة، قطار وسيارات. ها هو ذا الأمر، ومنذ الآن صرتَ مثل امرىء معصوب العينين.

أقول لنفسي إنني جئت إلى انجلترا لأكون مع دايو وأرعاه وأعتني به بينما يتابع هو دراسته. لكني لم أر دايو في المرسى ولم أره في محطة القطار.

تركني وحدي. فعلتُ ما رأيت الآخرين يفعلونه، ودبَّرتُ أمري. حصلت على عمل، وعلى سكنٍ في بادنجتون. تعلمت أرقام الحافلات

وأسماء الساحات والأماكن، وتابعتُ الموسم يتبدل من بارد إلى دافيء.
أعتقدُ أني في خير حال، ربما أشعر أن هذه الحياة ليست حياتي. أشعر كأنني على سفينة، أفقد هذا، وأرمي ذاك.

بعد كل أسابيع الانتظار والتخمين، كتب إليّ دايو. حاول أن يلومني، وذكر أنه أرسل رسالة إلى البلد كي يستدل على عنواني. هو في بلدة أخرى. لم يكتب شيئاً عن هندسة الملاحة الجوية، لكنه قال إنه انتهى للتوّ من فصل دراسات معينة، وأنه حصل على شهادة، وهو الآن بحاجة إلى مساعدة كي ينتقل إلى لندن ليتابع المزيد من الدراسات.

أخذتُ إجازة يوم من معمل السجائر وسحبت بضعة باوندات من دائرة البريد وصعدتُ بالقطار إلى البلدة التي يقيم فيها. الحال الآن على هذا المنوال. أنت دائماً تأخذ قطارات وحافلات إلى أماكن غريبة. لا تدري أي شارع ستجد نفسك فيه، وأي منزل ستدقّ بابه.

الشارعُ مُحْكَم ذو بيوت صغيرة رمادية مبنية بالطابوق. على مبعدة خطوات قليلة فقط من بوابة المنزل إلى الباب، جُنَّ الرجل الذي فتح الباب لمجرد سماعه اسمي. هو رجلٌ شيخٌ ضئيل، رقبته مرتخية جداً داخل ياقته، ولهجتُه صعبةٌ عليّ. لكني فهمت أن دايو مدينٌ له باثني عشر باونداً من الإيجار، وأن دايو هرب ولم يدفع، وأنه لن يسلِّم محفظة دايو حتى يسلم نقوده.

بدأت أكره الرجل الضئيل وبيته المتعفن. القذارة متبدية على الحيطان، وعندما رأيت المكعب الصغير المؤجَّر بثلاثة باوندات أسبوعياً، كان عليَّ أن أضبط نفسي. عليك دائماً أن تضبط نفسك هنا، مقابل ما لا أعرفه. في المكعب رأيت محفظة دايو مع ملصق السفينة كولومبي. دفعتُ وأخذت

المحفظة رأساً. لا أعرف مظانَّ دايو في هذه البلدة، وأين اختبأ طيلة الأسابيع الأربعة الأخيرة. لكني حملت المحفظة الثقيلة مثل أحمق، وكمن نزل من السفينة للتو، صرتُ أمشي في الشوارع جيئة وذهاباً، وأتطلّع.

حتى في عودتي إلى محطة القطار لم أستطع أن أقرر المغادرة. غرفة الانتظار فارغة، والمقاعد مبضَّعة بالُمدى، حتى لكأنك تصرُّ على أسنانك. حاولت التفكير بكل الأيام التي أمضاها دايو وحيداً في هذه البلدة، وكل الأوقات التي رأى فيها أيضاً النهار يتحول إلى مساء دون أن يعرف إلى من يلتجئ. وبينما كان القطار يعيدني إلى لندن، كرهتُ كل ما رأيت، المخازن، والسيارات، كل أولئك الناس المستقرين، كل أولئك الأطفال الذين يلعبون ألعابهم في الحقول.

في المحطة انتظرت ثانية، وأخذتُ حافلةً، ثم أخرى. وفجأةً، أمام بيتي و أنا أستدير نحو الركن، مع المحفظة الثقيلة، رأيت دايو مرتدياً البدلة التي كان يرتديها حين صعد إلى السفينة كولومبي.

بدا كمن ينتظر طويلاً، وكمن نسي ماذا ينتظر. إنه ليس نحيفاً، بل هو ممتلئ قليلاً. ما أن رآني حتى تملكه الحزن وتحدَّرت دموعي. وعندما نزلنا إلى القبو تعانقنا وجلسنا على السرير-الأريكة. خجلتُ أن ألحظ ذلك، لكنه منتن الرائحة، قذر الثياب.

وضع رأسه في حضني فربّتُّ عليه مثل طفل، مفكراً بكل تلك الأيام التي أمضاها وحيداً بدوني. ضرب رأسه على ركبتي وقال: "ليست عندي ثقة، يا أخي. لقد فقدتُ الثقة". نظرتُ إلى شعره الطويل الذي لم يمسسه حلّاق منذ أسابيع، ورأيت باطن ياقته الوسخة. رأيت حذاءه الوسخ، بينما ظل يكرر: "ليست عندي ثقة. لقد فقدتُ الثقة".

تبخرت كل الأشيـاء السيئة التي أردت قولها له. جعلت أهدهده في حضني حتى انتبهت إلى نفسي، ورأيت الدنيا أظلمتْ، ومصباح الشارع في الخارج. لم أرد أن يفعل أي فعل طائش بسبب كبريائه الزائفة. أردت أن أمنحه مخرجاً. سألتُه: "ألا تريد الاستمرار في دراستك؟". لم يُجب. انتحبَ فقط. أعدتُ سؤالي: "ألا تريد الاستمرار في دراستك؟". رفع رأسه وتمخَّطَ وقال: "صحيحٌ يا أخي. أنا أحب الدراسة". بوسعي القول أنه أسعدُ، وإنه كان قلقاً قليلاً ووحيداً ويائساً، لكن كل شيء سيتحسَّن.

في المطبخ، وما إن أشعلت ُالضوء حتى تفرقت الصراصير في كل مكان، على الطبّاخ القذر العتيق، والمقلاة، والقدر. جئت بخبز وحليب وعلبة سردين نيو برونزويك.

البدر يتبدَّى في السماء. والمرأة العجوز في الطابق الأعلى تفعل ما اعتادته حين يكون القمر بدراً، تصيح وتتخاصم مع زوجها، صارخةً شاتمةً، حتى يطرد أحدهما الآخر من البيت ويغلق الباب وراءه.

أُوقدُ ناراً صغيرة، مؤرِّث نار وورق صحف أكثر من الفحم. ونجلس أنا ودايو نأكل. لكن دايو سيذهب غداً إلى الحمامات العامة، ستة بنسات مع المنشفة القديمة الناعمة. أمست الغرفة دافئة مع النار الصغيرة. وجفّت الرطوبة قليلاً. الفأر اشتمَّ رائحة الطعام منذ الآن. أسمعُه يخمش الصندوق الذي وضعتُه على الجُحر. العيش في هذا القبو كالسكن في مخيم. بعد قليل من سكني هنا، وضعتُ، على سبيل المزاح، مرآةً نسائية صغيرة وسط الحائط تماماً فوق المدفأة. واليوم، يُعجَب دايو هنا بهذه المزحة.

سحبنا جزء الفراش، من الأريكة-الفراش، ورتّبناه. بل لقد نسيت رائحة الفأر الميت والوسخ القديم والغاز والعفونة. في الطابق الأعلى أغلقت المرأة على زوجها في الخارج. وعندما أستيقظ ليلاً، فبسبب الزوج صائحاً من الرصيف أو ضارباً الباب. في الصباح كل شيء هادئ. لقد مرَّ الجنون الشهريّ.

هكذا، فجأة، مضى الأسى والخوف، وحلَّ الوقت السعيد. حلَّ الوقت السعيد، ولم ينصرم، وبدأتُ أنسى. ستيفن وعائلته، أبي وأمي، قصب السكر والوحل والمنزل المتعفن للرجل الغنيّ، كل هذا نسيتُه. إنه لَبعيدٌ، مثل حياة أخرى، لم يمسَّني شيءٌ من هذا ثانيةً. وفي ذلك القبو، مع المرأة العجوز المجنونة في الطابق الأعلى، أشعرُ، مع مرور شهور لندن، أنني أستردُّ حياتي، أعيش مع دايو وحده، ولا أعرف أحداً سواه.

أصلحتُ غرفة النوم الخلفية الصغيرة، لدايو، فوضعتُ فيها مصباح قراءة، وكل شيء، وبدأ يتابع دراسات منتظمة. استعاد ثقته، وبدا أن ما قاله صحيح، من أنه يود الدراسة، ذلك لأنه ما يكاد ينتهي من شهادة حتى يشرع في أخرى. وبالملابس الجديدة التي اشتريتُها له صار ذا منظر لطيف، بل صار جميلاً. واصلَ تحسين طريقته في الحديث، حتى صرتُ أراه ممتازاً، مثل أي مهنيّ. أنا أُقِرُّ بجهلي ولا أتدخل في شؤون دراساته. تركته يمضي حسب هواه، والوقت يمضي كما يشاء. لا أريد له أن يقع في متاعب، من جديد يكفيني أنه هنا.

بوسعك القول أنني بدأت أحب حياة المدينة الكبرى. في البلد حيث يعاملك الناس بخشونة كأن العمل جريمة وعقاب، فضّلتُ أن أكون سيِّد

نفسي. لكني هنا بدأت أحب المعمل. لا أحد يراقبك. أنت لاتحط ّمن شأن أحد. لا أحد يهزأ بك.

أحب رائحة التبغ النفّاذة، وصرتُ أحب الماكنة التي أُديرُها، السجائر تخرج في قطعة طويلة، طويلة جداً وقوية حتى ليمكنك القفز بها. لم أتصورّ، بتاتاً، أن العمل يمكن أن يكون هكذا، يمكن أن يجعلني في منتهى الراحة بحيث أفكر أن المعمل هناك، دوماً، وأن بمقدوري دوماً الذهاب إليه، في الصباح.

كل جمعة يعطونك مائة سيجارة مجاناً. هذه السجائر لها علامةٌ بحرية خاصة، لكن الباكستانيين لا يحبِّذون ذلك دائماً. مرةً أخذ رجلٌ أبيض يغادر المعمل، مثل راعي بقر عالي الكعبين. عندما أوقفوه رأوا حذاءيه محشوين بالتبغ. أشياء كهذه تحدث على الدوام. المعمل مثل المدرسة، لا تحبُّها أول الأمر، ثم تحبها أكثر فأكثر.

لاجرٌ وعَرٌ مع الشاحنة. لا أحد يهينك. وأنت تتسلم نقودك في مظروفٍ بُنيّ صغير، كأنك موظّفٌ أو مهنيّ. عملٌ منتظم، نقودٌ منتظمة.

بعد بضعة أشهر وفّيتُ دَين المُرابي في البلد، وبعد ذلك بدأت حتى التوفير قليلاً لنفسي. أنا لا أحتفظ بهذا القليل في المسكن كما كان يفعل أبي بفلوسه القليلة المبلغ يذهب رأساً إلى دائرة البريد، فلديّ دفتر توفيري الصغير. في أحد الأيام وجدت أن لديّ مائة باوند. لي، وليست مستدانة. مائة باوند. شعرتُ بالأمان. لن تتصورّ كم كنت أشعر بالأمان. كلما فكرتُ بذلك أغمضتُ عينيّ ووضعتُ يدي على قلبي.

هكذا الأمور، حين تكون بالغ السعادة. أنت تنسى الكثير. هذه الباوندات المائة أنستْني نفسي. ألهمتني أفكاراً. جعلتني أنسى سبب

وجودي في لندن. أريد الآن أن أشعر أكثر من آمِن. أريد لهذه النقود أن تزداد، أريد أن أرى الموظفين يكتبون في دفتري بخطوطهم المختلفة كل أسبوع. صار هذا مثل جنون. أعرفُ أنه حماقةٌ ولم أُخبر دايو. لكني في الوقت نفسه أستمتع بالسر. ولأني أردت للنقود أن تزداد أسبوعاً بعد أسبوع، اشتغلتُ في عملٍ ثانٍ. بحثتُ حولي فحصلتُ على عمل ليليّ في مطبخ مطعم.

هكذا بدأتُ أصعقُ نفسي بالعمل، وصارت حياتي عملاً واحداً طويلاً. أستيقظُ في حوالي السادسة. وفي السابعة، ودايو لا يزال نائماً، أغادرُ إلى معمل السجائر. أعود في حوالي السادسة إلى القبو، أحياناً دايو هناك، أحياناً دايو ليس هناك. في الساعة الثامنة أغادرُ إلى المطعم، وأعود حوالي منتصف الليل أو أكثر. لندن بالنسبة لي هي ركوب الحافلة، الصباح، المساء، الليل، المعمل، مطبخ المطعم، القبو. أعلمُ أن هذا كثير، لكنه جزءٌ من الابتهاج. كما لو كنتَ مريضاً نحيفاً، وتريد أن تغدو أنحف فأنحف، لتعرف فقط كم أنت قادرٌ على إنحاف نفسك. أو مثل الناس السمينين الذين لا يحبون سمنتهم لكنهم يريدون أن يعرفوا أي سمنةٍ يستطيعون الوصول إليها: هم ينظرون دائماً إلى ظلهم، وهذا يعتبر هوايتهم السرية. وهكذا، أنا الآن متعبٌ حين أذهب لأنام، ومتعبٌ في الصباح، لكني أحب التعب وأستمتعُ به. إنه مثل السر أيضاً، مثل النقود وهي تزداد خمسين، ستين باونداً في الشهر. والتعب يزول دائماً في الضحى. الصباح، لكني أحب التعب وأستمتعُ به. إنه مثل السر أيضاً، مثل النقود وهي تزداد خمسين، ستين باونداً في الشهر. والتعب يزول دائماً في الضحى.

أعتقد أن دايو سيهزأ بي لو عرف ما يشغلني. هو لا يقول شيئاً، لكني أعرفُ أنه باعتباره طالباً في لندن لا يستطيع أن يتفهَّم حقاً أنّ له أخاً يعمل في مطبخ مطعم لكن مع مَرِّ الشهور، مع مُضيّ عام، فعامين، مع انتظام الحياة، وازدياد النقود، وجدت النقود تمنحني قوةً، تجعلني قوياً. ولأن النقود جعلتني قوياً صار بإمكاني التعامل مع أي شيء. لا يهمني قول الناس ولا رأيُهم فيّ. حين كنت خالي الوفاض كنت أكره القبو، وأحلم أحلام يقظة بشراء ملابس جميلة ليس لدايو فقط وإنما لي أيضاً. أما الآن فملابسي لا تهمني، بل صرتُ سعيداً لأن من يراني بملابس العمل في الشارع، خارجاً من القبو، لن يصدق أني أملك ألف باوند في دائرة البريد، ١٢٠٠باوند، ١٥٠٠باوند.

لا أكاد أصدِّق ما أنا فيه. الحياة في لندن! هذا ما كان يقوله الناس في البلد كنايةً عن أن كل شيء حسن. أنا لم أبحث عنها. وليست ما جئتُ من أجله. لكني أشعر بأن تلك الحياة آتيةٌ الآن، وإن كنت أخشى شيئاً فهو أن قوّتي قد تخونني، وأن دايو سيكمل دراسته، ويتركني وحيداً في القبو، وأن الحياة سوف تنتهي.

هذا حقٌ. كان وقتاً سعيداً، آنَ دايو يعيش في قبوي، وأنا أشتغل مثل امرئ معصوب العينين، حين كان لديّ المعمل كل صباح، والمطعم كل مساء، حين كنت أستطيع التمتع بيوم الأحد كما لم أستطع البتة من قبل. أحياناً أفكرُ باليوم الأول، وأولئك الرجال ذوي المشمّع الأصفر في الماء الأخضر العميق صباحاً. لكن ذلك صار لديّ ذكرى من مكانٍ ما. مثل شيءٍ أختلقُه.

جنون! كيف بإمكان امرئ أن يخدع نفسه هكذا؟ انظر إلى هذه الشوارع الآن. انظر إلى هذه الأشياء والناس الذين لم أرهم بتاتاً. إن لهم حياتهم أيضاً، المدينة مدينتهم. لا أعرف أين ظننتُ نفسي، أتصرّف كأن المدينة مدينة أشباح، تعمل تلقائياً، وأنها شيء أكتشفُه بنفسي. لن يفهم فرانك أبداً. هو لن يرى المدينة التي أراها. هو لن يفهم كيف أعمل بتلك الطريقة.

فقط يحثني ويحرّضني ضد مراقبي العمل الذين يهينونني في المعمل، ضد أناسٍ تشاجروامعي في المطعم. هو يقلقني دائماً بتحقيقاته عن التمييز. هو صديقي. صديقي الوحيد. وحدي أنا أعرف كم ساعدني، ومن أي مَبعدةٍ جاء بي. لكنه يدقُّ عليَّ طيلة الوقت لأنه يفضل رؤيتي ضعيفاً. يحب أن يفتح بلاليع لأسقط فيها. هو متلهفٌ لدفعي هناك في الظلام.

موقفُه، في المقهى، ثم في موقف الحافلة، ثم داخل الحافلة هو: ابتعدوا، هذا الرجل ضعيف، هذا الرجل تحت حمايتي. حين يكون هكذا، يتمتع بسلطةٍ تستنزفُ كل قوّتي، هو، بحذائه اللامع، وسترته التويد الجيدة. كأنني لا أستطيع في أحد الأيام أن أدخل مخزناً وأشتري اثنتي عشرة سترة تويد، وأدفع ثمنها نقداً.

أما الآن، فقد حال الحال، ومال المال، وليست لديّ سوى هذه البدلة، منتنة الرائحة. في البلد، في البلد، النوافذ مفتوحةٌ دوماً، وكل شيء يغدو نظيفاً في الهواء الطلق. هنا، كل شيء مغلقٌ عليه. حتى في الحافلة لا تهبّ نسمة.

في مكانٍ ما من المدينة، يتزوج دايو اليوم. ولست أعرف أين يظن نفسه.

أنا أعمل وأعملُ وأوفر وأوفر والمال يزداد ويزداد، وحين يصل إلى ألفي باوند أُصعَق. لا أشعر أن بمقدوري الإستمرار. أعرفُ أن على الحياة أن تتوقف أحياناً، وأنني لن أستطيع المضيّ مع عملين، وأن أمراً سيحدث لا محالة. والآن أرى فكرة العمل وتوفير ألفٍ أخرى عسيرةً عليّ. هكذا توقفت عن العمل تماماً. تركتُ معمل السجائر، تركت المطعم. سحبت باونداتي الألفين من دائرة البريد وقررتُ استعمالها.

جهلٌ، جنون. إنه الجنون الذي يأتي به المال نفسه. المال جعلني أشعر بالقوّة. المال جعلني أشعر أن المال سهل. المال جعلني أنسى كم هو صعبٌ جمعُ المال، وأنني أمضيت أكثر من أربع سنين لأوفر ما لديّ. مابين يديّ من مالٍ، ألفا باوند، أنساني أن أبي لم يحصل على أكثر من عشرة باوندات شهرياً من عمله على عربة الحمار، وأنه ربّانا جميعاً على تلك الباوندات العشرة في الشهر، وأنه ١٠x ١٢=١٢٠، أي أن لديّ مالاً هو كل أجرة أبي لخمس عشرة سنة أو ست عشرة. المال جعلني أشعر أن لندن ملكي.

قلتُ أسحبُ المال، وأفعلُ به ما رأيت الناس يفعلونه في البلد. أشتري تجارةً. الجنون ينتابني. جنون المال. أنا لا أعرف لندن. ولا أعرف شيئاً عن التجارة. لكن سأشتري تجارة. وفي رأيي أنني أعدُّ وأحسِبُ حسابات أولئك الناس في البلد الذين يشترون شاحنة يعملون عليها ثم يشترون شاحنةً أخرى فأخرى.

التجارة التي كانت في ذهني، هي دكانٌ صغير لبيع أطعمة الكاري والخبز. ليس مطعماً، بل هو أقرب إلى البسطة أو الكشك الذي تراه قرب ميدان السباق، حوضان أو ثلاثة للكاري على هذا الجانب من

النُّضد، كومة صغيرة من الخبز أو أرغفة الجاباتي على ذلك الجانب. نسوةٌ كثيرات في البلد وُفِّقنَ في هذا. وافتني الفكرة هكذا، ذات يوم، عندما كنت لا أزال في معمل السجائر، ولم تفارقني بتاتاً. ولأن الفكرة أتت هكذا، كأن أحداً قدَّمها لي، شعرتُ بأنها فكرة سليمة. دايو لم يكن مهتماً بها. تكلَّم طويلاً بطريقته التي تجعلك تخمِّن وتخمِّن ولا تتوصل إلى شيء. لست أدري إن كان يخجل من الأمر، أو يرى فكرة دكان الروتي في لندن مضحكةً جداً تُذكِّر بالبلد وبالأشياء البسيطة. تركتُه يتكلم.

الصدمة الأولى التي تلقيتُها كانت غلاء الأملاك. لكني لم أخفْ فأتوقف. لا. الجنون مستحوذٌ عليّ، ولا أستطيع التراجع. تصرَّفتُ كأني أريد اللحاق بقطارٍ و كأنني أريد أن أنفق أموالي أولاً. الأمر الغريب، هو ما أن ذهب المالُ الأول لاستئجار المكان الصغير التعيس عدة سنوات، في ذلك الشارع الحقير، حتى عرفت أن ما فعلته حماقة، وأن كل مالي قد ذهب، وأنني خالي الوفاض. شعرت بالتجارة تبور منذ الآن. شعرتُ بأني أنزفُ، وأنني مثل ذاك الذي لا يعرف إلا تثبيط همته هو.

وهكذا، فقط خلال أربعة أسابيع أو خمسة تبدَّل العالمُ كله أمامي ثانيةً. لم أعد قوياً وغنياً، غير مهتم بما يقوله الناس ويظنونه. الآن، فجأةً، أنا متشرد، منزعج من رثاثتي، وبدأتُ آسفُ على الأشياء الصغيرة التي حرمتُ نفسي منها، مثل سترات التويد ذات الإثني عشر باونداً، التي لا أستطيع شراءها الآن، بعد أن دفعتُ للمصممين، والكهربائيين، وشركة تجهيز الأغذية.

ثم دخلت في متاعب الأنظمة والقوانين. بمقدورك في البلد أن تضع طاولة خارج بيتك، أي وقت، وتبيع ما تشاء. أمّا هنا فلديهم أنظمتهم. هؤلاء الناس الشكّاكون ذوو ستر التويد وسراويل الفلانيل، بعضهم شبّان،

شبّان صغار، يدورون حولك مع استماراتهم ويضغطون عليّ من كل جانب. هم لا يتركونني أتمتع بلحظة اطمئنان. هم ممتلئون بالملاحظات، وهم لا يبتسمون. هم غير راضين عمّا أفعل. وعليّ أن أتجهّز وأطبخ وأنظّف، والحيّ ليس جيداً، والتجارة بائرة، لن ينفع فيها عملٌ زائدٌ أو استيقاظٌ مبكرٌ.

أريد أن أنتحر. القليل من الشجاعة المتبقّي تبدّد، والوهم السري الذي كان يراودني حول شراء لندن، الحماقة التي كنت أعرفها أنها حماقة، انفجرَ. فبدون الألفي باوند في دائرة البريد، وبدون المال نقداً، صرتُ بلا قوّة، مثل شمشون بلا شَعره.

بعد أن ينصرف الرجال ذوو سراويل الفلانيل، يأتي أوباشُ الانجليز الشباب. لا أدري ما الذي جذبهم إلى المكان، ولماذا استهدفوني. نصفَ الوقت لا أستطيع أن أفهم ما يقولون، لكنهم ليسوا أناساً يمكنك التفاهم معهم إطلاقاً. هم يرتدون ملابسهم فقط ويجيئون لإثارة المتاعب. أحياناً يأكلون ولا يدفعون أحياناً يكسرون الكؤوس والصحون ويلوون الملاعق والشوكات وما إليها. صار الأمر هوايتهم. هم كثيرون ضدي أنا الوحيد. تلك هي شجاعتهم وتربيتهم. لا أحد بجانبي. سابقاً، أيام الكدح في عملين، أيام المال، لم يكن هذا الأمر ليزعجني. أما الآن فكل شيء يؤلم. لا أستطيع أن أتحمل الطريقة التي يتكلم بها هؤلاء الأوباش أو يضحكون أو يلبسون، وأحسّ بقلبي يمتلئ كرهاً ثانيةً، مثل ما كان إزاء ستيفن وعائلته، ذلك الكره الذي أمرضني.

كان على دايو أن يساعدني. هو أخي. هو من جمعتُ المال لأجله. هو من ركبتُ البحر له. لكنه الآن يتركني وحيداً. هو يسكن معي في القبو، ولا نزال نأكل سويةً في الآحاد أحياناً. لكن موقعه هو أن ما

أفعله من شأني أنا وحدي، وأن لديه هو ما يفعله. هو يتابع سبيله، ويتابع دراسته، أو يفعل ما يفعل. أحياناً أرى الضوء في غرفته حين أعود. أحياناً يدخل متسللاً في ما بعد. ودائماً في الصباح أتركُه نائماً. إنه هناك. لا يمكنك أن تنساه. ثم بدأ قلبي ينبض ضدّه أيضاً.

أخذتُ أكره طريقته في الكلام. بدأتُ أنظر إليه. يوماً ما، كان الفتى الجميل، يستعمل مقوي الشعر الفازلين ويمشط شعره مثل فيرلي غرينجر. الآن ترى وجهه وقد أصبح وجه عاملٍ، حتى بدون تلك الحدَّة التي اكتسبها وجه أبي من العمل والشمس. وعندما يشرع يتحدث بطريقته تلك- وبمقدوره أن يبدأ حديثاً عن أي شيء- يجعلني أشعر بأن فيه خطأ ما، وأن شخصاً يستعمل الكلمات بتلك الطريقة، ليس أمراً صالحاً. لا تزال لديه لهجتُه، لكنه مثل من لا يسيطر على كلامه، كأنها المرة الأولى التي يتكلم فيها ذلك اليوم، وكأنه لم يجد في لندن من يتحدث إليه.

وهكذا، بدأتُ أقلقُ على دايو، هذه الأيام. إن دكان الروتي ظلَّ هناك مَدْعاة قلقٍ، لكنه الآن في الماضي. لقد كدحتُ، أضعتُ مالي، ومكافأتي. لا أستطيع البدء من جديد. لا أستطيع العودة إلى معمل السجائر، وإلى أولئك الفتيات الأميات اللواتي يُهنّني، وإلى رحلة الحافلة الطويلة في الصباح البارد إلى المعمل. انتهى هذا. الآن أركز على دايو، أخي. أراقب وجهه، أراقب طريقته في المشي، طريقته في الحلاقة. إنه لا يفهم. هو فقط يتكلم بطريقته الأنثوية. لا أقول له شيئاً. بل لا أعرف بماذا أفكر. أنا مكتفٍ بالنظر إليه ودراسته.

استيقظت ذات صباحٍ، مبكراً، وقد احتلمتُ. هذا ثاني احتلامٍ لي. الأول حين كنت صبياً. الاحتلام يتركني منهكاً قذراً مخزيّاً. أريد الذهاب

إلى دايو وأتوسل إليـه طالباً الصفح، لأن ما حدث لي للتوّ كان أمراً لم أفكر به البتـة، من أجله. أشعر بأني تخليتُ عنه، وأني خنتُه في قلبي، والآن أريد أن أذهب إليـه لنتحدث معاً، مثل سالف الأيام. أشعر بأن عليّ أن أبيّن له أني أحبه دائماً.

أدخلُ في غرفتـه الصغيرة في الخلف، ضوء الباحة الخلفية المبكر يبدو عبر الستائر الخفيفة، وأنظر إلى الفتى ذي وجه العامل ينام على سرير الحديد الضيق. على المنضدة التي غطيتُها بمشمَّع أحمر مصباحُ القراءة الذي ثبَّتُّه لدراستـه، وكتبه الضخمة، والكتب الأخريت ذات الأغلفة الورقية التي يقرؤها للراحة، أحياناً، ومذياع الترانسستور الصغير الذي طلب مني أن أشتريه له كي يستمع إلى موسيقى البوب.

وجه عامل. لكن حزن الوجه النائم أصابني، وضيق الغرفة، والجدار الإسمنتي خارج النافذة، والباحة التي لا تصلها شمس. وأتساءل عن المصير، عمّا سيحلّ به وبي، وهل سيركب السفينة يوماً وينزل منها في صباحٍ ساطعٍ ويأخذ سيارة أجرى إلى المفترق، ويمضي في أماكن يعرفها.

لاحظتُ الصحن الذي يستعمله كمنفضة، والسجائر الغالية. لاحظت قذارة أظافره ويديه، والسمنة في أعلى ذراعيه. كانت ذراعاه في منتهى القوة يوماً ما. كان، حينها، يمشي مشية لطيفةً، مثل فوندا كما كنت أرى. أنا واقفٌ أرقبُه في الغرفة الباردة. يتحرك ويستدير، ويفتح عينيه، ويميّزني. يرتعب. يثب. وكم كانت قذرةً الأغطية التي ينام فيها.

كم كانت قذرة.

يقول: "ماذا حدث؟".

يتكلم بلا لهجة. ينظر إليّ كأني دخلتُ الغرفة لأقتله. لم يزد في القول، فقدَ ، فجأةً، طريقته في الكلام. وجهُ العامل.

أسىً، لكنه أساي. يتخلل جسمي مثل سائل.

أقول: "أي نوع من الدراسات تُتابع، يا دايو؟".

فارقَ الخوفُ وجهه. حاول أن يغضب. حاول. قال: "هل نصَّبكَ أحدٌ شرطياً، أم ماذا؟". الآن لا يتكلم بلهجته، لا يمضي ويمضي في الكلام. لقد عاد طفلاً، عاد إلى البلد.

قلت: "فقط، أردت التحدث معك. تعرف أني مشغول بالدكان. ولقد مرَّ زمنٌ طويل، ولم نتحدث جدِّياً".

قال وقد عاد إلى لهجته: "حسناً، مادمتَ سألتَ، ولك كل الحق في السؤال، سأخبرك. ليس سهلاً في هذه البلاد أن تتابع دراسات، كما تظن، ويظن الآخرون. أناسٌ كثار يجيئون إلى هنا، مع مشاريعهم الخاصة، ويعتقدون أنهم سيشرعون يتابعون دراسات-".

كان عليّ أن أوقفه: "ماذا تتابع أنت؟".

"أنا أهيِّئ نفسي للعالم الحديث. أنا آخذ دروساً في برمجة الحاسوب، إن أردت أن تعرف بـ-ر-مـ-جـ-ـة الـ-حـ-ا-سـ-و-ب.

أظن هذا سيحظى بموافقتك ورضاك".

تناولتُ علبة السجائر من الطاولة. قلت: "غالية".

قال، بلهجته: "أنا أدخن سجائر جيدة".

وجه العامل. نفاق العامل. شعرت بأنني سأضربه لو بقيت في الغرفة. مع هذا، ذهبت إلى غرفته حبّاً وخجلاً واختزاءً.

ظل الإختزاء يلازمني نهاري. ومساءً، بعد وقت سيّء في الدكان، متاعب مع أولئك البيض الأوباش، أحسستُ أن في ذراعيَّ أسلاكاً. عدت بحافلة الليل. عندما نزلت من الحافلة بدأ كلبُ أسود مطوّق الرقبة

يتبعني. مصابيح الشارع تشعّ على الأشجار، تلك الأشجار ذات اللحاء المتقشر الذي يشبه إلى حدٍ ما لحاء أشجار الجوافة في بلدنا. الأرصفة مبتلة، وآثار أقدام في الوحل الأسود الخفيف. الكلب يظل ينظر إليّ، ويهزّ ذيله، وما أن أمشي حتى يتبعني ثانيةً، جدًّ قريب، كأنه يريد أن يشعر بي طيلة الوقت.

يظل يتبعني ويتبعني، حتى عبر براميل القمامة وإلى القبو. وتحسب أنه سينتبه إلى غلطته. لا. لقد مرق إلى الداخل بمجرد فتحي الباب، وشرع يجري هنا وهناك في الصالة، سعيداً، يهزّ ذيله، مخلّفاً آثار أطرافه على كل مكان.

بحثتُ عن دايو في غرفته، والكلب بحث أيضاً. حين أشعلت الضوء لم أر سوى الفراش القذر، والملاءة ملمومة في الوسط، الملاءة والوسادة بُزّيقان من الوسخ، والصحن مليء بأعقاب السجائر. آه، يا إلهي. جائعٌ أنا، لكني لا أستطيع أن أترك المكان وأذهب إلى السوق. لا أستطيع مواجهة ذلك الآن، أشعرُ أن عليّ تسوية هذا الأمر أولاً. انتظرت وانتظرت في الركن، بلا سبب أعرفُه. لا أعرف ماذا أريد أن أفعل. إلى أن رأيت دايو يخرج، مرتدياً بدلته، مع كتبه.

أنا أعرفُ موقف الحافلة الذي يقصده. استدرت يساراً ومشيت إلى الموقف الأسبق. وصلت الحافلة، صعدتُ ووجدت مقعداً جهة اليمين. في الموقف التالي كان دايو ينتظر. من المضحك مراقبته هكذا، كأنه غريب، وهو لا يعرف أنك تراقبه. بإمكانك رؤية أنه اكتفى بإلقاء شيء من البارد على وجهه هذا الصباح، وأن قميصه قذر، وأنه يهمل حاله. صعد، ثم ارتقى السلّم. إنه يدخن سجائر جيدة.

نزل في أكسفورد سيركس. وعند إشارة المرور نزلت، وتبعتُه في شارع أكسفورد، بين الجموع. في نهاية أكسفورد ستريت اشترى صحيفة ودخل في أحد محلات ليونز. انتظرتُ طويلاً. الوقت تأخَّر الآن، ومضى من الصباح نصفه. تبعتُه إلى شارع رَسِّل الكبير، الآن أراه يتسكع، ينظر إلى واجهة مخزن أغذية هندي. لوحات الإعلانات خارج محل بيع الصحف تعرض صحفاً أجنبية. يقطع الطريق لينظر إلى الكتب المتربة خارج المكتبة. أفارقةٌ كثيرون يتحركون هنا، مع سترة ورباط عنق ومحفظة. لستُ أدري أي نفعٍ يرجون من دراساتهم هنا.

لا مزيد من المخازن. فقط السياج الحديد الأسود جنب الرصيف، ثم استدار دايو إلى الساحة المفتوحة الواسعة للمتحف البريطاني. ثمت سواحٌ أجانب كثيرون يرتدون ملابس سياحية خفيفة. المكان مثل مدينة مختلفة، وهو مثل شخص بين السوّاح: أراقبه يرتقي الدرجات العريضة مع كتبه وبدلته. لكن هؤلاء الناس يأتون ليومهم، وهم سعداء، لديهم حافلات تعود بهم إلى فنادقهم، وبلدانٌ يرجعون إليها، ولديهم بيوت. انقبض قلبي حزناً.

هو يدخل. أعرفُ أني لن أرى المزيد، لكني قررت الانتظار. أتفرجَ على السّواح وأتمشى. أمضي نحو البوابة، والساحة، وأخرج إلى الشارع تحت الأشجار. مرةً عدتُ ماشياً حتى توتنهام كورت رود تقريباً. المطعم الهندي ساخنٌ ذو رائحة. ذكّرني بدكاني، وكيف ورّطتُ نفسي وبدّدت حياتي هناك. إنه وقت الغداء. لقد نسيت. أركض عائداً إلى المتحف، وأرتقي الدرجات مسرعاً بين السوّاح الغادين والرائحين وكدت أدخل الباب. لكني رأيته في الخارج، في البوابة، جالساً على مصطبة خشب، يدخن.

لا يزال يحمل الكتب، وهو يجلس على راحته. اندفع الكره إلى قلبي، أردت أن أعاقبه علناً، أردت أن أعمل فضيحةً مكشوفة، أمام أنظار الجميع. لكني لمحت وجهه، فوقفت خلف عمود ، أتملاه.

ليس الأمر الحزن البادي على الوجه فقط. ليس الأمر طريقته في التدخين فقط، بأن يترك السيجارة تتدلى من فمه مثل امرئ غير مكترث. إنه لا يتكسَّل في جلسته ادِّعاءً. إنه مثل رجلٍ كسيرِ الظَّهر حقاً. وجهُه وجهُ صبيٍّ متعب أحمق. وجه شخص ضائع. إنه نفس وجه الولد الذي استيقظ في الغرفة ونظر إليّ مرتعباً. وشعرتُ أنْ لو حدث ما يخيفه الآن فإن ذلك الفم سينفغر في صرخة.

الشمس تسطع الآن. العشب أخضرُ، مستوٍ، بهيٌّ. بإمكانك رؤية حافات المرجة ، سوداء ثرية، كأنك تستصلح للمرة الأولى قطعة من الغابة، وتعرف أن كل شيء سينمو: تستطيع أن تتحسس الرطوبة بقدمك آن تسير، أن ترى البذور تنبت، منغلقةً صغيرةً، ناميةً يوماً بعد يوم. تلميذات المدارس يجلسن فتيّاتٍ متبذلاتٍ على مُرتبى الكونكريت بتنوراتهم الزرق القصار، ضاحكاتٍ يجهرن بالكلام كي ينبهن الناس إليهن. الحافلات تغدو وتروح. سيارات الأجرة تأتي وتستدير، والرجال والنساء يخرجون منها ويدخلون. العالم بأسره يمضي إلى الأمام. وأنا أحسُّ بأني خارجه، لا أرى سوى أخي وأنا في هذا المكان، بين الأعمدة، أنا بملابس العمل، وهو ببدلته الرخيصة جداً حتى لم يعد لها شكل، يدخن سيجارته. أريد له أن يدخن أجود سجائر العالم.

لا أريد له أن يُجَنَّ مثل ابن ستيفن. لا أريد أن يحدث هذا. أريد أن أذهب إليه وأعانقه وأضع يدي على رأسه وأشمّ جسده. أريد أن أخبره

أن كل شيء على ما يرام، وأنني سأرعاه، وأنّ عليه ألاّ يأخذ مزيداً من الدراسة، وأنه إنسانٌ حرٌّ. أريده أن يبتسم لي آنذاك. لو ذهبت إليه الآن لأخفتُه، ولسوف يفغر فاه صارخاً. هذا ما فعلتُه. هذا ما صنعتُه بنفسي. لا أستطيع الذهاب إليه. أستطيع الوقوف فقط خلف العمود أراقبه.

أطفأ سيجارته. ثم خرج مع كتبه عبر البوابة بين السياج الحديد الأسود. وقت الغداء الآن، الحانة، الشطائر، الناس يخرجون من المكاتب، ماشين تحت الأشجار. هو يختلط معهم. لكن لا مكان يذهب إليه. وبعد أن راقبتُه يغادر شعرتُ أنا أيضاً بأن ليس لي من مكانٍ أذهبُ إليه، وأن الحياة في لندن قد انتهت.

لا مكان أذهب إليه، وأنا أسير الآن مثل دايو، حيث يسير السوّاح. دكان الروتي: الأنشوطة التي وضعتُ رقبتي فيها. أفكر الآن كم هو لطيفٌ أن أتركه فقط، أتركه هكذا. دع طعام الكاري البائت يفسد ويتعفن ويتحول أحمر كالسمّ، دع الغبار يسقط من السقف ويستقرّ. أرجعْ دايو إلى البلد قبل أن يُجَنّ. لو استطاع امرؤٌ أن يفعل ذاك، لو استطاع فقط أن يفارق حياةً تتحطم.

أن أغادر القبو ذا المرأة المجنونة بالقمر في الطابق العلوي، أن أغادر النافذة التي لا تطل على شيء أماماً ووراءً. ليلةً بعد ليلة في القبو يخمشُ الفأرُ. مرةً حين أزحت الصندوق كي أسدَّ الفجوة بالبوليفيا رأيت المكان التي تخمش فيه المخالبُ وتخمش في الظلام. شيء كالفراء الأبيض يغطي ذلك الجزء من الصندوق. دع الفأر يخرج. الحياة انتهت. وأنا مثل امرئٍ متخلٍّ. خرجتُ بلا شيء. عندي لا شيء. وسأغادر بلا شيء.

طوال العصر، وأنا أمشي، شعرتُ بأني إنسانٌ حرّ. احتقرتُ كل ما أرى. وعندما انهكتُ نفسي سيراً وانصرمَ العصر، كنت لا أزال أحتقِر. أحتقر الحافلة، والسائق، والشارع.

أحتقرُ الأولاد البيض الذين يأتون إلى الدكان عشيّةً. هم يأتون لإثارة المتاعب. لكن الأمر الليلة مختلف. أنا أحارب للاشيء هنا. هم يستفزونني. لكنهم يمنحونني القوة. شمشون استعاد شعره، وهو قويّ. لن يمسّه شيء. سوف يعود على السفينة، ولن يهمّ سواد الماء ليلاً، ففي الصباح سيكون أزرق. لقليلٍ من الوقت، حسبُ، يجب أن يكون قوياً، ولسوف يغادر. سوف يرحل ويترك التراب يسقط والفأر يخرج.

الكؤوس والصحون تتكسر. الكلمات وتلك الضحكة في كل مكان. ليتكسر كل شيء. سآخذ دايو معي على تلك السفينة، ولن يكون وجهه حزيناً، ولن ينفتح فمه في صرخة. أنا أخرجُ، سأذهب الآن، السكين في يدي. لكني عند الباب شعرت بحاجة إلى الصراخ. رأيت وجه دايو ثانيةً، شعرت بقوتي تتهاوى، وبعظامي تستحيل أسلاكاً في ذراعيّ. هؤلاء القوم أخذوا مالي، هؤلاء القوم أخذوا مالي، هؤلاء القوم حطّموا حياتي. أغلقت الباب وأدرت المفتاح، وعرفت آنذاك أنني أستدير وأسمعُ ما أقولُ: "سآخذ أحدكم اليوم. اثنان منّا سيغادران اليوم". لم أسمع سوى هذا.

ثم، رأيت، في الهدأة، دائماً، وجه الولد المندهش. وإنه لأمرٌ غريبٌ، فهو ودايو صديقا كليةٍ، ودايو يقيم معه في ذلك المنزل الخشبي قديم الطراز في انجلترا. كانت حادثةً. كانا فقط يلعبان. لكن بأيّ سهولةٍ اخترقه السكين، وبأي سهولةٍ سقط. لم أستطع النظر إلى أسفل. نظر

دايو إليّ وفتح فمه ليصرخ، لكن الصرخة لم تنطلق. أراد مني أن أساعده، وقد جحظت عيناه فزعاً، لكني لا أستطيع مساعدته الآن. ليذهب إلى المشنقة. لا يمكن أن أتكفل بهذا من أجله. أعرف فقط أن ما بداخلي يرغو، وأن الحبّ والخطر اللذين أحملهما طيلة هذا الوقت ينكسران وينقطعان، وأن حياتي انتهت. لا شيء يضجّ الآن. الجثة في الصندوق، مثل ما في فيلم "الرداء"، لكن في هذا البيت الانجليزي. ثم يأتي الأسوأ دائماً: الركوب الهادئ الأسود، والجلوس إلى مائدة الطعام مع أبوَي الولد. ودايو يرتجف. إنه ليس ممثلاً جيداً. سيعترف بما فعل. إنه مثل جسمه في الصندوق. إنه مثل جسمي. لا أستطيع أن أرى أوصاف البيت. لا أستطيع أن أرى أبوَي الولد. الأمر مثل الحلم، حين لا تستطيع أن تتحرك، وأنت تريد أن تستيقظ بسرعة.

ثم عاد الضجيج، وعرفتُ أن شيئاً سيئاً أصاب عيني اليمنى. لكني عاجزٌ حتى عن تحريك يدي لأتحسسها.

فرانك يجلس إلى جانبي في الحافلة الآن. أنا في الداخل، أنظر إلى الطريق. هو في الجانب الخارجي، يضغط عليَّ. سنذهب إلى محطة سكة حديد أخرى ونأخذ قطاراً، ثم نستقل حافلةً. وفي الختام، في بناية ما، في كنيسة ما، سوف أرى أخي والبنت البيضاء التي سيتزوجها. في هذه السنوات الثلاث شقَّ دايو طريقه. ترك الدراسة، وحصل على عمل.

اعتدتُ أن أفكر به عائداً إلى القبو ذلك اليوم، لئلا يجد أحداً. ولا أحد سيعود، واعتدتُ أن أرى في ذلك نهاية العالم. لكنه يدبِّر أمره بدوني، هو لايحتاجني. لقد فقدتُه. لا أستطيع أن أعرف نوع الحياة التي أنغمس فيها، لا أستطيع أن أرى الناس الذين يختلط بهم الآن. أحياناً

أفكر به باعتباره غريباً، مختلفاً عن الرجل الذي عرفته. أحياناً أراه مثل ما كان، وأشعر أنه وحيد، مثلي.

توقف المطر، وبدت الشمس. في القطار مررنا بخلفيات بيوت عالية. الطابوق رمادي. لا صبغ هنا، إلا أطُر النوافذ، زاهية الحمرة وزاهية الخضرة. والناس يسكن أحدهم فوق الآخر. كل أنواع القمامة تعلو السطوح المستوية التي تكشف الغرف الخلفية، أو نبتاً صغيراً في إناء بالداخل، وراء نوافذ تسيل رطوبةً وبخاراً. كل امرئ على رفِّه، في مكانه الصغير. لكن بمقدور المرء أن يترك كل شيء، بإمكان المرء أن يختفي حسبُ. بعضُهم سيأتي، بعده، لينظف ويرتِّب، والشخص الجديد سوف يستقر هناك حتى يحين أجَلُه.

عندما بلغنا المحطة صرنا كأننا خارج لندن مرةً أخرى. بناية المحطة صغيرة خفيضة، البيوت صغيرة أنيقة مبنية بالطابوق الأحمر، والمداخن الصغيرة تطلق دخانها. الإعلانات الكبيرة في ساحة المحطة تجعلك تشعر بأن كل شخص هنا في منتهى السعادة، يضحك تحت مظلة في شكل سقف منزل، يأكل المقانق ويتلاعب بملامح وجهه، والأسرة كلها مجتمعة حول الطعام.

وبينما نحن بانتظار الحافلة، في المرحلة الأخيرة، عاودتني عصبيتي. الشارع واسعٌ، وكل شيء نظيف، وأحسست بأني مكشوف. لكن فرانك يعرفني جيداً. التصقَ بي كأنه يريد أن يحميني من الريح الباردة الضئيلة التي كانت تهبّ. الريح جعلت وجه فرانك أبيض، ورفعت قليلاً من شعره الخفيف، حتى بدا يشبه ولداً إلى حدٍ ما.

أراه يلعب مثل ولد في شوارع كهذا الشارع. لست أدري لماذا أراه

قذرَ الوجه قذر الثياب، مثل إولئك الأطفال الذين يطلبون بنساً للرجل. وبينما كنت أفكر هكذا، محدِّداً النظر إلى حذاء فرانك الضخم اللامع، جاءت فتاة صغيرة جداً ترتدي جينز صغيراً جداً، إلى فرانك، واحتضنت ركبتيه وطلبت بنساً. قال لا، فضربته على ساقه وقالت: "أنت لديك بنس". إنها بنت صغيرة جداً، لا تعرف ما تفعل، تحتكّ بغرباء، هي لا تعرف حتى ما هي النقود. لكن وجه فرانك الأبيض يتصلب، وظل فرانك عصبياً حتى بعد انصراف البنت. وكان فرحاً بالصعود إلى الحافلة حين جاءت. الآن، في هذه المرحلة الأخيرة إلى الكنيسة، أشعر أنني داخلٌ أرض العدو. لا أتحمل أن يعيش أخي في مكان كهذا. لا أتحمّل أن أراه يختلط بهؤلاء الناس. الشوارع عريضة، الأشجار بلا أوراق، وكل شيء يبدو جديداً. حتى الكنيسة تبدو جديدة. مبينة بالطابوق الأحمر، بلا سياج. إنها هناك حسبُ، على الطريق الرئيس. نقف على الرصيف وننتظر. الريح باردة الآن، وأنا عصبيّ المزاج. لكني أرى فرانك أكثر عصبيةً مني. امرأة في بدلة تويد تخرج من الكنيسة. هي في حوالي الخمسين لطيفة الوجه. ابتسمت لنا، فخجل فرانك أكثر مني. لا أعرف إن كانت المرأة أمٌ زوجته، أو أنها امرأة جاءت للمساعدة فقط. حين يتخيل المرء زفافاً، يتخيل أناساً ينتظرون خارج الكنيسة، أو القاعة، أو ما إلى ذلك . لن تتخيل الأمر هكذا. آخرون خرجوا، ليسوا كثيرين، مع طفل إو طفلين. وكانوا يرمقونني شزراً كأني عدوّ، إنهم الناس الذين حطّموا حياتي.

يلمسني فرانك على ذراعي. أنا فرحٌ بلمسته، لكني أبعد يده عني. أدري أن الأمر ليس صحيحاً، لكني أقول لنفسي إنه يقف على الجانب

الآخر، مع كل أولئك الآخرين، ينظر إليّ بدون أن ينظر إليّ. أدري أن هذا لا يصحّ على فرانك، فهو عصبيّ أيضاً، كما ترى. يريد أن يكون وحيداً معي. هو لا يريد أن يكون بين قومه. لكنه الآن ليس في المقهى أو الحافلة حيث بمقدوره، مثل رجلٍ، أن يقول: هذا الرجل في حمايتي. الأمر مختلف هنا خارج الكنيسة، وكلانا واقف على الرصيف في ناحية، والناس الحزانى الآخرون واقفون في الناحية الأخرى، الشمس حمراء مثل برتقالة، الأشجار تكاد تكون بلا ظلال، والعشب وحشيٌ حول كنيسة الطابوق.

تتوقف سيارة أجرة . إنه أخي. معه ولدٌ أبيض نحيل، وكلاهما يرتدي بدلة. تاكسي اليوم. الزفّة اليوم. لا عمامة، لا موكب، لا طبول، لا احتفال ترحيب، لاأقواس خضراء، لاأضواء في خيمة الزفاف. لا أغاني زفاف. فقط سيارة الأجرة، الولد النحيف الأبيض ذو الحذاء الدقيق والشعر القصير، يدخن، وأخي الذي ثبَّت وردة بيضاء في سترته. إنه هو نفسه. الوجه القبيح للعامل، وهويتكلم مع صديقه، مبدياً للجميع هدوءه الشديد. لا أدري لماذا فكرتُ في أنه سيكون مختلفاً خلال سنين.

عندما جاء مع صديقه إليّ، نظرتُ في عيني أخي وخديه الممتلئين وفمه الضاحك. إنه وجهٌ ناعمٌ، ووجهٌ خائف. آملُ في ألاّ يعمد أحدهم، يوماً، إلى تهشيم ذلك الوجه. الصديق ينظر إليّ وهو يدخن، رامش العينين مع الدخان. عيناه ماكرتان في وجهٍ فظٍّ نحيل.

أشعرُ بفرانك يتصلب ويزداد عصبيةً، لكن المرأة اللطيفة ذات بدلة التويد تأتي وتشرع تتكلم بطريقتها الحيوية. إنها تثير ضجةً، كاسرةً الصمتَ أكثر منها متحدثةً، ثم أخذت أخي وصديقه وبدأت تبتعد متجهةً

نحو القوم في الناحية الأخرى، مثيرةً الضجة ذاتها دائماً. إنها امرأة لطيفة، لها هذا الوجه اللطيف. في هذه اللحظة الرديئة أراها لطيفةً جداً.

ندخل الكنيسة، وتُجلسنا السيدة اللطيفة في الجهة اليمنى. لا أحد هناك ، سواي أنا وفرانك، أما الآخرون فقد جاؤوا وجلسوا في الجهة اليسرى. بينما الكنيسة القبيحة من السعة بحيث تبدو فارغة تماماً. هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها كنيسة، ولم أحببها البتة. كأنهم يرغمونني على أكل لحم البقر والخنزير.

الأزهار والنحاس والرائحة العتيقة والجسد على الصليب، جعلتني أفكر بالموتى. وذلك الطعم في فمي، رغبتي القديمة في التقيؤ، وشعرت بأنني سأتقيأ لو ابتلعتُ.

أنظرُ إلى أسفل، أفعل ما يفعله فرانك، وذلك الطعم في فمي طيلة الوقت. لم أنظر إلى أخي وإلى البنت إلا بعد أن انتهى كل شيء. ثم شاهدت البنت ترتدي البياض مع نقابها والأزهار، مثل شخص ميت. وجهها لا ملامح، عريض، وناصع البياض مع نقابها والأزهار، مثل شخص ميت. وجهها بلا ملامح، عريض، وناصع البياض، ومساحيق الزينة تشعّ على خديها وصدغيها مثل الشمع. إنها غريبة. لا أدري كيف سمح أخي لنفسه بهذه الفعلة. إنها فعلة غيرسليمة. إنه شخص ضائعٌ هنا. بإمكانك رؤية ذلك في وجوه الجميع، باستثناء البنت.

في الخارج، كان الهواء نقياً. التقطوا صوراً كثيراً، لكن الأمر كان كالجنازة أكثر منه كالزفاف. ثم جاءت السيدة اللطيفة وجعلتني وفرانك ندخل في سيارة المصور. إنه رجل أعمال له متاعبه، هذا المصور. إنه بنظاراته ذات الإطار الذهبي وشاربه الصغير، لا يتحدث إلا عن الشغل،

وهو يقود سيارته بسرعة فائقة، مثل أحد سائقي سيارات أجرتنا المجانين. كان يتحدث عن الأشغال التي سيقوم بها، وعن بداية عمله في التصوير، عن علائقه مع الصحف، وما إلى ذلك، وحتى وهو يقود السيارة كان ينبش في جيب الصدر، ويستدير ليبتسم ويقدم لنا بطاقته.

قادنا إلى مطعم ما، وانشغل فوراً بآلة تصويره، ونسينا. البناية قديمة الطراز، تدخل في حوشٍ بالوسط، حوله أروقة. عوارض ملتوية بنّية في كل مكان، كما في فيلم بريطاني قديم، ثم أدخلونا غرفة معوجّة ذات عوارض معوجّة. وفي هذه الغرفة التمَّ الشمل ثانيةً للتصوير. بإمكان الجميع أن يجدوا لهم موضعاً في تلك الغرفة الصغيرة، جميع من حضرَ الزفاف.

بضع نساء بكين. أخي بدا متعباً مصعوقاً، البنت بدت متعبة. زوجته. بأي سرعة تمَّ أمرٌ كبير كهذا، وبأي سرعة حطّمَ شخصٌ حياته. التصق فرانك بي، وعندما حان وقت جلوسنا جلس إلى جانبي. لا أحد يتحدث كثيراً. الحديث في السهر على ميت أكثر. الساقية الجميلة فقط هي السعيدة، أنيقةً بمريلتها البيضاء وثوبها الأسود . هي خارج الموضوع، وهي تتصرف كأن ما يجري حفل زفاف.

لا لحم لي. وفرانك قال لا لحم له أيضاً. هو يريد أن يفعل كل شيء مثلي الآن. الساقية اللطيفة جاءتنا بسمك نهريّ. الجلد محترقٌ أسودُ وهشٌّ في الأعلى، وعندما أكلت قطعة سمك كانت نيئة متعفنة، بحيث عادت إليّ رائحة الكنيسة في فمي، وفكرتُ بالموتى أيضاً، وبالنحاس، والأزهار.

الساقية دخلت الآن. وفي إبطيها رائحة، وسألتْ إن كان أحد يريد نبيذاً. قالت أنها نسيت أن تسأل أولاً. لم يسمع أحد. لم يردّ أحد. سألتْ ثانيةً. قالت إن بعض الناس يشرب في حفلات الزفاف. حتى هنا

لم يردَّ أحد. ثم رفع رجلٌ عجوزٌ رأسه ، وهو الذي لم ينطق بكلمةٍ من قبل، وكان يبدو حزيناً، وقال ضاحكاً: "ذاك جوابك، يا آنسة". وأحسستُ أنه مثل ستيفن، حكيم العائلة ومتفكهها، وأنه يتوقع أن يضحك الناس لما يقول. وضحك الناس، وشعرتُ بودٍ إزاء ذلك الرجل.

أنا أحبهم. أخذوا مالي. حطّموا حياتي. فصلونا. لكنك لا تستطيع أن تقتلهم. يا إلهي. أرِني عدوِّي. إن عرفتَ عدوَّك فاقتلْه. لكنّ هؤلاء الناس هنا يشوِّشونني. مَن آذاني؟ من حطَّم حياتي؟ قُلْ لي مَن أواجه؟ اشتغلت أربع سنين لأوفر المال، اشتغلت مثل حمارٍ ليل نهار. كان على أخي أن يكون المتعلم، الرجل اللطيف. وهذه هي النهاية، في هذه الغرفة، يأكل مع هؤلاء الناس، قلْ لي من أقتل.

الآن يأتي أخي إليّ. سيمضي مع زوجته، إلى غير رجعة. يمسك بيدي، ينظر إليّ ، وتسيل دموعه، ويقول: "أنا أحبك". هذا صحيح، إنه كالوقت الذي كان يبكي فيه وهو يقول إنه لا يثق. أعرفُ أنه يحبني، هذا صحيحٌ الآن، لكنه لن يكون صحيحاً بمجرد خروجه من هذه الغرفة، وعليه أن ينساني. لقد كانت فكرتي بعد متاعبي أن لا أحد ينبغي أن يعرف، وأن الرسالة التي ستبلغ البلد ستقول أني ميت. وطوال هذه المدة، أنا صرتُ الشخص الميت.

لديّ مكاني الذي أعود إليه. سيأخذني فرانك إلى هناك بعد أن ينتهي هذا الأمر. والآن بعد أن فارقني أخي إلى غير رجعة، نسيتُ وجهه بالفعل، فلا أرى إلا المطر والبيت والوحل، الحقل ذا الحشيش خلف البيت وقد انحنى تحت المطر، والحمار ودخان المطبخ، وأبي في الرواق، وأخي في الغرفة على الأرض، وذلك الولد يفغر فاه ليصرخ، كما في فيلم "الرداء".

في بلادٍ حُرّة

IN A FREE STATES

1

في هذه البلاد من أفريقيا كان رئيس، وكان ملكٌ أيضاً. وهما من قبيلتين مختلفتين. العداوة بين القبيلتين قديمة، ومع الإستقلال صارت مخاوف إحداهما من الأخرى حادّة. الملك والرئيس يدبِّران المكائد مع الممثلين المحليين للحكومات البيضاء. الناسُ البيض الذين طُلب عونُهم أحبوا الملك شخصياً. لكن الرئيس كان أقوى، فالجيش الجديد بأكمله له، ومن قبيلته، فقرَّر البيض مساندة الرئيس. وهكذا، أخيراً، وفي العطلة الأسبوعية هذه، غدا الرئيسُ قادراً على إرسال جيشه ضد قوم الملك.

تقع مدينة الملك في الجنوب، ولا تزال تُدعى باسمها الكولونيالي، "كولكتوريت الجنوبية". وهناك كان يعمل "بوبي" إدارياً في إحدى دوائر الحكومة المركزية، لكنه في أزمة هذا الأسبوع كان في العاصمة، التي تبعد أربعمائة ميل، يحضر ندوة حول تطويرالمجتمعات المحلية، ولم يكن في العاصمة ما يدلّ على الأزمة. وفي الندوة كان عدد المشتركين الإنجليز أكثر من الأفارقة، كان الأفارقة وقورين حسني الهندام، قليلي الكلام، وقد اختُتمت الندوة يوم الأحد بغداء في حديقة واسعةٍ، واقعةٍ في ضاحية لا تزال ضاحية انجليزية.

كان يومَ أحدٍ عادياً في العاصمة، التي ظلت، بالرغم من هجرة البيض إلى جنوب أفريقيا وبالرغم من إجراءات الإبعاد، قطعةً انجليزية-

هندية في البرِّية الإفريقية. إنها غير مدينة بشيء للخبرة الإفريقية، ولا تحتاج إلى شيء منها. غير بعيد عن العاصمة، قُرى غابةٍ، يقصدها السوّاح في جولةٍ أمَدُها نصف يوم. لكن أفريقيا لا تتبدّى في العاصمة إلا في حدائق الضواحي شبه الإستوائية، وفي ما تعرضه المخازن السياحية من منحوتات خشبية وبضائع جلدية وطبول ورماح للذكرى، وفي خدم الفنادق السياحية الجديدة، المتّسمين بالخَرَق، والمرتدينَ ملابس خاصّة. وغالباً ما يخشى البيضُ، والمشرفون الإسرائيليون هذه الفنادق. إفريقيا هنا كانت تزويقاً وزينةً، بريقاً للزائر الأبيض والمقيم الأجنبيّ، بريقاً كذلك للإفريقي، المنتزَع من الغابة، الذي مُنح التمدنَ، في المدينة، مع الإستقلال، بصورةٍ كاملة، كما يبدو. إنها لا تزال مدينةً كولونياليةً، ذات بريقٍ كولونياليّ. وكل من فيها كان بعيداً عن موطنه.

في حانة فندق نيو شرويشير، التي كانت للبيض فقط يوماً ما، والتي هي الآن ملتقى مختلف الأعراق في العاصمة، والمتمتعة بسمعة "الحوادث" العنصرية، كان البيض يرتدون قمصاناً مفتوحة ويشربون البيرة. أمّا الأفارقة فيحتسون أشربةً أكثر تركيزاً وأفضل مع قصب الكوكتيل ويرتدون بدلات إنجليزية الصنع من علامة داك. شعرُهم مفروقٌ خفيضاً إلى اليسار، ومكوَّماً إلى اليمين، في قَصّةٍ معروفةٍ لدى أفارقة المدينة باسم القصة الانجليرية.

كان الأفارقة شبّاناً، ممتلئين، في العشرينيات. بمقدورهم القراءة والكتابة، وهم موظفون كبار، سياسيون أو أقارب سياسيين، مدراء غير تنفيذيين، أو مسؤولو إدارة في الفروع المفتوحة حديثاً للشركات العالمية. كانوا رجالَ البلاد الجُدد، وكانوا يعتبرون أنفسهم ذوي سلطة. هم لم

يدفعوا ثمن البدلات التي يلبسونها. وأحياناً كانوا يبعدون تجّار الأجواخ.

لقد جاؤوا إلى نيو شروبشير كي يشاهدهم البيض وينتبهوا إليهم، ولو بصورة عابرة، وكي يُحتفَى بهم، وليثيروا المتاعب.

لا آسيويين في الحانة، فالانطلاق الذي تقدمه هو للسود والبيض فقط. كان "بوبي" يلبس قميصاً زعفرانياً قصيراً من النوع الذي بدأ يُعرف باسم "القميص البلدي". إنه مثل قِباءٍ ذي كُمَّين قصيرين عريضين ورقبة منخفضة مفتوحة، أمّا القماش بنقوشه "البلدية" الصارخة سوداءَ وحمراءَ فقد صُمِّم ونُسج في هولندا.

الشاب الإفريقي الصغير على طاولة بوبي لم يكن من أبناء البلد، كان من الزولو لاجئاً من جنوب افريقيا، مثل ما أخبرَ بوبي سريعاً. كان يرتدي سروالاً فاتح الزرقة وقميصاً أبيض عاديّاً، كما أنه متميّزٌ أكثر من الأفارقة الآخرين في الحانة بقلنسوته القماش ذات المربعات، التي يكثر العبث بها، وهو مسترخٍ في كرسيه، فمرّة يعتمرها ويجذبها على عينيه، ومرةً يروِّحُ على نفسه بها، وأخرى يمسك بها على صدره ويعجنها بيديه الصغيرتين كأنه يؤدي تمريناً في رسم المجسّمات.

الحديث مع الزولو لم يكن سهلاً. فهو متململٌ نزِقٌ. الملك والرئيس، التخريب في جنوب إفريقيا، الندوات، السوّاح، أهل البلد: يقفز من موضوع إلى آخر. والقلنسوة القماش كانت جزءاً من زوَغانه. القلنسوة القماش كانت تُظهر الزولو مرةً غندوراً، ومرةً عاملاً مستغَلّاً من مناجم جنوب إفريقيا، وأخرى مثل مغنٍّ أميركي مستزنج، وأحياناً حتى ثورياً مثل ما أخبر بوبي.

أمضينا حوالي الساعة معاً. الساعة العاشرة ونصف الآن تقريباً. الوقت متأخرٌ على بوبي، وبعد فترة صمت كانا ينظران فيها إلى بقية الناس في الحانة، قال الزولو: "يوجد في هذه البلدة حتى عاهرات بيضاوات الآن".

بوبي، وهو ينظر إلى بيرته محتسياً، غير متعجلٍ، غير ناظرٍ في عيني الزولو، كان مبتهجاً لأن الحديث تناول الجنس أخيراً.

قال الزولو: "الأمر ليس لطيفاً".

"ما الأمر الذي ليس لطيفاً؟".

"انظرْ". وقف الزولو، قلنسوته في يده، ووضع يده على جيبه الخلفي، مبرزاً إلى الأمام صدره الصغير القوي المشدود مع القميص الأبيض. أخرج حافظة نقود وغلغل إبهامه في أوراق بنكنوت جديدة كثيرة. "سأذهب إلى أماكن ألقى فيها الترحيب بفعل هذا. لا أظن أن الأمر لطيفاً".

فكّر بوبي: هذا الولد عاهر. كان بوبي يضيق صدراً بالعاهرين الأفارقة في حانات الفنادق. لكنه استعد للمساومة. قال: "انت امرؤ شجاع. تتجول وهذا المال كله معك. أنا لا أحمل في جيبي أكثر من ستين شلناً أو ثمانين".

"تلزمك مائتان كي تفعل أي شيء في هذه البلدة".

"مائة في الخارج تكفيني".

"تمتَّعْ".

صعَّد بوبي نظره، وتثبَّتَ من نظرة الزولو. الزولو لم يحوِّل نظرته. كان بوبي هو من حوَّلَ نظره بعيداً.

قال بوبي: "انتم الذين من جنوب أفريقيا، متغطرسون جميعاً".

"نحن لسنا مثل أهل البلد هنا. هؤلاء الناس هم الأكثر جهلاً في العالم. انظر إليهم".

نظر بوبي إلى الزولو. أضأل من أن يكون زولو. "اقتصدْ في كلامك. فقد يبعدونك".

روّح الزولو عن نفسه بقلنسوته وأشاح بوجهه: "لماذا يريد هؤلاء البيض أن يكونوا مع أهل البلد؟ قبل سنتين ما كان بمقدور أهل البلد المجيء إلى هنا. انظر الآن. الأمر ليس لطيفاً. لا أعتقد أن الأمر لطيف".

قال بوبي: "إذاً، الأمر مختلف في جنوب إفريقيا".

"ماذا تريد أن تسمع، يا سيد؟ أنصتْ، أخبرْك. كنت في وضع ممتاز بجنوب إفريقيا. أشتري الويسكي. وعندي نسائي. ستُدهش".

"واضحٌ أن كثيرين يرونك جذاباً".

"سأخبرك". انخفض صوت الزولو. وصارت نبرته تآمريّة حين شرع يذكر أسماء سياسيي جنوب إفريقيا الذين ضاجع نساءهم وبناتهم.

أحسَّ بوبي، وهو ينظر إلى الوجه الصغير المتوتر للزولو وإلى عينيه المتألمتين، بنوع من العاطفة والإستثارة. إنه النبض الإفريقي. نسي بوبي عصبيته. قال الزولو وهو يرفع صوته ثانيةً: "أهل جنوب إفريقيا هنا، لن يتركوك وحدك. هم يبحثون عنك دائماً. "أأنت من جنوب إفريقيا؟" لقد تعبت من متابعتهم إياي".

"أنا لا ألومهم".

"ظننتك من جنوب إفريقيا، حين دخلتَ".

"أنا!".

"هم يجلسون معي دائماً. ودائماً يريدون أن يبدأوا حديثاً".

"أي قلنسوة لطيفة!".

مال بوبي ليلمس القلنسوة ذات المربعات، ولبرهةٍ أمسكا بالقلنسوة معاً.

بوبي يتحسس القماش، والزولو يدع القلنسوة تُلمس.

قال بوبي: "أتحب قميصي الجديد؟".

"إنه اللون. نحن لا نستطيع أن نلبس الألوان البهيجة التي تستطيعون أن تلبسوها".

قسَتْ عينا الزولو. وأصابع بوبي مضت على امتداد القلنسوة حتى صارت لصقَ أصابع الزولو. ثم نظر إلى الأصابع، ورديةً إلى جانب السوداء "حين أولَد ثانيةً" توقف بوبي. لقد بدأ يتكلم رطانةً، وهذا لن ينفع مع الزولو. صعَّد بصره: "لو جئتُ ثانيةً إلى العالم، فإني أريد أن يكون لي لونك". كان صوته خفيضاً. وعلى قلنسوة المربعات تحركت أصابعه حتى صارت فوق إصبعٍ من أصابع الزولو.

لم يتحرك الزولو. كان وجهه حين رفعه إلى وجه بوبي بلا تعبير. عينا بوبي الزرقاوان ترطَّبتا، وبدتا تحدِّقان. شفتاه ارتعشتا، وبدتا نصف مبتسمتين. هبط الصمت على الاثنين، وبغتةً دون أن يحرِّك الزولو يده أو يبدِّل تعبيره، بصق في وجه بوبي.

لثانيةٍ أو نحوها ظلت أصابع بوبي فوق أصابع الزولو. ثم أبعد يده، وأخرج منديله، ومسح وجهه، وعندما أعاد المنديلَ كانت عيناه لا تزالان

تنظران إلى الزولو، وشفتاه لا تزالان تبدوان نصف مبتسمتين. الزولو لم يتحرك البتة.

شاهدَ من في الحانة ما جرى. السودُ حدّقوا، والبيض أشاحوا بوجوههم والحديث اضطرب، ثم استعاد وضعه.

نهض بوبي. الزولو ظل يحدِّق في الفراغ الآن، بدون أن يغيِّر مستوى تحديقته. أرجع بوبي عمداً كرسيه إلى الخلف، ثم سار، مكتنزاً، قربانيّاً في قميصه المحلي العريض الراقص، غير غاضّ البصر، ذراعه الشمال إلى جنبه وذراعه اليمنى تتحرك من الكوع، سار بابتسامةٍ ثابتة نحو الباب.

غاص الزولو أكثر في كرسيه. اعتمر قلنسوة ونزعها. ضغط بحنكه إلى داخل رقبته، فتح فمه، أغلق فمه. كان وجهه جامداً بلا تعبير، وقد استعاد هدوء الطفل. هذا ما تبقّى من ثورته: هذه الزيارات إلى فندق شرويشير، وتَصيُّد البيض هذا. في العاصمة كان الزولو وحيداً، عاطلاً عن العمل، يعيش على مخصص قليل من مؤسسة أميركية. في هذا الجزء من إفريقيا، يدعم الأميركيون، أو أميركيون ببساطة، كل شيء.

ساقي الحانة، ذو البزّة، تذكر واجبه، فجرى خلف بوبي مع القائمة. أوقف بوبي في المدخل، قرب الطبل البلدي الضخم، الذي هو جزء من التزويقات الجديدة في نيوشرويشير. في البداية، لم يسمع بوبي، لكنه ارتاح حين عرف أن من وراءه هو الساقي، وتغلب على اضطرابه. تحسس تحت القميص البلدي الأصفر، حافظة نقوده، في الجيب الخلفي لسرواله الرمادي الخفيف من الفلانيل الناعم، ابتسم، كما لو كان يبتسم لمزحة شخصية، بدون أن ينظر إلى وجه الساقي. أعطى الساقي ورقة بعشرين

شلناً. ثم طغت عليه فروسيةٌ غير معقولة فأعطى الساقي ورقة أخرى ليدفع حساب ماشربه الزولو أيضاً، ولم ينتظر الباقي.

في بهو الفندق صورة رسمية جديدة للرئيس. لقد ظهرت في المدينة في عطلة هذا الأسبوع فقط. في الصور الفوتوغرافية القديمة كان الرئيس يعتمر غطاء رأسٍ لقبيلة الملك، هديةً من الملك وقت الاستقلال، ورمزاً لوحدة القبائل. الصورة الجديدة تُظهر الرئيس بدون غطاء الرأس، مرتدياً سترة وقميصاً وربطة، وشعرُه مرتَّبٌ على الطريقة الإنجليزية. الخدان الممتلئتان يلتمعان تحت مصابيح الإستوديو، والعينان السوداوان القاسيتان تنظران مباشرةً إلى آلات التصوير. يقال إن الأفارقة ينسبون إلى عيني الرئيس قوةً سحرية، ويبدو أن العينين تعرفان سمعتهما.
من واجهة النيوشرويشير المضاءة بالنور الكشّاف- الحديقة الصخرية، والسارية البيضاء مع العلم الوطني المترنح. وكل ليلة، في كل ضاحية تبدأ الغابة، على الطريق العام. كل أسبوع يجيء أهل الغابة ليقيموا في المدينة المغتصبة. يجلبون معهم مهارات الغابة فقط، لا يجدن ملاذاً، فيجوبون المناطق غير الممنوعة من المدينة. وتروى قصص مخيفة كثيرة. طبيعي أن يستاء بوبي، رافضاً القصص رفضَه المقيمين الأجانب الذين يروونها. لكنه يقود سيارته الآن بسرعة فائقة، على الطرق العامة المحفوفة بالغابة، عبر الطرق الجانبية، خلال الأزقة ذات العثرات للبازار الهندي-بيوت، مخازن ومستودعات- نحو وسط المدينة بنظام مروره المعقد ذي الاتجاه الواحد، وناطحات سحابه الست ترتفع معتمةً فوق الساحة المضيئة وموقف السيارات الواسع المرتب.

في البهو المزدحم لفندقه، الصورة الجديدة للرئيس أيضاً، بين طبعات إنجليزية لمناظر صيد الثعالب. الفندق، المشيّد أيام الكولونيالية، هو مسكن موظفي الحكومة، مثل بوبي، الذين يجيئون من أعلى البلاد إلى العاصمة لمهمات حكومية. الفندق يبدو أقدم من حقيقته. الخشب غير الصقيل مختلط بالتيودوري المقلّد: كان الفندق من فنادق "الرواد" في بعضه، ومن فنادق الضواحي في بعضه، ولا يزال انجليزياً، يشعر ساكنه كأنه في انجلترا. بوبي لم يحببه. كانت غرفته ذات الموقد المفتوح، بيضاء، بيضاء الحيطان، بُسُطها جلود أغنام بيضاء، مَفْرش أبيض، وَحَشِيّة جلوس من حمار الوحش.

العشية انتهت، الأسبوع انتهى. كانت تلك ليلته الأخيرة في العاصمة، وفي الصباح الباكر يقود سيارته عائداً إلى الكولكتوريت. لقد حزم أمتعته بالفعل. ترك مكافأة لخادم الغرفة في المظروف. وسرعان ما كان في فراشه. إنه في غاية الهدوء.

كانت إفريقيا في نظر بوبي مساحاتٍ خاليةً، والمغامرة الآمنة للسياقة الطويلة المتعبة على طرق مفتوحة، والأفارقة الآخرين، فتياناً في بنية الرجال. "تريد توصيلةً؟ يا فتى، أنت لا تذهب إلى المدرسة؟ لا، لا، لا تخَفْ. انظرْ، أنا أعطيك شلناً. انت تمسك بيدي. انظر، لوني، لونك. لا تخف. أعطيك شلناً تشتري كتباً مدرسية. اشترِ كتباً. تعلّم القراءة، احصل على عمل هامّ. حين أولد ثانيةً أريد أن يكون لي لونك. لا تخف. تريد خمسة شلنات؟ طفوليّة لذيذة، تكاد تكون بلا لغة. في اللغة المكر واحتقار الذات.

طيلة الأسبوع الذي أمضاه موظفاً حكومياً في الندوة، تمرَّنَ غيباً على طريق العودة إلى الكولكتوريت. لكنه في الغداء سُئل أن يوصل لندا معه، ولم يكن ليستطيع الرفض. كانت لندا من "زوجات المجمَّع" في الكولكتوريت، إحدى من يعشن في المجمَّع السكني الحكومي. جاءت إلى العاصمة بالطائرة مع زوجها الذي كان مشتركاً في الندوة، لكنها لن تعود معه بالطائرة. بوبي يعرف لندا وزوجها، بل قد تعشّى مرةً في منزلهما، لكنهما ظلا، بعد ثلاث سنين، ضمن معارفه لا أكثر. كانت تلك من أنصاف العلاقات الصعبة، مع عدم تأكُّدٍ لا مع شكٍّ، من جانب الطرفين.هكذا انتهى أي أملٍ بالمغامرة، والعودة بالسيارة التي كانت واعدةً بدتْ كأنها ستغدو ملأى بالتوتر.

الاستياء أكثر من الحاجة، إذاً، هو الذي أوصلَ بوبي إلى نيوشروبشير. حتى أثناء استعداداته للخروج عرف أن المساء لن ينتهي بخير. هو لم يحبب أماكن مثل نيوشروبشير. هو لم يعرف خبرة الحانات ولا فظاظتها. وقد هدته غريزته منذ تبادل النظر الأول إلى أن الزولو لم يكن سوى مدعاة ضيق. لكنه ذهب إلى الطاولة والتزَمَ. هو لم يحبب العاهرين الأفارقة. العاهر في إفريقيا هو ولدٌ يريد أكثر من خمسة شلنات، كل ولدٍ أراد أكثر من خمسة هو متعاملٌ بالنقود فقط، وهو سيِّء. كان بوبي قرَّر ذلك منذ أمد بعيد، لكنه بدأ يتعامل مع الزولو.

ذلك المساء خرقَ كل قواعده، وقد بيَّنَ المساء كم كانت قواعده صحيحة. لم يشعر بمرارة أو أذى. لم يَلُم الزولو، ولم يَلُم لندا. قبل إفريقيا، كان يمكن لحادث المساء أن يخرجه للمغامرة أكثر، ولساعاتٍ في أماكن خطرة، ثم في غرفته قد يدفعه إلى تجاوز الحد وتأنيب الذات.

لكنه عرف الآن أن هذا المزاج سينتهي، وأن الصباح قادمٌ حتى مع ليندا، مسافرةً معه، تظل قيادة السيارة.

استيقظ على صياح الديكة. الصياح صادرٌ عن الطريق بجانب الفندق. كان أحد أصوات الليل الإفريقي: جِلْسُ ليلٍ نُبِّهَ، الضجيج الإفريقيّ تعالى. في ما بعد، رأى نفسه ثانيةً، في مكانٍ مثل نيوشروبشير. كان مستلقياً على ظهره، والولد ذو البزّة يقف فوقه. لكنه لم يستطع رفع رأسه ليرى وجه الولد، ليرى إن كان الوجه يضحك. كان رأسه يوجعه، أخذ الوجع يشتدّ حتى كاد رأسه ينفجر. حتى بعد استيقاظه ظل الوجع، والإحساس بالرأس الناضب. ومرَّ وقتٌ ما قبل أن يعود إلى النوم. وعندما استيقظ ثانية بسبب التحويم القريب لهليكوبتر، بعيدةٍ حيناً، ثم جِدّ قريبة كأنها فوق الفندق مباشرةً، الساعة تعدّت الخامسة، النور في الغرفة البيضاء، وقت الاستيقاظ.

2

ياك-ياك-ياك-ياك. طائرة الهليكوبتر التي تحلّق خفيضةً، كأنها تتفحص موقف سيارات الفندق، غطّت نهيق إنذار السرقة في سيارة بوبي، آن كان بوبي يفتح الباب. بوبي وقد أحسَّ بأنه مراقَبٌ، لم ينظر إلى أعلى.

تمايلت الهليكوبتر، ثم ارتفعت ثانيةً في زاوية.

في منطقة البازار، حيث قاد بوبي سيارته برعونةٍ، البارحة، كانت المخازن والمستودعات المبنية بالكونكريت والصفيح مغلقة. والأسماء الهندية الطويلة على اللافتات القبيحة تبدو متزاحمة كالمباني. وعندما

يتجاوز الطريقُ البازارَ يمتدُّ بمحاذاة مَسيلٍ عريضٍ جافّ، باردٍ الآن، لكنه يعد بالتراب والوهج في ما بعد، وإذ يختفي المسيل يمسي الطريق درب عربات مزدوجاً ذا أزهار وشجيرات في المحظورة المركزية.

"نادي الإتحاد" أسسه بعض الهنود أيام الاستعمار، نادياً متعدد الأعراق وكان النادي الوحيد في العاصمة الذي يسمح بدخول الأفارقة. بعد الاستقلال أبعد المؤسسون الهنود، وتمّ الإستيلاء على النادي، وحُوِّل إلى فندق للسوّاح. كانت الحديقة مشبكاً وحشياً يابساً حول ساحة عارية. وفي المدخل الرئيس المستوي مع الأرض المتربة، تحت لوح كونكريت، وقفت ليندا جنب حقيبتها التي بلون العاج، ولوَّحتْ.

كانت مبتهجة، وليس على وجهها أيّ توترٍ للصباح الباكر. لا حاجة إلى السؤال عمّا أبقاها تبيت ليلتها في العاصمة. قميصُها ذو لون القشدة خارج سروالها الأزرق الذي كان فضفاضاً قليلاً حول مؤخرتها الضيقة المتطامنة، شعرها كان في لفاعٍ بُنّي شاحب. في تلك الثياب، وتحت لوح الكونكريت بدت صغيرةً، غلمانيةً، نصف مكتملة. هي جميلة بالكاد، لا يخفى عمرها، لكنها في مجمّع الكولكتوريت تتمتع بسمعة آكلة رجال. كان بوبي سمع قصصاً مقرفةً عن ليندا، وفكّر بوبي وهو ينزل من السيارة بأن ما سمعه عنها مقرفٌ قدر ما سمعته هي من قصصٍ عنه.

بكلماتٍ عالية في الساحة الخالية وقع أحدهما على الآخر، موجِّهين هذا اللقاء، الأول بلا شهود، بحيث صار فوراً وبعد الصمت والتوتر، مثل ممثلين في مسرحية، لا يستمع أحدهما إلى الآخر، ليندا تُصلصلُ

معتذرةً، ممتنّةً، شارحةً، وبوبي يرفض في آنٍ الشرحَ والامتنان، منهمكاً في الحقيبة عاجية اللون، انهماكَه في ممتلكٍ للمسرح.

ياك-ياك-ياك-ياك.

فُرض الصمت، فنظرا إلى أعلى. رجال الهليكوبتر كانوا بيضاً.

قالت ليندا حين ابتعدت الهليكوبتر: "إنهم يبحثون عن الملك. يقولون إنه في المدينة. هرب من الكولكتوريت في إحدى سيارات الأجرة الإفريقية تلك، متنكراً بصورةٍ ما".

شائعات البارحة من المقيمين الأجانب: بدأ بوبي يشعر بالاكتئاب إزاء مسافِرته. خرجا من الساحة عبر أحجارٍ ورصيف مهشّم.

قالت ليندا وهي لا تزال متأثرة بالشائعة: "آملُ في ألاّ يكونوا أساؤوا كثيراً إلى الزوجات المسكينات. هل انت شخصٌ مرغوبٌ فيه جداً في ذلك الحيّ؟"

"ليس كثيراً. لستُ ذلك الشخص العظيم بالنسبة للمجتمع الراقي".

ضحكتْ مبتهجةً.

ضبط بوبي وجهه. قرّر أن يكون متيقظاً، وألاّ يبوح بشيء. لقد ابدى نيّةً حسنة، وهو ما يكفي حتى الآن.

بيقظة وانتباه، إذاً، قاد سيارته على طريق العربات المزدوج، وبيقظة أيضاً، بعد بضع دقائق، أدّى المنعطفات اللطيفة لطرق الضواحي، بدورات عشبه الواسعة، وأسيجته، ومنازله الكبيرة، وحدائقه الوسيعة، حيث يشاهد بين حين وآخر خادم منزل يرتدي الخاكي.

قالت ليندا: "كأنك لستَ في إفريقيا. المكان هنا يشبه انجلترا كثيراً".

"إنه أفضل قليلاً من انجلترا التي أعرفها".

لم تُجب. وظلت صامتةً، فترةً.

شعر بأنه كان جدٌّ عدوانيّ. قال: "طبعاً، هم لم يسمحوا للأفارقة بالعيش هنا".

"لديهم خدمهم، يا بوبي".

"خدم، نعم". لقد أمسكتْ به، وهو غافل. لم يتوقع منها أن تكون استفزازية هكذا، وفي وقت مبكر. قال بالرضا الهادئ الكابي لرجل يتنبأ بالهولوكوست العِرقي: "أعتقد أن هذا هو الذي جعل شخصاً مثل جون موبندي-مبارارا لا ينتقل من الحيّ البلدي".

"كم جيدٌ نطقُك هذه الأسماءَ".

تحولت يقظة بوبي إلى كآبة: "حسناً، هو لن يأتي إليك، لكنك حين تريدين مشاهدة عمله فعليك الذهاب إليه. في الحيّ البلدي".

قالت ليندا: "عندما بدأ جوني م. كان رسّاماً فِطريّاً جيداً، وقد أحببنا جميعاً رسومه عن الماشية المحببة الهزيلة لعائلته. لكنه أنتج كثيراً من تلك حتى صار ينبغي عليه أن يكون أفضل قليلاً من فطريّ. اليوم هو رديءٌ فقط. لذا لا أفترض أن الأمر سيعني شيئاً إن ظلَّ يرسم ماشيته في الحيّ البلدي".

"لقد قيل ذلك من قبل".

"عن عيشه في الحيّ البلدي؟"

"عن رسمه". كره بوبي نفسه إذ أجاب.

قالت ليندا: "صار سميناً بصورة فظيعة".

قرر بوبي ألاّ يقول شيئاً. وقرر ثانيةً أن يكون منتبهاً، وألا يُجَرَّ إلى حديث هذه المرة.

حدائقُ الضواحي تليها قطعٌ مدينية إفريقية ذات أشجار أقلّ، وفي طرف البلدة تحسّ الأرض مفتوحة، والضوء مثل الضوء المبشّر بقرب المحيط. هنا، للبلدة والبرّية، مستودعات ناصلة الصبغ على أعمدة خشبية طويلة، تُعلن أفارقةً ضاحكين يدخنون السجائر، أو يحتسون المشروبات الخفيفة، ويستعلمون مكائن خياطة.

القطع تتحول إلى حيازات صغيرة، وغابة ثانوية. قليلٌ من الأفارقة هناك، يمشون في غالبهم، وواحدٌ أو اثنان على درّاجات هوائية عتيقة. ثيابهم مرقّعة بمنكسرات عريضة حمراء، زرقاء، صفراء، خضراء، الأسلوب البلدي. كان بوبي يقول شيئاً عن إحساس اللون الإفريقي. لكنه تحاشى ذلك، إذ سيكون القول جدّ لصيق بموضوع الرسّام.

شرعت الأرض تنحدر، وصار المنظر أكثر اتساعاً وامتداداً. وبدت البلدة الهندية-الانجليزية بعيدةً بالفعل. في جانب من الطريق كانت الأرض ذات مُرْتبَيات، مثل تلال نملٍ علاها العشب. وكل مرتبىً هو موضع شجرةٍ مقتلَعة. أرضٌ خرابٌ الآن، عراء، لكن قبل سبعين سنة فقط هنا، كان الأفارقة الذين نراهم يعيشون على الطريق، مختبئين عن العالم، في حمى غاباتهم.

ياك-ياك. في البداية هدير بعيدٌ فقط، وسرعان ما صارت الهليكوبتر فوق الرأس، وظلت برهةً هكذا، وقد مسهًا الآن نور الصباح، تغطي ضجة السيارة، ونبض محرّكها. انعطف الطريق في منحدر التل،

حيناً في الضوء الأصفر، وحيناً في الفيء الرطب. ابتعدت الهليكوبتر، وعاد صوت الريحِ وعجلاتِ السيارة.

من حنب أكوام فاكهة وخضروات ركض في الطريق صبيانٌ أفارقة ثقالُ الأطراف، يرفعون اللهانة* وزهرة القرنبيط. حوادث وقعت هنا. والسوّاق المذنبون تعرَّضوا للضرب من الجموع الغاضبة المتجمعة بسرعة من الغابة المحاذية للطريق. أبطأ بوبي السير. انحنى على مقود السيارة ولوَّح تلويحة خفيضة للصبيّ الأول. الصبيّ لم يستجب، لكن بوبي ظل يبتسم ويلوِّح بيده حتى اجتاز الصبيان كلهم. وإذ تذكَّر ليندا عاد إلى تيقظه.

كانت رزينةً، مفعمةً ببهجتها. وعندما قالت: "ألاحظتَ حجم زهرات القرنبيط تلك؟" كانت كأنها لم تعرف أنهما يتخاصمان.

قال، واجماً: "نعم. لاحظتُ حجم زهرات القرنبيط".

"أنا مندهشة لذلك".

"أوه؟".

"حماقةٌ مني طبعاً، لكني لم أظنَّ، بتاتاً، أن لديهم حقولاً. تخيّلتُهم جميعاً يعيشون في الغابة. وعندما أخبرني مارتن بأننا عُيِّنّا في الكولكتوريت الجنوبية ظننت أن سكننا سيكون في مُنفَسَحٍ صغير وسط الغابة. لم أفكر، قطّ، بطرقٍ وبيوت ومخازن-".

"ومذياعات".

"وكان مضحكاً. عرفتُه مضحكاً، لكني رأيتُهم منحنين على رماحهم تحت شجرة، أو متحلقين وقوفاً حول مذياع قديم الطراز، كبير.صوت سيِّده".

---

* الكرنب

قال بوبي: "هل تتذكرين ذلك الأميركي من المؤسسة الذي طلع علينا كي يشجعنا على الإحصائيات وما إلى ذلك؟ أخذتُه في جولة بالسيارة في أحد الأيام، وما أن صرنا خارج البلدة حتى تملّكه الرعب. وظل يسأل "أين الكونغو؟ أذاك الكونغو؟" كان مرتعباً تماماً طيلة الوقت".

الطريق الآن مشقوقٌ في التل، والمنعطفات صارت أشد حدّةً. وهناك علامة تقول: احذر الصخور المتساقطة.

قال بوبي: "هذه واحدة من علامات المرور المفضّلة لديّ. أنا أبحث عنها دائماً".

"دقيقة جداً".

"أليست كذلك؟".

ذهب تحفُّظه، وتصعب عليه الآن استعادته. لقد صار وليندا، بالفعل، رفيقي سفرٍ، يُعجبان بالمناظر، ويجدان حديثاً في كل شيء.

قالت ليندا: "أحبُّ الخروج الباكر هذا، إنه يذكرني بصباحات الصيف في انجلترا. مع أني في انجلترا لم أحبب الصيف بتاتاً، وهذا يجب أن أقوله".

"أوه؟".

"شعرت دوماً بأن عليَّ إمتاع نفسي، لكن لا يبدو أنني أفعل ذلك. اليوم يمتدّ ويمتدّ، وأنا لا أستطيع أن أجد الكثير مما أفعل. الصيف يجعلني أحسُّ على الدوام بأنني أفقد الكثير. أنا أفضل الخريف. أكون أكثر تماسكاً. أرى الخريف هو الفصل العظيم للتجدُّد. كله حديث بنات، أنا متأكدة".

"لن أقول حديث بنات. أقول غير مألوف. مرةً كان عندي طبيب

نفسانيٌ يظن أننا جميعاً نتذكر الموت في تشرين.وقال إنه ما أن أدرك هذا حتى توقَّف وَجعُ عظامه في الشتاء. طبعاً في الوقت نفسه كان يشغِّل التدفئة المركزية".

"فكّرتُ على نحوٍ ما، يا بوبي، بأن عليك أن تجد طبيباً نفسانياً".

الآن تعود نابهةً. "أخبرني بالضبط مِمَّ تشكو".

قال هادئاً: "حصل لي انهيارٌ فِي أكسفورد".

تكلّم بمنتهى الهدوء. ليندا ظلت نابهةً. "منذ أمدٍ طويل أردت أن أسأل أحداً عانى انهياراً. ما الانهيار بالضبط؟".

إنه لأمرٌ كان عرفَّه أكثر من مرة. لكنه تظاهر بالبحث عن الكلمات: "الانهيار هو كما تراقب نفسك تموت. حسناً. تموت. لا. إنه كما تراقب نفسك وأنت تستحيل شبحاً".

جارتْه في نبرته: "هل استمرَّ طويلاً؟".

"ثمانية عشر شهراً".

لقد تأثَّرتْ. بإمكانه أن يقول ذلك.

مع ضحكة، كما لو أنه يتكلم مع طفل، قال: "انظري إلى تلك الشجرة البهيّة".

أطاعته. وبعد أن نظرت إلى الشجرة، قال بوقار: "إفريقيا أنقذت حياتي". كأن قولته هذه تصريح كاملٌ، يشرح كل شيء، وكأنه كان في الوقت نفسه يعاقب كلَّ من أساء فهمه ويغفر له.

لقد أخمدتْ . لم تعد تجد ما تقول.

هذا هو المنظر الشهير. هذا هو الإنفتاح الذي وعدت به السماء. الأرض تهبط وتهبط، والقارة هنا تنفسح انفساحاً جبّاراً. العين تفقد

ذاتها في الأبعاد عديمة اللون للوادي الواسع، وهي تنحلُّ في كل اتجاهٍ غيماً وهَيدَباً.

قالت ليندا: "الجو باردٌ جداً".

"لن تصدِّقي أنك على خط الاستواء تقريباً".

كلاهما كان شاهد المنظر عدة مرات، لكن أياً منهما لم يشأ أن يقول شيئاً ربما كان الآخر سمعه من قبل،أو أن يقول شيئاً جدَّ عجيب.

قالت ليندا أخيراً: "إنه فعلُ الغيوم. حين جئنا للمرة الأولى ظل مارتن يلتقط صوراً فوتوغرافية للغيوم طيلة الوقت".

"لم أكن أعرف، قطّ، أن مارتن مصورٌ فوتوغرافي".

"لم يكن. فقط اقتنى آلة تصوير. اعتاد أن يستعمل اسمي حين يبعث بفيلمه للتظهير، حتى لا يعتقد واحدٌ في محل كوداك أنه هو التقط الصور. أظنهم تلقَّوا قمامة كثيرة. وبعد أن تعب من الغيوم شرع يزحف على يديه وركبتيه يلتقط صوراً للديدان ولأضأل الزهور البرية التي يجدها. آلة التصوير لم تكن مجهَّزة لهذا. وكل ما حصل عليه كان صوراً مشوَّشةً بالأخضر- البنّي. والناس في محل كوداك دأبوا على إعادة كل مشوَّشاته، معنونةً إليه".

كادا ينسيان المنظر.

قال بوبي: "الجو باردٌ جداً هنا".

اجتازتهما سيارة فولكس واجن، خارجة من البلدة. رجلٌ أبيض كان وراء المقود. أطلق بوقه طويلاً حاداً عندما رأى بوبي وليندا، وأسرع منحدراً على التلّ.

قال بوبي: "لستُ أعلمُ، أمام من أتباهى".

ليندا رأت الأمر طريفاً.

قال بوبي وهما يجلسان في السيارة ثانيةً: "غير معقول، لكني أشعر بأن ذلك كله-" وأشار إلى الوادي "يعود إليّ".

كادت تضحك. مالت إلى أمام، الآن، وضحكت "غير معقول، يا بوبي، أن تقول مثل ذلك".

"لكنك تعرفين ما أعني. لا أستطيع أن أتحمّل النظر إلى هذا إن لم أعرف أنني سأنظر إليه ثانيةً. تعرفين"، قال وقد عدَّل من جلسته، ثابتاً، مثل تلميذ سياقة، ينظر شمالاً ويميناً: "لم أعرف، بتاتاً، أن موضعاً مثل إفريقيا موجود. لم أكن معنيّاً. أظنني كنت مثلك، أفكر برجال قبائل ورماح. وبالطبع أنا أعرف عن جنوب إفريقيا".

"الآن تذكرتُ. نحن لم نسمع الهليكوبتر منذ حين".

"طائرات الهليكوبتر قصيرة المدى. كأن هذا الشيء الوحيد الذي تعلمته في القوة الجوية".

"بوبي!"

"الخدمة الوطنية فقط".

"أتظنهم أمسكوا بالملك؟".

قال بوبي: "لا بد أن الأمر فظيعٌ بالنسبة له. أن يُضطرَّ إلى الهرب من الأوباش* . أنا في الأقلية حيال هذا. أعرفُ ذلك، لكني وجدت الرجل مَدْعاة تأثُرٍ دائماً. كان أكثر انجليزيةً مني بكثير. سوف نرى ماذا

* Wogs : تعبير ذو نزعة عنصرية استعمله البيض تجاه السود، ثم تجاه الهنود والعرب. في سياق النص المقصود بالأوباش هم السود.

يستطيع أصدقاؤه الأذكياء في لندن أن يفعلوه من أجله الآن. أي رجلٍ أحمق.

كأني متأكدٌ من أن بعضهم ورّطه بكل هذا الكلام عن الانفصال وما إلى ذلك".

"أقول، الحانة خانقة هنا، مع كل هؤلاء الأوباش، ماذا؟".

"وهم يجدون الأمر جذّاباً مسلّياً. عليّ القول إني لم أفعل هذا البتة. تعرفين، سيكون هناك قْدرٌ فظيع من النقد المنبني على أضاليل. ولن نستثنى من ذلك.

خدمة الأنظمة الإفريقية الدكتاتورية ونحو ذلك".

قالت ليندا: "أمرٌ يقلق مارتن".

"إوه!".

"النقد".

قال بوبي: "أنا هنا لأخدم. لستُ هنا لأعلّمهم كيف يديرون بلادهم. إذ حصل الكثير من هذا. أي نوع من الحكومات يختارها الأفارقة ليس من شغلي. هذا لن يغير حقيقة أنهم محتاجون إلى الطعام والمدارس والمستشفيات. الناس الذين لا يريدون أن يخدموا، لا مكان لهم هنا. قد يبدو هذا قاسياً، لكني أرى الأمور بهذه الصورة.

لم تستجب.

قال: "ليس موقفاً ذا شعبية. أعرف ذلك. ماذا تقول دوقتُنا؟".

"الدوقة؟".

"هكذا أسمّيها".

"تقصد دوريس مارشال؟".

"إنني أميلُ ناحية السود. أليس هذا ما تقول؟".

ابتسمت ليندا.

قال بوبي: "قولٌ أصيلٌ. لكني لا أعرف سبباً لاعتقادنا أن الأفارقة بلاعيون. تظنين أن الأفارقة لا يعرفون أن آل مارشال على السكة الحديد القديمة لجنوب إفريقيا؟".

"إنها إفريقية جنوبية".

قال بوبي: "مثل ما تذكر للجميع".

"وهي فخورٌ بهذا، ياعزيزي".

"عندما كنت أدرس الأتيكيت في جنوب إفريقيا-".

قالت ليندا: "تماماً. تماماً".

"أعتقد أن الأمر سيكون أفضل للجميع، لو أنهوا شدَّ الخناق على دنيس مارشال وأرسلوا الإثنين عائدين إلى جنوب إفريقيا بأسرع ما يمكن".

أعادت ترتيب اللفاع حول شعرها، وأنزلت زجاج النافذة قليلاً.

قالت واستنشقت نفَساً عميقاً: "الجو باردٌ تقريباً. هذا هو اللطيف في العاصمة. النار المفتوحة".

بعد الطريقة التي كانا يتحدثان بها للتو، أزعجتْهُ عاديّة الأجنبي المقيم. فقال: "اللطيف في العاصمة هو هذا. العودة منها بالسيارة. لا أظنني سأتعب من ذلك بتاتاً".

"اسكتْ. ستجعلني حزينةً".

"ثمت شيء ممتاز لسومرست موم قرأتُه في موضعٍ ما. أعرف أنه غير محبوب كثيراً هذه الأيام. لكنه قال إنك لو أردتَ الأفضلَ فقط،

وسعيتَ إليه، سعيتَ إليه حقاً، فلسوف تناله عادةً. عليّ القول إنني بدأتُ أشعر هكذا. أشعر أننا قادرون، دوماً، على أن نفعل، ما نريد حقاً أن نفعله".

"هذا يسيرٌ بالنسبة لك الآن، يابوبي. لكنك كنت تقول إنك في أحد الأوقات لم تكن حتى لتعرف أن موضعاً اسمه إفريقيا موجودٌ".

"أعرف الآن".

"أنا أعرفُه أيضاً. لكنه لا ينفع. أنا قد أودّ البقاء، غير أني أعرف أنني لا أستطيع".

أغلقت النافذة، وتنفّستْ عميقاً ثانيةً. نظرت إلى الوادي العريض. قالت: "لو لم أكن انجليزية، فأظنني أريد أن أكون من الماساي. إنهن فارعات الطول، أولئك النساء، وجميلات جداً".

ثناءٌ على إفريقيا: اعتبر هذا علامة على موقفها الجديد منه. لكنه قال: "كم انت مستوطِنةٌ في كينيا. السود الرومانسيون هم السود المتخلفون".

"أهم متخلفون؟ كنت أفكر بأكواخ النانياتا أو ما إلى ذلك. مثل الرسوم في كتاب جغرافية. انت تعرف. كوخك الصغير. سياجك العالي. وأنت تعود بماشيتك ليلاً كي تحميها من المغِيرين".

"هذا ما قصدتُه. بيتر بان في إفريقيا".

"لكن، ألا يؤثر فيك الجانب السابق للإنسان في إفريقيا، أحياناً؟".

لم يُجب. الإثنان كلاهما، شعرا بالضيق.

قال: "لا أستطيع أن أراكِ في مانياتا. عليّ قول هذا".

تقبّلتْ ذلك.

قالت بعد قليل: "المغيرون. أنا أحبّ هذه الكلمة".

لم يعد خلوّ الطريق مضموناً. حركة النقل إلى العاصمة خفيفة، لكنها دائبة: شاحنات قديمة. سيارات صهاريج يقودها سيخٌ ذوو عمائم، سيارات أوربية وآسيوية قليلة، وسيارات بيجو طويلة يقودها أفارقة، جديدة في غالبها، مسرعة دوماً، موسوقة بأفارقة مترنحين. سيارات البيجو هذه هي سيارات أجرة البلد للمسافات الطويلة. إحدى هذه السيارات، زاعقة البوق، فاجأت بوبي وتجاوزته في سفحٍ حادٍّ. الأفارقة في مؤخرتها التفتوا إلى الوراء كي يبتسموا. أشاحت ليندا عنهم. استمر البوق. وفجأةً انعطف الطريق والتمعت الأضواء الحمر لكابح البيجو.

قال بوبي: "لا أفهم لماذا يسوق أناسٌ سياراتهم بالكابح".

قالت ليندا: "للسبب ذاته الذي يجعلهم يبيعون إطاراتهم الإحتياطية".

استدارةً إثر استدارة، وأضواء الكابح تبرق متقطعة، مضت البيجو. قالت ليندا: "من الأمور التي لاحظتُها حين جئت للمرة الأولى، أن كل من لقيته تقريباً مرَّ بحادث أو عرف من مرَّ بحادث. وهناك في المجمَّع أناسٌ عديدون ذوو جبائر حتى كأنك في منتجع للتزلُّج".

كانت فكاهةً قديمة. لكن بوبي ضحك لها. "وقع حادثٌ هنا تماماً، قبل وقت غير بعيد. إذ أن أحد أصدقائنا السيخ، السنجر-سنجر، أطفأ المحرك، كي ينحدر، لكنّ هذا أغلق المقود".

"ماذا حدث؟".

"خرج عن الطريق، وقُتل".

"كلما رأيتَ سيارة مرسيدس وسط الطريق فتأكَّدْ أن آسيوياً وراء

العـجلة. أنا لا أتحـمّل تلك الدكـاكين. هم لا يبـيـعون للأفـارقـة علبـة سجائر. بل يبيعونهم سيجارة أو اثنتين كل مرة. إنهم يجمعون ثروة من الأفارقة".

"طريقـة جيـدة للحصـول على شيء منهم وهي أن تقـول، "مـرحـباً، أليس هذا من صنع جنوب إفريقيا؟"، ولسوف يرتعبون حتى ليقدموا لك الدكان مجّاناً".

سكتتْ آنذاك، وقد أحسّت بأنها مضت أبعد من اللازم.

أخيـراً، صار أسفل السفح، وفي بطن الوادي. الشمس كانت ترتفع. الأرض نظيفة مفتوحة. والدفء في السيارة. أنزلت ليندا النافذة قليلاً جداً.

في الطرف الآخر من الوادي كان الجرف غـائم المرأى، واللون واهيـاً مـثل وهم ضوءٍ وبُعدٍ. كانا مـتجهين نحو الجرف، نحو الهـضبـة العاليـة. والطريق أمامهما مَستقيم.

ستون، سبعون، ثمانون ميـلاً في الساعة: كان بوبي يسـرع بلا جهدٍ أو تفكيـر بفعل الطريق. هنا، بعـد استـدارات سفـح الـتل، بدأت مغـامـرة السـيـاقة، سرعـةً ومـسافـة وتوتراً. وإذ ركّزَ بوبي اهتـمامه على السـيـارة والطريق الأسود صار إحساسه بالزمن أكثـر حدّةً. فبدون النظر إلى ساعته كان بمستطاعه أن يقيس أرباع الساعات.

مبنى خشبيّ متداعٍ، تحذير بإبطاء السير، على لوحة بجانب الطريق حمراء وبيضاء، ناصلة، ثم على الطريق نفسه بحروف بيضٍ طويلة.

استدارة إلى اليمين عبر المسرب الضيق، سكة حديد موحشة المرأى، ثم يتـحـول الطريق العـام إلى دربٍ رئيـسٍ متـهـالك لمستـوطنة مـتناثرة:

صفيح ولوحٌ عتيق، أسيجة ملتوية، سياج من الأسلاك طويل عليه علامات خطر بالأحمر، دروب ترابية مكسوّة بفروع الشجر، شجر يعلو من باحات متربة، دكاكين متداعية ترتفع على الأرض. ثم، حشدُ أفارقةٍ يضيِّق الطريق.

كانوا يرتدون قبّعات لبّادٍ مخروطية الأعلى، مُرخاة الحوافّ. وكثيرون كانوا يرتدون سترات ٍطويلة متهدلة، بنّية أو رمادية داكنة، تبدو مثل ملابس أوروبيين متشردين. عددٌ قليل من الرجال والنساء كان يلبس ثياباً ذات رُقع زاهية. رجلان أو ثلاثة مع أقلام ولوحات كانوا يحشرون الأفارقة في شاحنات مفتوحة ذات هياكل ظُلَلٍ عالية. رجال شرطة ذوو بدلات سوداء كانوا يراقبون.

قالت ليندا: "هم متململون اليوم".

بوبي الذي كان يقود سيارته بمنتهى البطء، ترك المزحة تمرّ. حدَّقَ الأفارقة من الطريق، وحدَّروا النظر من الشاحنات، وجوههم السود بلا ملامح تحت قبّعاتهم اللبّاد. بوبي بدأ تلويحةً منخفضة لكنه لم يكملها. ليندا وهي تواجه النظرات عدّلت من وضع لِفاعها، ونظرت نظرة مستقيمة إلى أمام. ظل بوبي يقود سيارته ببطء حتى بعد تجاوزهم الحشد، حريصاً على ألاّ يبدو كمن يفرّ. في المرآة التي تعكس المشهد الخلفي أخذ الأفارقة يتضاءلون حجماً بوجوههم الممسوحة ورُقعهم وقبعاتهم. خارج المستوطنة، وبعد منعطف، تأكّد بوبي ثانيةً: الطريق خلفه خالٍ.

الضوء يؤذي. وضعت ليندا على عينيها النظّارة السوداء. الشجر الخفيض ممتد في كل اتجاه كأنه لا ينتهي إلا مع الجبال غائمة المرأى. في

السماء العالية تتكاثف الغيوم بسرعة من مجرد قُزَعٍ بيض إلى فضية وسوداء، غيوم العاصفة ثم تنحلّ، وتتشكّل مختلفةً. بوبي ولندا لم يتكلما. ومضى حينٌ قبل أن يسرع بوبي بسيارته ثانيةً.

قالت ليندا: "أتعرف ما سيفعلونه؟ أتعرف؟"

بوبي لم يُجب.

"إنهم ذاهبون ليحلفوا يمينَ الكُره. أتعرف معنى ذلك؟ أتعرف الأشياء القذرة التي سيفعلونها؟ النجَس الذي سيأكلونه؟ الدم، الخراء، الأوساخ.

"أصدِّقك الآن. كان هذا يتمُّ طيلة العطلة الأسبوعية في العاصمة".

"هناك قدرٌ شنيعٌ من الشائعات في العاصمة. وبعضهم يصرُّ على إثاراته".

"الكره إزاء الملك وقوم الملك. وإزاءك وإزائي. بمقدوري الاستغناء عن ذلك النمط من الإثارة".

"أعرفُ. أعرفُ. أنت تفكرين بالأيمان، تفكرين بالإرهابيين، والمُدى الطويلة لكن المسألة ليست هذه الآن، لحسن الحظ. وأنت تعرفين، أن كل ما أظنّهم يفعلونه هو أكل قطعة لحم. بل لا أظنهم يأكلونها. إنهم يعضّون عليها فقط".

"حسناً. أفترضُ أن الذهاب إلى مقر الحكومة لأكل الأقذار وشَبْك الأيدي والرقص العاري في الظلام ليس أفضل أو أسوأ من الذهاب للتوقيع على سجلّ الزوّار".

ضحكتْ. أنهت الحالة.

قال بوبي: "عليّ القول إنني لم أحبب تلك الأنظار التي وُجِّهت إلينا

هناك، وللحظةٍ أشعرتني أننا عدنا إلى سالف الأيام. لم أكن لأكره أن أكون هنا آنذاك، وأنت؟".

"أوه. لا أدري.م أعتقدُ أنني كنت سأتكيّف. أنا أتكيّف بسهولة فائقة".

"تُرى، ألسنا غيورين قليلاً من الرئيس وقومه؟ في وقت كهذا نشعر أننا مستبعَدون، ومن الطبيعي أن نستنكر الأمر. أنا متأكد من أننا سوف نودّهم أكثر لو كانوا أكثر ليونةً. مثل الماساي. شخصياً أقول إنني لم أجد أي ...."تحامُل".

فوق نظّارتها السوداء ارتعش جبينها الضيّق.

"أوه. الأمرُ سهلٌ لك، يا بوبي".

"ماذا تقصدين؟"

"أعتقدُ أن المطر سيهطل عصر هذا اليوم. بمجرد خروجنا من الطريق المعبَّد. أنا أنظر إلى تلك الغيوم تتكدس هناك. لو سافرتَ كثيراً مع مارتن لاهتممت بمتابعة الغيوم. ذلك الجزء غير المعبَّد من الطريق هو كابوسي. نصف ساعة من المطر، حسب، ويتحول إلى وحل. لا أتحمل الإنزلاقات. كأنك في هزّة أرضية. الإنزلاقات فقط تجعلني متهسترةً حقاً. هي والهزّات الأرضية".

"لا أستطيع القول إن الغيوم "تتكدس"....."

"مع هذا، ألن يكون رومانسياً لو وجب علينا أن نُمضي الليل عند العقيد، نرقب المطر هطّالاً منحدراً عبر البحيرة؟".

"هو بالضبط ذلك النمط من الشخصية التي أفضّل تجنُّبها. كلُ ما أسمعه عنه يقودني إلى تصديق الأفارقة".

"بوبي. انتبه. عندما ذهب آل مارشال إلى هناك أول مرة، طلبتْ نبيذ بورت وليموناً".

"عجباً!".

"عزيزي. اكتفى بأن رفع ذراعه العجفاء وأشار إلى الباب وصاح "اخرجا" حتى خادم البار قفز".

"اتيكيت جنوب إفريقيا. أغفرُ له ذاك.بل أكاد أقول إنها نقطة لصالحه. لكن لماذا تقولين إن الأمر سهلٌ لي؟"

"أوه، بوبي، لقد تناولتُ هذا كثيراً مع مارتن. يبدو إننا نتحدث عن شيء آخر. عندما كنت فتاةً أحتضنُ سومرست موم (ي)، وأطّلع على العالم الواسع لم يخطر ببالي،حتى في الحلم، أن أصرف هذا القدْر من حياتي الزوجية شقيةً بأمور مثل "شروط الخدمة".

قال بوبي: "أوغونا وانغا-بتيري هو الأعلى مرتبةً مني، هو رئيس (ي)-. أنا أبدي له الاحترام. وأعتقدُ أنه يحترمني".

"آسفة، لكنّ هذه الأسماء حين تسقط من شفتيك هكذا، تبدو مضحكة جداً".

"أشعرُ بأن على الأوروبيين أن يلوموا أنفسهم إن كان هناك أي تحاملٍ إزاءهم. يومياً يتنقل الرئيس في أرجاء البلاد، ويقول لشعبه أنهم يحتاجوننا. لكنه ليس أحمق. فهو يعلم أن العاملين الكولونياليين القدماء يريدون أن يأخذوا أي بنسٍ يستطيعون الحصول عليه قبل أن ينحدروا جنوباً. أنا أضحك لهذا. نحن نقدم دروساً للأفارقة عن الفساد. لكن ثمت الكثير من الشقاء والحديث عن التحامل حين يحاولون إحباط ألاعيبنا المالية الصغيرة. وهي، حقاً، ليست صغيرة.نحن كنا نصرف

الآلاف على مخصصات أمتعةٍ ممّا وراء البحار، أمتعةٍ لم تُرسَل إلى أي مكان".

قالت ليندا: "كان حسناً أن تكون أمتعة".

انصرف انتباهُها. وتلاشى مزاجُها الفكه. وجبينها الهزيل وقد تقوّسَ حاداً من الشعر الخفيف السبط تحت لفاعها، بدأ يشعّ، وفوق نظّارتها السوداء بدأت خطوط القلق تظهر.

"بوسوغا- كيسورو أتاني بالأوراق. قال، بوبي، طلبُ دنيس مارشال قُبِل ودُفع. لكننا نعرف أنه لم يأخذ معه أي أمتعة في هذه الإجازة الأخيرة. ماذا نفعل؟ ما الذي أستطيع قوله؟ أعرف جيداً أن الحديث سوف يدور مع أكواب القهوة عن "عدم ولاء" (ي). لكن، مَن أوالي؟ قلت لـ"ب.ك": أعتقد أن هذا الأمر ينبغي أن يُرفع إلى الوزير".

كان يبالغ في دوره كثيراً. كان يثرثر كثيراً. وقد لحظ ذلك، لحظ أنه يفقد اهتمام ليندا به. مال على المقود، وابتسم للطريق، وتحرّك في مقعده متزحزحاً وقال: "أين سنتوقف لشرب القهوة؟".

"في دار الصيد؟".

لم يوافق. لكنه قال: "أي فكرة جيدة! سمعت أن المكان تحت إدارة جديدة".

قالت بطريقتها الجديدة غير المنتبهة: "بعد جنون الأملاك".

"الآسيويون انتفعوا كثيراً بذلك".

لم تُجب. وصمت هو. كان يريد أن يزيل انطباع الثرثرة، أن يبدأ منذ البداية، ذلك الرجل المتحفظ. لكن الشخص الرصين الآن: هي.

امتدّ الطريق، أسود مستقيماً، بين الشجر المستوي.

قال بعد حين:"أظنكِ محقّة. الغيوم تتكدس. في أوقاتٍ كهذه لا يعرف المرء إن كان سيسرع أم سيبطئ".

كان مزاجه تصالحيّاً. لم تبذل جهداً لمجاراته. قالت بحزم: "أريد قهوة".

نظر إلى الطريق.

قال: "سمعت أن سامي كيسيني لم يكن بالشخص السهل. لكني لم أعرف أن مارتن كان غير سعيد هكذا".

تأوّهت. وسكن بوبي. ارتدّ بظهره إلى المقعد. أمّا ليندا فلمزيدٍ من الإسكات، ولزيادة التوتر، أعادت ترتيب شعرها ولفاعها مؤكدةً شخصيتها.

بعيداً، على الطريق، التمتع شيء ما. كان أكثر من سراب.ركّز عليه. كلبٌ مشوّه قالت ليندا: "سُعدتُ برؤيته. كنت أنتظرها"، كانت نبرتها غامضة، "عليك دائماً أن ترى واحداً".

"إذاً، ستغادرين؟".

"أوه، بوبي، الأمرُ مختلفٌ جداً لديك. العمل مستمرٌ في دائرتك، وهناك ما يُعرَض على الدوام. لكن الإذاعة هي الإذاعة. وعليك دائماً أن تبثّ برامج. وعندما تكون إذاعيّاً، مثل مارتن، فأنت تعرف متى تبثِ قمامةً. أكيدٌ أن المجيء إلى هنا، والتخلي عن الـ بي بي سي، كان من أجل أن تفعل شيئاً أفضل قليلاً من ذلك. أظنُّها غلطة مارتن بطريقة ما. هو لم يكن، قَطّ، أحد المتسلقين".

"نعم. نعم. عن الإذاعة. أشعر أنهم يُبالغون في السياسة والخطب. يمكن القيام بقليلٍ من التحرير".

"حين أفكر بأن مارتن عُرِض عليه منصب "مدير منطقة". لكنه قال: لا، هذا بلدٌ إفريقيّ. والمنصب لشخص مثل سامي".

"قيل إن سامي أمضى وقتاً صعباً في انجلترا".

"طبعاً، لم يكن الأمر كارثة. فلا يزال في الـ بي بي سي أناسٌ يتذكرون مارتن. وعندما كنا هناك في الإجازة، العام الماضي، قال أحدهم لمارتن في النادي: "لكنك ذو سلطة عالية هناك، أليس كذلك؟".

"بالتأكيد. لا أحد يحطم مهنته بالمجيء إلى هنا. هكذا تظنين أنكما ستعودان إلى انجلترا".

"على المرء أن يفكر بالمستقبل. لكن انجلترا: أنا لا أعرف. مارتن وضع مجسّاتٍ هنا وهناك. لا شك في أن أمراً سيحدث".

"أنا واثقٌ من ذلك. لكن السؤال ظل بلا جواب. أين تظنينه حادثاً؟".

انتظرَ.

قالت: "الجنوب".

قال: "حياتي هنا".

3

الشجر الواطئ، على مستوى معين، بدا كأنه يمتد على طول الطريق إلى الجرف عبر وادٍ منبسط. لكن الأرض، لفترة معينة، كانت تتشقق وتخضرّ أكثر. الجرف ما زال يرسم حدود المنظر، لكن بصورة أقلّ فظاظةً فأقلّ. ثمت الآن تلالٌ وطيئةٌ، متّسعة، منعزلة عن بعضها، وأشجارٌ في البعيد تشي بماءٍ وجداول، وهنا وهناك حقولٌ مُرتبيةٌ تحكي عن غاباتٍ

سالفة. طرقٌ ترابية شرعت تتصل بالطريق العام، وعلامات مرور بسيطة تذكر أسماء أماكن على مبعدة عشرين، ثلاثين، ستين ميلاً. لوحات إعلان صغيرة قليلة. حركة النقل لا تزال خفيفة.

قالت ليندا بصوتها الغامض: "هذا هو تَلّي المفضل على هذا الطريق. كأن يد عملاقٍ خمشت السفح إلى أسفل".

كان الوصف دقيقاً. وهذا ما أحسَّ به بوبي نفسه إزاء التل.

قال: "نعم".

أمامهما، دخلت الطريقَ العام من طريق جانبي، شاحنةٌ مقفلةٌ مغطّاة. كلاب صيد من نوع البيجل تُتلع رؤوسها من الباب الخلفي للشاحنة. وبمؤخرة الشاحنة تعلّق إفريقيّان متعرضَين لخَبْطاتٍ قوية، وهما يرتديان سراويل وجزمات لركوب الخيل، وقلانسَ حمراً، وستراتٍ.

قالت ليندا: "أي جزء غريبٍ من إفريقيا".

استقامت ليندا في جلستها، وتناولت حقيبتها من الأرض وأخرجت علبة مستحضرات تجميلها. وأخذت تجمِّلُ وجهها. اختفى طبعها الغامض. وصار بوبي الآن هو الشخص الكئيب.

قالت وهي تنفض البودرة، وتنظر في المرآة اليدوية بعينين مُضيِّقتين:

"عندما كنا في غرب إفريقيا تلك الشهور القليلة، ما كنتَ لتقول إن الأفارقة هناك كانوا انجليزاً بعيدين. لكنك ما أن تجتاز الحدود إلى المنطقة الفرنسية حتى ترى السود هناك، تماماً مثل سُودنا، جالسين على الناصية يأكلون الخبز الفرنسي ويشربون النبيذ الأحمر ويعتمرون البيريه الفرنسية.

والآن تأتي إلى هنا وترى هؤلاء السائسين الإنجليز السود".

بدأ الطريق ينعطف، ولم يعد السبيل أمامهما واضحاً. ظَلا خلف الشاحنة ذات الكلاب المتعاوية المهتمّة. السائسان يعانيان السيارة بطريقة غير ودية. أعلنت علامةٌ عن "دار الصيد" على مبعدة ميل.

قال بوبي: "علينا الإسراع، فأنا لا أودّ طريقة تكدُّس الغيوم هناك".

"قلتُ لك إني الخبير".

الطريق الذي انعطفا داخله يهبط بصورة حادّة من تَعْلية الطريق العام، ويمتدُّ معتم الحمرة ضيقاً، ذا آثار عجلات عميقة، قريباً من سلسلة مرتفعات مركزية، بين حقول محدودبة. كان المطر هطل أمس أو هذا الصباح الباكر. هبطت السيارة في آثار العجلات، ووثب المقود في يدي بوبي.

قال بوبي: "لم تجفَّ بعدُ. المطرُ، إذاً، كان غزيراً جداً".

"سيهطل المطر ثانيةً، في الحال". قالت ليندا ذلك، لكنها لم تَبدُ قلقةً.

انعطف الطريق، متتبعاً منخفضاً ضحلاً بين منحدرَين هيِّنين.

الخضرة أطبقت على بوبي وليندا، والطريق العام اختفى. غير بعيد عنهما كان خط أشجار، بعضها بيضاء عارية من الأوراق، يعيِّن مجرى جدول. بعد ذلك تعتدل الأرض من جديد، أرض حدائق.

قالت ليندا: "مثل انجلترا".

"أو إفريقيا".

بعد استدارةٍ، خلت الأرض من حدباتها، وصارت مستوية مثل سبِخة، مع لِممٍ متناثرة من العشب والقصب تشقّ السطح، كما في

السباخ. في طرف المنطقة الممهدة سرادقُ خشبيّ متداعٍ، منهار السقف تقريباً.

قالت ليندا: "بولو".

"هل يلعب مارتن البولو؟".

أثناء مرورهما، شاهدا الطلل قائماً. الضوءُ بادٍ خلل الألواح الساقطة في الجدار الخلفي، في الأعلى وبين الألواح المكسورة للدّرجات في الأسفل، حتى ليبدو السرادق مثل شكلٍ رمادي داكن مقطوعٍ على خلفية من الخضرة. لم يشيَّد السرادق ليبقى. كان مثل بناءٍ قد يبنيه الجيش ليتركه وراءه.

قالت ليندا: "أتظن كلاب البيجل تلك ستعود إلى أهلها آن يحين الوقت، أم أنها ستغدو متوحشة؟".

يمتد الطريق بجانب خط من الأشجار، عند ضفة الجدول كانت الأشجار ميتة، غريقة الجذور. الماء يهدر فوق الأحجار ويُسمع أعلى من صوت محرِّك السيارة. أحياناً تُمكن رؤية الجدول نفسه، ممتلئاً موحلاً.

قال بوبي: "يا للّه. يجب أن يكون المطر هطل عزيراً".

انحرف الطريق، التوى وصعد. صخور منكسرة جُرفت على الطريق هنا وهناك وبدت ناتئةً حيث انجرف التراب المحيط. تمايلت السيارة لكنها لم تنزلق. استوى التل، وصار مفتوحاً، فلبغا "دار الصيد": سقيفة مكتب منفصلة صغيرة مزيَّنة، تتميز بقاعة من اللوح تقلِّد أسلوب الروّاد، والأسلوب التيودوري، وبصفَّين من الأكواخ المستوية على الأرض ذات سقوف قرميد ومداخن ونوافذ بابيّة خشنة تعلو أفواف الزهور منحنية من المطر الأخير.

سيارة فولكس واجن بيضاء كانت متوقفة في الساحة، وتظهر آثار عجلاتها جديدةً على الرمل الرطب. تعرَّف بوبي عليها باعتبارها الفولكس واجن التي تجاوزتها حين توقّفا ليشاهدا المنظر. السائق، الرجل الذي أطلق البوق، كان ينتظر، قصيراً، قوياً، في حوالي الأربعين، وبنظّارة سوداء، وسروال خاكي عريض وقميصٍ رياضيّ تقليديّ.

بوبي، وقد أحسّ بليندا طريةً متنبهةً إلى جانبه، تساءل عمّا جعله ينسى. وتساءل أكثر عمّا جعله يسمح لنفسه بأن يُجلَب بهذه المباشَرة إلى "دار الصيد".

قرّر أن يكون جَهْماً.

أوقف سيارته عابساً.

"الوقت متأخرٌ جداً على القهوة". قال رجل الفولكس واجن. كان أميركياً معتدل اللهجة.

قالت ليندا: "ربما كان الوقت مناسباً للغداء".

أمّا بوبي، وهو يغلق باب السيارة، ولا يكاد يرفع بصره: "لا أظنّ ذلك".

"حسناً، بوبي، كارتر".

قال كارتر، وهو ينزع نظارته السوداء، ويمدّ يده: "قميصٌ لطيفٌ هذا الذي ترتديه، يا بوبي".

وقد عرف بوبي أن ليندا كانت قدَّمت لكارتر وصفاً عنه.

قال كارتر: "يبدأون بتقديم الغداء الساعة الثانية عشرة. لكنّ علينا أن نسجِّل طلبنا الآن إن أردنا تناول غدائنا. المحل ليس مليئاً تماماً، كما ترين.حسناً، غداء؟ سأذهب أخبرُها".

قال بوبي: "أنا سأذهب".

سار نحو القاعة.

قال كارتر: "في المكتب، يا بوبي. إنها في المكتب".

التفت بوبي وابتسم، كأنه يعرف لكنه نسي. ثم فكّر أن من الحماقة أن يبتسم. وبتجهُّمٍ، جامدَ الذراع اليسرى، مزمومَ الفم الناعم، فارغ العينين، وقميصه البلدي يتواثبُ، عبرَ الساحةَ وصعد الدرجات ليدخل في سقيفة المكتب الصغير.

تحت الصورة الفوتوغرافية الجديدة للرئيس، وقد رُتِّبَ شعره على الطريقة الإنجليزية، وقفتْ امرأةٌ بيضاءُ وسطُ تكتب على نضدٍ صغيرٍ بيدها اليسرى. كانت يدها اليمنى مجبَّسةً، معلاق. صعَّدت النظر مع دخول بوبي، ثم استمرت تكتب. قد يمرّ المرء بهذا مروراً عابراً في بلادٍ أخرى، أمّا هنا فهو أمرٌ غير عاديّ. في ركن المكتب، خارج الضوء المتأتي خلل الباب، رأى بوبي شخصاً إفريقيّاً. والإفريقيّ كان يبتسم.

كان الإفريقيّ يلبس لبوس أولئك العمال الذين رأياهم ذلك الصباح يقادون إلى الشاحنات. لكن ثيابه تبدو ذات ملمسٍ شخصيّ أكثر، وذات ملمس متشردين أقلّ. سترته البنية المخططة ملطخة في عدة أماكن والنهايات المنتفخة لطيّاتها متجعدة، لكن السترة تناسب جسمه. والقميص، الدَّهِين المسودّ حول الياقة، مُعَلَّمٌ بالعَرَقِ مثل جلدٍ ثانٍ. من السيارة يبدو العمال على الطريق بلا تعبير وملامح، وجوهُهم في الظل تحت قبّعاتٍ مُرخاةٍ حتى أعلاها. لكنّ الإفريقي في المكتب كان يحمل بيده قبّعته مستديرة الأعلى، وكان وجهه مكشوفاً. كان وجهه عاديّاً مثل وجه الرئيس في الصورة الفوتوغرافية، مُبْدياً العمرَ فقط أكثر من نوعية التعبير. أما الحيوية والعاطفة فَهُما في العينين، حسبُ.

العينان ابتسمتا الآن، منتقلتين من المرأة الوسط التي تكتب على النُّضد إلى بوبي. وعندما ابتسم بوبي بدوره، لم يستجب الإفريقيّ. كانت ابتسامته جامدة.

رفعت المرأة بصرها.

"هل نستطيع أن نتناول غداءً لثلاثة؟".

"نحن نبدأ في الثانية عشرة".

كأنها لم تشأ أن تبدي مزيداً من الإهتمام إزاء بوبي بينما الإفريقيّ المبتسم يتابع ما يجري، لذا عادت إلى كتابتها.

بوبي لم ير ليندا وكارتر حين خرج من المكتب. سار في الممر المفروش بالحصا بين الأكواخ والزهور المنحنية.خارج كل باب كانت كومة من أخشاب اليوكالبتوس المقطوعة، رطبةً بالمطر. كلبٌ سَبَنيَلِيٌّ كان يبعثر إحدى الأكوام، رمادياً أسود قويَّ التشمُّم. من الأكواخ، تنحدر الأرض المفتوحة ذات الحدبات، التي كانت غابةً مؤخراً، إلى ما لايزال أرضاً غابيّةً. الجدول يهدر هناك، متميزَ المجرى بالأغصان البيض العارية لتلك الأشجار التي غرقت جذورها.

جدول غابةٍ، يأتي بأنقاض الغابة من الأشجار المنهارة. لكن بوبي رأى من الضفة العالية التي وقف عليه صخوراً ملساء وجلاميد تحت الماء الأحمر المعربِد: أحجار عبور: الإثارات الصغيرة، ربما، لحديقةٍ مرتّبةٍ في فصلٍ ألطف. على مبعدةٍ يسيرةٍ من هناك بقايا جدارٍ من الآجرّ. لقد اخترقه الجدول منذ زمن بعيد، والآن يأخذ، في فيضانه، مجرىً آخر خلال ما كان حديقةً، مُغرِقاً الليلك القلقاسي الذي نما وحشيّاً. ضوء الشمس، الآتي من خلال الشجر، ينير بضع أزهار ليلكٍ بيضٍ ويبرزها رُقعاً من

اللون الطاهر إزاء مشتبَك القصب الذي سوّاه متدفقُ الماء تسويةً، الماء الساكن هنا، والمتحول إلى بُرَيكاتٍ آسنةٍ منذ الآن في أماكن أخرى.

فجأةً، فقدت أزهار الليلك بهاءَها، صارت معتمةً تحت الشجر، والحديقةُ النقيعة صمتتْ. الجدول يعربد ماضياً في سبيله. عند الضفة الأخرى كانت جذوع الأشجار سوداء في العتمة، وقد تهدّلت أغصانُها وأوراقها. غابة الحكاية الخرافية، بعيداً عن الوطن: مافعلتْه يد الإنسان مؤخراً، بعد أن قُطعت الغابات وأُخرج قاطنوها وأبعدوا، وما كان المقصود منه، ربما، أن يكون أثراً فنياً في مشهد مؤَمّنٍ-صار من الطبيعة، صار طبيعياً. إنه يُحدِّث عن غياب بشر، عن خطر. فكّر بوبي بالملك، مقتنصاً من السماء. نظر إلى أعلى. الغيوم المطرة تجمّعت، والطريق أمامه غير معبَّد لمائة ميل.

خرج من الغابة إلى العراء، وعاد يمشي مرتقياً التل. الكلب السبنيلي لا يزال يعبث بكومة الخشب المقطَّع وقد هدَّها جزئياً. والإفريقيّ المبتسم هو الآن خارج المكتب، وقبّعته لا تزال في يده. بوبي تقبَّل نظرة الإفريقي، واستدار ليدخل إلى القاعة، ثم مضى إلى الغرفة التي تحمل اسم: الرّدهة.

كانت غرفة مستطيلة واسعة. نوافذ صغيرة الزجاج ذات ستائر شفافة تتيح مرأىً واضحاً للأرض الغابيّة، وللتلال وراء القطع غير المنتظمة لغابة الصنوبر، ولملعب الغيوم المطرة. الأثاث يبدو مستعملاً، لكن ليس مؤخراً. الصورة الفوتوغرافية الجديدة للرئيس، رجل الغابة ذي الشعر المرتّب على الطريقة الانجليزية الآن، تَمْثُل بين طبعاتٍ ملوّنةٍ لمناظر انجليزية. ثمت مجلات قديمة: صور فوتوغرافية لحفلا، لرقصات، لمنازل

ريفية، لأثاث: إنها انجلترا، مثل ما كانت، للتصدير، مصوَّرة بعناية، وكلٌّ ما يُزعج أبعدَ. الريف الإنجليزية كما يعرف بوبي بصورة أفضل، هو فوضى شبه صناعية منتشرة من مشاريع إسكان مثل مدن الخيام. وبيوت قديمة ضائعة على طرق رئيسية مزدحمة، سكك حديد، مباني مصانع، حيث كل ما بقي من الطبيعة- جدولٌ، ربما مع صفصافات مقطوعة الرؤوس- هذا الريف الإنجليزي لا يشبه إلا أرضاً خراباً شبه مدينيّة. لكن الغرفة التي هو فيها تردد أصداء صور المجلات. القياس جدٌّ واسعٍ عليه، وعلى المرأة الجريحة في المكتب الصغير، ولربما كان جدٌّ واسعٍ، على الدوام.

صاح أحدهم: "غداء لثلاثة، هكذا؟".

الصيحة، وهي في حقيقتها همسةٌ جشّاءُ ثاقبة، صدرت عن رجلٍ أبيض وسطٍ في حالة دمار كبير. كان ملفوفاً بالضمادات ومجبَّساً من أدنى كامل ساقه حتى أعلى كامل ذراعه. ولا يكاد يسند نفسه على عكّازين معدنيين، ويوشك في كل خطوة أن ينكبّ على وجهه.

صَرَّ الرجل شبه متباهٍ: "حادث سيارة. يقولون إن الصاعقة لا تضرب مرتين...."، هزّ رأسه: "هل رأيت زوجتي؟."

"في المكتب؟".

"إلتقِ بها أيضاً"، مال إلى أمام في زاوية حادّة مثل ممثل هزلي: "اوه. نعم. لكني الآن بخير. الحكّة فقط. مضحكٌ أمرُ الجبس. أتعرف؟ عندما يرفعونه في النهاية، فسوف يجدون قطعةً صغيرة في الوسط لا تزال رطبةً. أأنت متجهٌ إلى الجنوب؟ تشتغل هناك؟ رجلٌ ذو تعاقد قصير؟".

أومأ بوبي برأسه.

"أنتم المحظوظون. ترسلون نصف مرتّبكم إلى مصرف لندنيّ كل شهر، إيه؟ تملّحونه. لكن الحالة سيئة في الكولكتوريت الآن. أعتقدُ أن اضطرابات كثيرة سوف تقع".

قال بوبي: "لا أعرف ما تقصد بالاضطرابات".

الرجل المحطَّم التزم جانب الحيطة والحذر: "لا متاعب هنا". أومأ برأسه إلى صورة الرئيس. " الطبيب الساحر جيدٌ. أوه، لا. لا متاعب هنا. السياحة ستكون تجارة كبيرة، والأفارقة يعرفون أنه غير قادر على تدبير الأمر بنفسه. قُلْ ما تشاء، لكن الإفريقي ليس أهبل".

ترك بوبي المجلة وأخذ يبتعد. لم يسرع، فلا داعي للإسراع. الرجل المحطّم بدأ يتبعه، لكن لم يستطع الإستمرار.

الإفريقي ما زال خارج المكتب. الكلب السبنيلي قعد، هرِماً تافهاً، على درجات المكتب. كومة الأخشاب خارج باب الكوخ مبعثرةٌ الآن. قرب الكومة شاهد بوبي الآن اللافندر مُزهراً، شجرةُ عجوز. وإذ انحنى ليقلع بعضَ المتعنقدِ، رأى ذنبَ سُحْليةٍ، بين الألواح المتناثرة، مفصولاً، ميتاً. ثم رأى ليندا وكارتر. لوَّحتْ ليندا بيدها. كانت إشارةً كبيرة، بنطلونها الأزرق وقميصها ذو لون القشدة، يُشاهَدان من البعد، على خلفيةٍ من ممشى الحصا والضوءغير المستقر لسفح التل المفتوح ، كانا بهيِّنِ، ومرةً أخرى، مثل ما كان في مطلع النهار: المشاهِدون، والثلاثة يتصرفون كممثلين في فيلم. التفت بوبي: ليس سوى نظرة الإفريقي وهو ينظف شفته العليا بلسانه.

قالت ليندا: "ماذا لديك يا بوبي؟".

قال: "لافندر"، ثم مرَّر المتعنقد تحت أنفها. "أنا أحب اللافندر. أهذا تخنُّث مني؟".

ضحكتْ، وللمرة الأولى رأى أسنانها البائسة: "لن أقول تخنُّثٌ. سأقول طراز قديم".

كانت أزهى الثلاثة وعندما دخلوا قاعة الطعام، ذات الخشب العالي.

جلسوا في طرف الغرفة الموحشة، عند الموقد المرتفع مباشرةً. لم تكن النار موقدةً لكن الحطب منضَّدٌ. كان الخادم عصبياً، شارداً، يظل يرتِّب السكاكين على المائدة. قميصه الأبيض أقل من نظيف، وفراشَتُه منحرفة.

قال كارتر: "أنتم، الكولونياليين، فعلتُم جيداً".

قالت ليندا: "أيت كلمةٍ حبيبةٍ. نادراً ما يسمعها المرء في حديث. أنتَ جعلتها تبدو كبيرةً وذات طابعٍ تقنيّ".

"وأنا جالسٌ هنا، أشعرُ بأنهم كانوا أناساً ضِخاماً، بل عمالقةً. وأعتقد أن سبب عدم إيقاد النار لنا هو أننا صغار جداً". أو قبيحون جداً، هكذا فكّر بوبي، وهو يقطع رغيف خبزه.

الخادم الخائف جاء بالحساء صحناً بعد صحن ضاغطاً إبهاميه على الحافّة. كان يمشي منحنياً، رافعاً ركبتيه إلى أعلى، وقدماه الكبيرتان المعلّقتان بارتخاء من كعبيه كانتا تخفقان عالياً سافلاً.

قال كارتر: "يبدو واحداً من سُودنا".

"يقول كارتر إن الكولكتوريت الجنوبية، يا بوبي، هي تحت منع التجول منذ الساعة الرابعة والجيش يعيث فساداً، كما يبدو".

قال كارتر: "هذا ما تشكلت الجيوش الإفريقية من أجله. أن تُستخدم لأغراض المدنية فقط".

قالت ليندا: "إذاً، كأنّ علينا أن نبيت ليلتها عند العقيد، أو نظلّ هنا".

قال كارتر لبوبي: "وقد يوقد الخادم النار لك".

كان في أضراس كارتر عيبٌ ما، ولهذا كان يأكل مثل كلب، ممسكاً بالطعام في فمه عند كل مَضغةٍ، مُصدراً في الوقت عينِه هسيساً هيّناً كأنّ كل لقمة هي في منتهى السخونة.

أنهى لقمةً، وبدأ حديثاً. قال: "لا أستطيع أن أعتاد هذه الكلمة: خادم".

قالت ليندا: "دوريس مارشال جرّبت أن تسمي خادمها، ساقياً".

قال بوبي: " أليس ذلك أنموذجياً؟".

قالت ليندا: "في النهاية استقرّت على مُشرف. لقد بدتْ لي على الدوام كلمةً غير معقولة".

قال بوبي: "لوك زعل منها. قال لي في ما بعدُ: أنا لست مشرفاً، يا سيدي، أنا خادم منزل".

استفسر كارتر: "مَن دوريس مارشال؟".

قالت ليندا: "هي من جنوب إفريقيا".

بدا كارتر حائراً.

قالت ليندا: "لوك هو خادم منزل بوبي".

قال بوبي ناظراً إلى ليندا: "أتصوَّرُ أنها كانت تحسب نفسها ميّالةً نحو السود".

صاحت ليندا: "بوبي!".

قال كارتر: "نحن ماضون في موضعي المفضل "الخدم".

قال بوبي: "الأمر يدهش زوارنا دائماً".

كارتر أكل.

قال في ما بعد، جائلاً حول القاعة بنظره، ولاعباً من جديد لعبة الزائر:

"لا أستطيع. لا أستطيع أن أتجاوز بريطانيّةَ المكان".

قالت ليندا: "عندما كنت في غرب إفريقيا، كان الجميع يقولون كم كنّا استعماريين فاسدين، وكم كان الفرنسيون جيدين. وحين تجتاز الحدود ترى الأمر صحيحاً. ترى كل أولئك السود، الذين مثل سُودنا، جالسين على ناصية الطريق، يأكلون الخبز الفرنسي، ويشربون النبيذ الأحمر، ويعتمرون تلك البيريه الفرنسية المضحكة".

قال بوبي: "إذاً، قد نُستثنى هنا، في الأقل".

نظر كارتر إلى بوبي وقال بهجوميّةٍ واضحة: "أنت تدبِّرُ جيداً".

بدأ المطر. أعتمت قاعة الطعام. وقرعَ السقف.

قالت ليندا: "منطقة الوحل تلك، الإنزلاق على الوحل هو الأمر الوحيد الذي يجعلني هستيريّةً".

قال بوبي: "لست أدري إن كان نبأ منع التجول يقيناً".

قال كارتر: "ليس عليك أن تأخذ بكلامي عنه".

"ليس عليّ أن آخذ بكلامك عن أي شيء".

قالت ليندا دون أن يبدو عليها أنها لاحظت ما دار بين الإثنين: "مسكينٌ الملكُ الصغير"، وغدتْ بنتاً عاطفيةً، "مسكينٌ الملك الإفريقي الصغير".

بعد ذلك، لم يَدُر ما يشبه الحديث. أنهوا قنينة الريسلنغ الأسترالي، وانتهى الغداء، ليشعر الخادم بمنتهى الراحة. أخذ بوبي قائمة الحساب حين جاء بها الخادم. كارتر صار نكد المزاج.

قال الخادم: "المكتب. أنت تدفع للمكتب".

الإفريقي لا يزال هناك، لائذاً بالمتسلّق الضيّق. المطر يشوِّش مرأى حدِّ التل، ويسيل من السقف القرميدي للأكواخ على الزهور، ويغسل ممشى الحصا. كان الجو بارداً. وكارتر كان وحيداً في قاعة الطعام حين عاد بوبي. لم يتكلما. التفت كارتر ونظر خارجاً إلى المطر. وحين عادت ليندا إلى القاعة، كانت زاهيةً شأنها من قبل.

إنه وقت المغادرة. أخذ بوبي يلحّ.

قال كارتر: "لنترك الأمر مفتوحاً".

ركض بوبي تحت المطر إلى السيارة وقادها إلى مدخل القاعة. ليندا ركبتْ. نظرت إلى كارتر، وبدت قلقةً الآن. في الظلال خلف كارتر كانت حركةٌ ما، وظهرَ الرجل المحطَّم، منحنياً إلى أمام، كأنه مهتمٌّ شديداً. وبينما كان بوبي يبتعد بسيارته برزت المرأة ذات الذراع المدلّاة على درجات المكتب. أشارت بيدها السليمة إلى الإفريقي، ونادت خلل المطر.

توقَّفَ بوبي وأنزل النافذة.

"أيمكن لك أن توصله حتى الطريق؟".

قالت ليندا منحنيةً على المقعد لتبعد أشياءها: "آه، إلهي".

فتح الإفريقي الباب بنفسه. وأفعم السيارة برائحته. وخلال المطر، والنوافذ مضبّبة، انطلقوا، ليندا واجمة، بوبي يمسح الزجاج الأمامي

بظاهر كفِّه. وعندما نظر بوبي في المرآة العاكسة رأى عيني الإفريقي المبتسمتين.

سأله بوبي بالصوت القوي البسيط الودود الذي اعتاد أن يخاطب به الأفارقة من أهل البلد: "أتشتغل هنا؟".

"بطريقة ما".

"ماذا تفعل؟ ما عملك؟"

"دَآبي".

"أوه، تقصد: نقابي. أنت تنظم العمال، أنت تتساوم مع أرباب العمل. تحصل على مالٍ أكثر لأعضائك، على ظروف أفضل، أليس كذلك؟".

"أنا أعمل هنا".

"أنا لا أ راك".

أنا أعمل في الجنوب. في الكولكتوريت الجنوبية".

ضحك الإفريقي: "نعم. نعم. الجنوب".

"أنا موظف مدنيّ. بيروقراطيّ. لديّ صينية الوارد وصينية الصادر. ولديّ أيضاً صينيةُ شاي (ي)".

"موظف مدني. أمرٌ جيد".

"أحب عملي".

كانوا بطيئي السرعة، وهم ينحدرون على المنحدر الصخري، بينما المطر يسيل على الزجاج الأمامي أسرع مما تستطيع الماسحة. جاء إفريقيٌّ عند الركن في أسفل المنحدر، صاعداً إلى "دار الصيد". رأى السيارة، فوقف إلى جانب الطريق ينتظر أن تمرّ. قُبّعتُه مرخاة، وطيّةُ صدر السترة إلى أعلى.

قال بوبي مواصلاً لهجته الودّية: "سينقع تماماً".

قالت ليندا: "واضحٌ هذا".

قال بوبي: "لكنه ليس ماضياً في اتجاهنا".

"قفْ أنت. هو صديقي".

توقّف بوبي بجانب الإفريقي. المطر يسيل على الحافة المنحدرة لقبعة الإفريقي، ولا تمكن رؤية وجهه. رفع قبّعته، وهو لا يزال تحت المطر، وبدا مرتعباً. الإفريقي الذي في المؤخرة فتح الباب. ركب الرجل. قال لبوبي: "سيدي"، وجلس على طرف المقعد المكسوّ باللدائن حتى شدّه الإفريقي الأول إلى الوراء.

الإفريقيان جعلا السيارة مزدحمة. ليندا أنزلت نافذتها وتنفست قويّاً. المطرُ بلّل لفاعها.

أرض البولو الممهدة كانت مغمورة بالماء الآن، ولمُ القصب والعشب المتفرقة ترتفع هنا وهناك خارج الماء. أرض البولو تبدو الآن مثل مستنقع. المطر جعل السرادق المتداعي، معتماً.

وسأل بوبي: "هل صديقك نقابيٌّ إيضاً؟".

قال الإفريقي الأول بسرعة: "نعم، نعم، دآبيّ".

قال بوبي: "آملُ في ألا تكونوا مضطرين للسفر بعيداً في مثل هذا الجو".

قال الإفريقي الأول: "ليس بعيداً".

المطر طرطشَ البُريكات الحمر في مَواطئ العجلات السابقة.زلقت السيارة أحياناً. شرع الطريق يرتفع إلى التعلية المرتفعة للطريق العام.

قال الإفريقي: "استدرْ يمنياً".

قال بوبي: "نحن متجهون يساراً. نحن ذاهبون إلى الكولكتوريت".

"أنت استدرْ يميناً".

هم الآن حيث يتحول الطريق الترابيّ الأحمر إلى رمل وصخر ويتّسع للصعود الحادّ الأخير إلى الطريق العام. الإفريقي لا يزال ينظر إلى عاكسة المنظر الخلفيّ.

قال بوبي: "أبعيدٌ هو المكان الذي تقصده؟".

"ليس بعيداً. استدرْ يميناً".

قالت ليندا: "وامسيحاه!". ارتدَّت في جلستها، ومدّت يدها إلى مقبض الباب الخلفي: "اخرجْ!".

توقّف بوبي. الإفريقي المبلّل، خلف ليندا، قفز خارجاً على الفور. وفي الوقت نفسه تقريباً فتح الإفريقي الذي كان يتكلم، الباب، وخرج، واعتمر قبعته وفي الحال، صار بلا وجه، ولم تعد لابتسامته وتهديده أي أهمية. بوبي تحرّك صاعداً نحو التعلية، تاركاً الإثنين هناك، قبعتاهما مرخيّتان حسب حجم رأسيهما، وهما ينقعان في المطر، إفريقيينِ بجانب الطريق.

قالت ليندا: "أي رائحة! رجُلا عصابات بالضبط. أنا لن أدع نفسي أُقتَل، بسبب أني ألطفُ من أن أكون خشنةً مع الأفارقة".

تماماً قبل أن ينعطف بوبي إلى الطريق العام، نظر في المرآة: الإفريقيان لم يتحركا. قالت ليندا: "حصل هذا لي، كثيراً، مع مارتن. تلك الأيمان اللعينة التي يُقْسمونها. يشعرون أن كل شخص متجمدٌ خوفاً بسببها".

"لكني أشعر بالخجل حتى الآن. متباهٍ هكذا، ثم يذهب كما ذهب. الأمر الذي لا استطيع أن أفهمه هو سببُ مكثه الطويل هناك. ليس

شرطاً أن تكوني من مؤسسة لتعرفي أن ذلك أمرٌ شرِّير".

"راحَ الشرّ. غباءٌ فقط. لنفتح هذه النافذة. تستطيع أن تشمَّ الوسخ الذي كانوا يأكلونه".

المطر يهطل، منحرفاً، في قطراتٍ كبيرة. بوبي الناظر في المرآة رأى الإفريقيين يقفان في الطريق العامّ. أسودينِ، إشكاليينِ: في المرآة أخذا يتضاءلان ويتضاءلان، فلا يكاد المرء يميِّزهما في المطر إزاء القار. شرعا يمشيان. سارا خارج الطريق العام، عائدين إلى الدرب المؤدي نحو "دار الصيد".

لم يظنّ بوبي أن ليندا رأت ما رأى. هو لم يشأ أن يخبرها.

4

قالت ليندا: "إنه لأمرٌ يثير الشفقة".

"آسف. كان ينبغي أن أكون حازماً أكثر".

"أنت تأسف لهم، وتظل تشعر بالأسف وتقول أشياء لطيفة. لطيفٌ أن تقدم التشجيع، وقبل أت تعرف أين أنت تُفاجأ بسامي كيسينيي يتحكّم فيك. أظن أنّ علينا أن نغلق النافذة. آل مارشال يتحدثان عن رائحة إفريقيا- هل سمعتَها؟".

"كان عليّ أن أكون حازماً أكثر".

"هذه الرائحة الخاصة جداً".

قال بوبي: "لم أتآلف، بتاتاً، مع أناسٍ يتحدثون عن أشياء مثل رائحة إفريقيا. إنهم مثل من يتحدثون، عن المآسي، مثلاً".

"ربما كنتَ مصيباً. لكني اعتدتُ الظنّ بأني لستُ شديدة الحساسية،

حتى ألتقط هذه الرائحة الإفريقية الخاصة التي دأب آل مارشال وآخرون على القول إنهم أحبّوها حبّاً جمّاً. إنها تستمر حوالي نصف ساعة، ساعة، أو ما يقاربها، لا أكثر. إنها رائحة الخضار المتعفنة والأفارقة. والأمْرانِ واحدٌ".

الرائحة التي أحبهًا بوبي، كانت تلك التي في غرفة دافئة مغلقة.

قال: "ربما حان الوقت لتذهبي إلى الجنوب".

"إنه لأمرٌ يثير الشفقة بصورة لعينة. أتتذكر يوم جاء الرئيس إلى الكولكتوريت؟ كل أولئك البيض النحاف المراهقين، وكل أولئك السود السمان.

"لستُ أدري لماذا ترين أنهم سمان".

"أودُّ أن أتصور أناسي المتوحشين نحافاً. لن تصدق الأمر الآن، لكن سامي كان نحيفاً مثل مِسْعَرٍ يوم عاد من انجلترا. مارتن جعل الرئيس يتفرج على الاستوديوهات في جولة. سامي، طبعاً، لا يفرِّق بين مكبِّر صوت ومقبض باب. أتعرف أول ما قاله مارتن بعد ذلك؟ إنه مبعثُ للضيق. مارتن قال: سأفرِّج الطبيب الساحر على هذا. إنه منتنٌ مثل ابن عرس- مارتن!. تعرف أن شيئاً كهذا يجعلك تشعر بالخجل من الجميع، وأنت بينهم. لكن.....".

"آه، يا عزيزتي"

"قد يُنقَل الكلام، وآنذاك سيُبعدونني. أودُّ ذلك".

"لم يكن الغداء فكرة جيدة".

"ربما لم يكن".

"آراؤكِ تغيَّرت كثيراً منذ الصباح".

"لستُ أدري إن كانت لديّ آراء حقاً"، كان صوت ليندا يرقّ أكثر".

"ولهذا سيكون إبعادي لطيفاً. يجب أن نخبر بوسوغا- كيسورو".

بوبي لم يحبب المكر. لم يحبب التعريض. بدأ يقود سيارته بسرعة، أسرع مما يقتضيه طريقٌ مبتلّ.

قال: "يقال إن الحيوان حزينٌ دائماً في ما بعد".

"أي رومانسية، يا بوبي".

قرر التوقف عن الكلام.

خفّ المطر، وبدت السماء. والتمع الطريق بنور فضّة.

عقبةٌ على الطريق، أمامهما، أعلنتْ عن نفسها: سيّارات جيب للشرطة، رجال شرطة بعباءات، وحاجزان خشبيان مخططان بالأبيض والأسود.

قالت ليندا: "أعتقد بأن هذا هو ما يُعرف بحاجز طريق".

أبطأ بوبي، مهيئاً وجهاً للشرطة، وبدأ يبتسم.

"أرجو ألا تكون في منتهى اللطف، يا بوبي. انجليز جداً، هؤلاء الشرطة، ببدلاتهم السود، وعباءاتهم، وقلانسهم. واضحٌ أن السمين هو رئيسهم، ذو الملابس الكريهة الزاهية".

ولقد غضب بوبي غضباً عابراً لأن الرجل الذي تحدثت عنه ليندا بدا أنه المسؤول. كان فتيّاً مكْرِشاً، وقبعة لبّاد بنّية قاتمة تستقر خفيفةً على رأسه، وتحت عباءة الشرطة كان يرتدي قميصاً رياضياً ذا أزهار.

بصحبة شرطيين يرتديان الزيّ الرسمي جاء إلى السيارة بعد أن قطع الطريق إلى منتصفه.

قال بوبي: "أنا موظف حكومي. أنا مرتبط بدائرة السيد أوغونا وانجا-بتيري في الكولكتوريت الجنوبية".

قال ذو الملابس المدنية: "الإجازة".

أثناء فحصه إجازة سياقة بوبي، كان يلعب بشفتيه ولسانه، ويثبِّتُ كوعيه إلى جنبيه بشدّة، رافعاً بطنه رفعاً خفيفاً بين وقت وآخر.

قال بوبي: "جواز مروري إلى المجمَّع، على الزجاج الأمامي".

"غطاء المحرك والمفتاح، رجاءً".

سحب بوبي رافع إطلاق الغطاء وسلّم المفاتيح. الرجال ذوو البدلات فتشوا تحت الغطاء وداخل الصندوق الخلفي بينما ربّت ذو الملابس المدنية على كسوة الأبواب وتحسس ما بين المقاعد. فتح محفظة ليندا وضغط بيدٍ مبسوطة عريضة على المحتويات الرقيقة.

قال أخيراً: "إذاً، لحِقكم إزعاج".

كانت تلك صيغة الصرف. وبسرعة، حين كانت السيارة تبتعد، ابتسمَ ورفع قبعته. الشعر الذي استقرت عليه القبعة كان بصورة فظيعة على الطريقة الانجليزية، مكوّماً عالياً إلى جهة، ومفروقاً، فرقاً عريضاً خفيضاً، إلى الجهة الأخرى.

قالت ليندا بينما كان بوبي يقود سيارته بين الحاجزين المخططين بالأبيض والأسود:

"عزاؤنا، على أي حال، أنه واحدٌ-منّا-، لكني ظننتهم كانوا يبحثون عن الملك في العاصمة. ألم تظنّ ذلك؟ تقول قصة البارحة إنه أفلتَ في واحدةٍ من سيارات الأجرة تلك".

"كانوا يبحثون عن الأسلحة. صادفَ أني عرفتُ أن هناك كثيراً من

القلق في الأوساط العليا بخصوص أناسٍ يهرّبون أسلحةً إلى الكولكتوريت. سيّاح ومن إلى ذلك. يقولون إن في قصر الملك ترسانةً كاملة من الأسلحة مع هذا، ألم يكونوا في غاية اللطف؟ حاجز الطريق، رجال الشرطة، المطر على العباءات السود، الطريق المفتوح، سلامته الخاصة: كانت الإستثارة في صوت بوبي. "ذاك فِعلُ سيمون لوبيرو. إنه مهتمٌ بالعلائق الجيدة مع الجمهور وما إلى ذلك. الجميع يقولون إن هوبز يوجِّهه خير توجيه، لكني التقيت به في المؤتمر السنة الماضية ولم يخلِّف عندي أثراً. نُشرت مقابلة معه في الصحيفة اليوم التالي وجدتُها حسنةً للغاية، كما ينبغي أن أقول".

"في ما عندنا من "صمت دقيقتين". نهيّء أنفسنا جميعاً. سيمون جِدُّ انجليزيّ".

"الأمر ليس رديئاً. معه".

"إذاً، لِحقكم إزعاج". كانت ليندا تقلِّد. "أشعر بأن هناك منع تجوُّلٍ. ألا تظن؟ أعرف أننا بيضٌ ومحايدون، لكني بدأتُ أتساءلُ عمّا إذا لم يكن علينا أن "نتسابق" في الاتجاه الآخر. لا يبدو أن لدينا أصحاباً كثيرين".

كان يتسابق في الواقع، ويتخيَّلُ أيضاً، بعد إثارة حاجز الطريق تلك، الخطر والنجاة على طريق إفريقيّ خالٍ محفوفٍ مرةً من جهة بأغصان السيزال الطويلة العارية التي تشبه الشمعدان: انقطع المطر تقريباً، والغيوم عالية، والضوء يتنقل، والأرض المطويّة ملوّنة بخضرةٍ مشعّة، ونورٌ باهرٌ يشتعل وينطفئ على الجبال البعيدة.

نظر إلى مقياس البنزين وقال: "سنتوقف عند إيشر ونملأ الخزّان كاملاً".

"أيامَ المقاطعة الآسيوية، كان من في المجمّع يحافظون على خزّاناتهم ملأى، مستعدين للإندفاع في أي لحظة من النهار أو الليل نحو الحدود".

قال بوبي: "ياللّه! أي إثارة. تنبيهاتٌ يومية من الـ بي بي سي، تعلن عن الجسر الجوي في مقر المقيم العام. النوم في الصفائح".

"أنا نمت في صفيحتي".

كانت ليندا تُظهر تأثير الغداء والريسلنغ والسيارة. كان وجهها أبيض متوتراً، والسواد تحت عينيها، والسُّفعةُ على وجنتيها البارزتين تبدو مثل لُطخٍ، صفراء تحت بُنّية.

قالت فجأةً: "أحبُّ هذا النور الدراماتيكي، ألا تحبه؟ والسيزال. كل شيء يبدو خالياً تماماً،حتى تبدأ ترى تلك الأكواخ البنّية الصغيرة. تشعر كما لو أن شيئاً لم يحدثْ هنا، البتة". شرع صوتها يغدو غامضاً، كانت تنصت إلى نجواها هي، وبمقدور بوبي أن يقول الآن: "لا أحد، إطلاقاً، يعرف ما حدث هنا".

قال: "بعضنا يعرف ما حدث هنا".

"عشرون أو ثلاثون شخصاً قُتلوا أثناء المقاطعة الآسيوية .ولم يكن خبراء منتجات الألبان الدانماركية وحدهم هم الذين تُركوا في الشمس يتقبّلون. أتساءلُ إن كانت هذه الأمور التي لم تصل إلى الصحف والإذاعة قد نُشرت تقارير عنها في موضع خاص، في كتاب أسود صغير. أو كتاب أسود كبير".

فكّر بوبي: هي غير معنيّة، هي معنية بشؤون أخرى، هي فقط تحاول، بدون سبب، أن تهدّني، وأن تنقل حالتها المزاجية إليّ. وإذ فكّر بهذا، وجد أن استثارته قد مضت، وأنه ينتظر أن ينزعج منها.

قالت ليندا: "أنت لم تكن هنا في الهزّة الأرضية. جاءني الخادم صباحاً دامع العينين، وقال إن عائلته تعيش في إحدى القرى التي دُمِّرتْ. أخذته إلى مركز الشرطة، لأرى إن كانت لديهم قائمة بالضحايا. لم تكن لديهم. وكلهم كان فظّاً. حاولتُ يومياً ولمدة أسبوع. لا قائمة. حتى الخادم لم يعد يقلق. لا شيء في "دقيقتي الصمت". لاشيء في الإذاعة. الجميعُ نسيها، حسبُ. أحدثتْ هزة أرضية؟ هل همّتْ أحداً؟ ربما لم يمت كل أولئك الناس،ولا يهمّ إن كانوا ماتوا. ربما كان الخادم يريد فقط أن يجعل نفسه مثار اهتمام. ربما ما حدث هنا ليس مدعاةً للإهتمام أكثر من أي شيء يحدث. قد لا توجد في مكان كهذا أي أخبار. بمقدور سامي كيسيني أن يذيع كل يوم صلاة الرب ويسميها أخباراً".

فكّر بوبي أنه وضع يده على واحدة من كلمات مارتن المريرة. لكنه اكتفى بالقول: "إن وضعتِ الأمور هكذا، فقد لا تكون أخبارٌ في أي مكان".

"لاأريد أن أجادل. أظنك تعرف ما أعني".

"سنتوقف عند إشير للبنزين".

قالت معتذرة: "عقلي خفيف".

رفعت حقيبتها من الأرض ووضعتها على ركبتيها،ونظرت إلى وجهها في المرآة اليدوية وقالت: "يا الهي الرحيم"، بقوّةٍ، كأنها تُبعد مزاجاً، ثم جمّلت وجهها، وبدون عناء، أعادت ترتيب شعرها وعقدَ لِفاعها، ذراعاها ما تزالان فتيّتين، والكُمّان القصيران لقميصها ينفتحان فتظهر الشامة في إبطها الحليق. ثم وضعت نظّارتها الداكنة على عينيها، وأرجعت مقعدها إلى الخلف، وبدت مرتاحةً تماماً.

بوبي كان يكرهها.

ESH إ.ش، الصُّوى كانت تعلن كل ميلين، ESH .وأخيراً اللافتة - من تصميم انجليزي: ربما استوردتْ من انجلترا- قالت: إشير. لكن، حتى الآن، ليس سوى البرّية.

ثم شرعت أشجار صنوبر قديمة تنهض وراء أسيجة أسلاك، وطرق ترابيّةٍ عليها آثار تراكتورات تلتقي مع الطريق العام في مندفَعٍ من وحلٍ ذائب. ومرةً أخرى: البرّية. التلال ترتفع حدباء من طرف واحد، والطريق العام التوى. لافتةٌ ناصلة تقدم تحذيراً غير كافٍ عن تقاطع طرق. نطّت السيارة. أشجار كالبتوس طويلة تشكل غيضةً مفتوحةً تقطر ماءً، لحاء مهترىء على جذوع مستقيمة، وإزاء الجبال العظيمة في البعد، تُبرز التلالُ المعتليةُ خليطاً من مراع مسيّجة، وأرضٍ مفتوحة ذات أكمات، مصدّات ريح من الكالبتوس، قطع غابيّة قديمة: منظر طبيعي لم يكتمل، خدشٌ في القارّة.

اتّسعت دورات الطريق، بضعُ داراتٍ خابية داخل حدائق واسعة. كانت هناك مستديرةٌ، لا تزال حديقتها مرتّبة، والطريق العام دخل البلدة. شوارع متقاطعة في كل واحدٍ منها لوحة بالأبيض والأسود تحمل اسم وزيرٍ في العاصمة، هذه الشوارع تنتهي في الوحل بعد مائتين أو ثلثمائة ياردة. وهذه البلدةُ كانت بُنيت لتكبر. لكنها لم تكبر. ظلت مجموعة مبانٍ من الصفيح واللوح، تبرز هلهلتُها في مبنى المصرف الصغير الجديد ومعرض السيارات والتراكتورات. أما ثكنة الشرطة الموصلة، وهي سقائف كونكريت بيضاء دانية على الأرض، فهي تبدو منذ الآن مثل أكواخ الحيّ الإفريقي في العاصمة.

محطة البنزين التي انعطف بوبي فيها تملكها شركة بترول جاءت إلى البلاد بعد الاستقلال. وثمت لوحة عالية صفراء-سوداء تعلن برموز عالمية واضحة الخدمات المقدَّمة. لكن أحد الرموز، وهو الهاتف، مغطى جزئياً بورقٍ بُنّي، وهناك رمزٌ آخر، الشوكة والملعقة المتقاطعتان، مشطوبٌ عليه، بإصبع غميسٍ في زيت المحرِّكات ، كما هو واضح. وعلى امتداد الجزء السفلي من اللوحة الصفراء، كما على حيطان المكتب، علامات أصابع، وأيدٍ أحياناً، حاولت أن تتنظّف. الجزء المغطى من الساحة المعبدة أسود من الزيت، أما الجزء المكشوف الذي لا يزال مبتلاً بعد المطر فقد كان يعكس ألوان قوس قزح.

أربعة أفارقة يرتدون بدلات عمل زرقاء عتيقة تشبه ما يرتديه المتشردون، راقبوا السيارة تدخل. وعندما توقّف بوبي خارج المنطقة المغطاة وأطلق بوقه انتبه الأفارقة الأربعة كلهم، لكنّ الأربعة بعد أن نظر أحدهم إلى الآخر ترددوا كلهم. أحد الأفارقة كان جدّ ضئيل وقد تهدّلت بدلته عند منفرَج الرِّجلين، وثخنت بالطيّات عند الكاحلَين. قالت ليندا: "سأذهب وأغامر بالدخول في مرحاض السيدات".

سارت بخطواتٍ قصيرة عجلى، خفيضةَ الرأس. كان سروالها منتفخاً عند الركبة، وعلى قميصها بين عظمي الكتفين بقعةُ تعرُّقٍ طويلة.

الإفريقي الضئيل يرفس في كل خطوة للتغلب على عوائق بدلته. الإفريقي الضئيل حمل سطْلاً وإسفنجةً وماسحة ذات مقبض معدني. وشرع ينظف صامتاً زجاج النوافذ.

عادت ليندا: "المكان مقفل".

الإفريقي الضخم مدّ يده في جيبه ورفع مفتاحاً مزيّتاً من نوع ييل بين إبهامه والسبّابة. أخذت ليندا المفتاح بلا تعليق وابتعدت نشيطة الخطى ثانيةً.

زيت، بنزين، مـاء، بطاّرية، إطارات: بوبي أشرفَ بكل حرص على شغل الإفريقي الضخم وشجَّعه. استخدم صوته البسيط الودود وضحك كثيراً. أمّا الإفريقي فقد كان منهمكاً جداً ولهذا لم يستجب. وحين عادت ليندا صمتَ بوبي.

وقفت ليندا رابطة الجأش، عصيّةً خلف نظّارتها الداكنة، عند نهاية الساحة المعبّدة، تنظر عبر الطريق إلى التلال والجبال.

أخيراً دفع بوبي الحساب، وركب هو وليندا السيارة. وعندما كانا ينتظران إرجاع الباقي لاحظا الإفريقي الضئيل، المنظِّف، يُعمي نافذةً، ثم أخرى. شرع جبين ليندا يرتعش، وتأوّهت. عاد الإفريقي الضخم بالباقي. وفكَّر بوبي، لو تأوهتْ هكذا ثانيةً فلسوف أمنحُها بضعةً من ذهني. عدَّ الإفريقي نقود الباقي، قطعةً قطعةً، في يد بوبي. كان الباقي كثيراً، أكثر مما أعطاه بوبي.

همست ليندا: "أمرٌ محزن".

الإفريقي الضئيل انتقل من نافذة ليندا إلى جانب ليندا من الزجاج الأمامي. سحبَ إلى الخلف الماسحةَ، بطريقة مزعجة، وبدأ يمسح، وقد صار وجهه بمستوى وجه ليندا، وغير بعيدٍ عنها إلاّ ببضع بوصات. انحنى، وهو يؤدي عمله،مُظهراً أنه لا ينظر إليها.

غضّت بصرها، ناظرةً إلى حضنها وهمست: "أمرٌ محزن".

فكّر بوبي، لو استعملتْ هذه الكلمة ثانيةً، فسوف أضربُها. كان

يحسب النقود الزائدة في راحة الإفريقي الضخم المكوّبة الصبور، وكان يعدّ النقود متعمداً بصوته البسيط الودود. دفع آخر قطعة نقد، مع المكافأة، وابتسم للإفريقيّ. انصرف الإفريقي الضخم، واستدار الإفريقي الضئيل مع سطله ناحية بوبي من الزجاج الأمامي.

قالت ليندا: "انظر إلى ما كان يفعله هذا".

نظر بوبي إلى جهة ليندا من الزجاج الأمامي. ثم نظر إلى الإفريقي الضئيل. كان الإفريقي يستعمل ماسحةً ذات حدّين، أحدهما مطاطي، والثاني إسفنجي الحدّان، كلاهما زالا، لا مطّاط ولا إسفنج، وكان يحكّ الزجاج الأمامي. بالقضيب المعدني المركزي. لقد خلّف مسرباً معقداً من الخدوش العميقة على النوافذ كلها. إنه دائبٌ على خرمشته، منحنٍ، يُظهر لبوبي انهماكه في العمل.

بوبي لحظ جمال ملامح الإفريقي، والسواد الميت لبشَرته، وعرف أن الرجل من قبيلة الملك. وبغتةً غضب بوبي غضباً عميقاً. الإفريقي، وقد شعر بتحديق بوبي، انحنى أكثر.

"قل لي ماذا تظنّك تفعل؟".

دفع بوبي الباب بعنفٍ، يفتحه، فضربَ الإفريقيَّ الذي فقد توازنه.

استعاد الإفريقي وضعه، وابتعد عن السيارة.قال: "ماذا؟" وفتح فمه ليقول أكثر.لكنه اكتفى بالنظر إلى بوبي، بعينين مغرورقتين مصدومتين، الاسفنجةُ الكبيرة المهترئة في يُسراه، والماسحة ذات المقبض المعدني في يمناه.

صاح به بوبي: "انظر إلى ما فعلت. لقد خرّبتَ زجاجي الأمامي. لقد خرّبتَ كل نوافذي. وأنزلتَ عدة مئات الشلنات من قيمة السيارة لو أردتُ بيعها. من سيدفع لي ذلك؟ أنت؟".

قال الإفريقي: "التأمين". وثانيةً، بدا كمن يوشك أن يقول المزيد، لكن الكلمات لم تأتِ.

"أوه، نعم، أنَت شاطرٌ جداً. مثل كل قومك. أنت تعرف دائماً.التأمين؟ أريدُ المبلغ منك".

خطا بوبي خطوةً باتجاه الإفريقي. رجع الإفريقي إلى وراء، مرتبكاً ببدلته.

الأفارقة الثلاثة الآخرون ظلوا بلا حراك، في بدلات عملهم الزرق المتسخة واحدٌ عند باب المكتب يستند إلى الحائط الأبيض، واحدٌ أمام اللوحة الصفراء، واحدٌ عند مضخة البنزين.

قال بوبي:"سأعمل على طردك. ستعود إلى قومك. مَن المديرُ هنا؟" الإفريقي المستند إلى الحائط الأبيض رفع يده. كان الرجل الذي تعاملَ بوبي معه، الذي أعاد الباقي من الحساب. تردَّد ثم جاء إلى بوبي. وقف على مبعدة أقدام قليلة، محتفظاً بيديه وراءه وقال: "المدير".

سياسة الشركة بوضوح.لكنّ بوبي شَكَّ في أن لهذا المدير صلاحية التوظيف والطرد.

قال بوبي: "سأقدم شكوى إلى رئيس مكتبك". أخرج مظروفاً وقلماً من جيب قميصه البلدي. "مَن رئيسُك؟ من المسؤول عنك؟". "هذا المشرف. هنديّ".

"الخدعة الآسيوية القديمة في التحكُّم عن بُعد. هل يأتي اليومَ، مُشْرف منطقتك؟".

"اليوم لا. هو في البيت. هو يعيش هنا". أشار المدير بيده إلى ناحية من البلدة كان بوبي مرَّ للتوّ منها".

"أوه، نعم، الجميع مختبئون اليوم. أعطني عنوانه. المسؤول أين يسكن؟" وبينما هو يخربش على المظروف، بنفاد صبر كاد فيه أن يتوقف عن كتابة الكلمات، ثم عامداً إلى تدوين الملحوظات، قال:"هؤلاء الناس يجب ألا يُستخدَموا.

فلقد فعلوا هم وملكهم ما يشاؤون لفترة طويلة جداً. لكن ألاعيبهم الصغيرة انتهت. انظرْ إلى زجاجي الأمامي".

نظر المدير، مائلاً إلى جانب، ليُظهر أنه نظرَ.

الإفريقي الضئيل بدأ يستريح مع بدلة عمله. كان يحدِّر نظره، في هيأة المذْنب، نحو الساحة المزيّتة، وهو لا يزال يمسك بإسفنجته وماسحته، وقد زَمَّ فمه الصغير. استنكر بوبي هذه اللامبالاة. قال: "هذا من اختصاص الشرطة".

الإفريقيّ صعَّد نظره، متّسع العينين رعباً. وثانيةً، فتح فمه لكن لم يقل شيئاً. ثم أبدى إيماءةً كما لو أنه سيلقي جانباً بأدوات حرفته، الاسفنجة والماسحة ذات المقبض المعدني، واستدار، وبدأ يمشي متعثراً ببدلته، إلى آخر الساحة.

صاح بوبي: "أنا موظفٌ حكومي!".

توقّف الإفريقي، والتفتَ،: "سيدي".

"كيف تجرؤ على الإعراض عني وأنا أخاطبك؟".

شدَّ ذراعه اليمين، وقميصه البلدي يخفق، وراحةُ يده المفتوحةُ مهيّأةٌ، وتقدَّم نحو الإفريقي الضئيل.

لم يكن الإفريقي يبذل أي جهد لتفادي الضربة. التوقُّع فقط كان في عينيه اللامعتين. الأفارقة الثلاثة الآخرون ظلوا واقفين حيث كانوا، واحدٌ أمام اللوحة الصفراء، واحدٌ عند المضخة، والمدير قرب السيارة.

قالت ليندا: "بوبي"، من خلال باب السيارة نصف المفتوح. كان صوتها محايداً، بلا تأنيب، ونطقتْ اسمه كأنها تعرفه منذ زمن طويل.

"كيف تجرؤ على الإعراض عني؟".

"بوبي". كانت فتحت باب السيارة، مستعداً للخروج منها.

الأفارقة الأربعة جميعاً ظلوا واقفين حيث كانوا بالضبط، أمّا بوبي، فقد عاد محتداً إلى السيارة، وقميصه البلدي يتراقص. وظلوا حيث كانوا بينما شغّلَ بوبي السيارة، وقادها إلى آخر الساحة. هناك توقّف.

قال بوبي: "ذاك العنوان اللعين، أين وضعتُه؟". وأدّى بحثاً غاضباً عن المظروف الذي سجّل عليه لاشيء.

قالت ليندا: "أعتقد أن بمقدورنا نسيان ذلك.

"أوه، لا".

"اتركْ شكوى إلى رئيس الدائرة، كما قلتَ. لا أعتقد أننا سنظل نبحث عن أي عنوان أعطاه ذلك الرجل".

لا يزال يبحث.

ثم، بمنتهى السرعة، وبهدير المحرِّك، وبدفقة من الدخان الأزرق، وصريرٍ من العجلات، استدار يساراً، متجهاً إلى خارج البلدة، متخلياً عن مشرف المنطقة.

الأفارقة الأربعة، وقفوا هناك حيث كانوا.

قال وهو غير مستقر في مقعده: "الإذلال".

ليندا لم تقل شيئاً.

تمَّ اجتياز البلدة سريعاً: ثلاث سقائف كونكريتية أو أربع ومَسْبكة

معادن بين قطع فارغة استطال نباتُها من "المنطقة الصناعية"، امتدادٌ ما لطريق عربات مزدوج كثير العثرات، مستودعات ناصلة ذات صور شبه قوقاسيّة لأفارقة ضاحكين، الطريق العام من جديد، ثم صفوفٌ وصفوف على سفح التل من أكواخ خشبية غير صبيغة، بقايا مزرعة خائبة من العهد الكولونيالي.

"الإذلال".

غيومٌ ماطرة عتَّمت التلال البعيدة إلى اليمين، واختفت الجبال النائية. لكن إلى اليسار، حيث الأرض منبسطة، كانت السماء لا تزال عاليةً، وعندما تبزغ الشمس من خلل الغيوم يلتمع الطريق، وتغدو أرض المراعي المسيَّجة اشدَّ خضرةً.

فجأةً، كبح بوبي السيارة، لكن بحذر، ودون انزلاق، وتوقَّف إلى جانب الطريق. كان الطريق خالياً، والمناورة سالمة. عجلتا اليسار غاصتا في العشب الناعم والوحل، لكنه أبقى عجلتي اليمين على التعبيد. مال على المقود وضرب جبينه، ضرباً خفيفاً، عليه. وإذ رفع رأسه، مريحاً كوعه اليمين على المقود، وضع راحته في فمه، وأمسك بجبينه ونظر إلى أسفل، ووضع راحته على فمه ثانيةً.

قال: "آه، يا إلهي، كم كان شنيعاً".

تراكضت الغيوم في السماء. والحقول أعتمت وأضاءت. الوقت الآن كالغسق. الوقت الآن بعد الظُّهر.

"شنيع" قال، وضرب فمه بمؤخَّر راحته. "شنيع".

أمسك المقودَ بكلتا يديه،ومال عليه تماماً، وكُمَّا القميص البلدي ينزلقان حتى أسفل ذراعيه اللتين تورّدتا من تعرُّضهما للشمس هذا النهار.

ليندا لم تقل شيئاً. لم تلتفت لتنظر. ونظّارتُها السوداء تحجب كل شيء. نظر بوبي إلى أعلى، وقال: "أنا أعرف قوم الملك. من المحتمل أنه مسيحيّ. هو يذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد. وملابسه تظل نظيفة جداً. هو يغسل ويكوي قميصيه باعتناء. زوجته تعطي دروساً قليلة في مدرسة قريتهما بالكولكتوريت. وهو يقرأ.وعنده ذلك الكتاب الأحمق الصغير في الجيب الخلفي لبدلة عمله".

كان بوبي يفكر بخادمه المنزلي، الذي كان هو الآخر ضئيلاً جميع الملامح ومن قوم الملك: منتظم الذهاب إلى الكنيسة، قارئ كتب أوّلية في الدين والتعليم، مفلس نصف الشهر الثاني. شرِّيبٌ نصف الشهر الأول، معذَّبٌ غالباً بصداع السكر، خفيف وصامتٌ آنذاك، مع خاصيّة لُطف إضافية. قال بوبي بنعومة: "إلهي"، ثم جعل نفسه، وهو ينحني على المقود، يفكر بحانة نيوشرويشير. نظر إلى أعلى: "إلهي، إلهي". لكن صوته تغيَّر الآن: "إلهي.أيّ جمال"، كان يتكلم عن ملعب النور في الحقل الأخضر.

أخيراً، استجابت ليندا. التفتتْ تنظر إلى الحقل.

قال بوبي: " والآن، حطّمتُ كبرياءه المحزنة الصغيرة".

قالت ليندا: "لا أظنّ ذلك". رأت الدموع في عيني بوبي فتحوَّل مزاجُها.

"لا أظنّه عرف مدار الأمور. وعلى أي حال هم بحاجة إلى تعنيف. أكيدٌ أن ما فعلتَه لم يُلحق بهم ضرراً، أي ضرر. كان عليك أن ترى المرحاض. أتدري، أظنني لا أزال أحتفظ بذلك المفتاح".

"قد يكون عليّ أن أعود".

"لأي سبب؟ عودتُك ستخيفهم حقاً. وربما استنجدوا بالشرطة".

"قد أنفجرُ بالدموع". عيناه اللتان جفّت دموعهما للتو، كانتا تفيضان من جديد. ابتسمَ.

"أشكُّ في ذلك. قد تغضب ثانيةً، حين تعود فتجدهم يضحكون ملء المكان".

"سأعود".

"لقد رأيتُ مثل هذا كثيراً مع خدمي. أنت تفقد عشر علب من مسحوق الحليب، فتعنِّفهم. ويكون المشهد فظيعاً، وتبدأ تمشي في بيتك على أطراف أصابعك. تتوقع الانتحار في الأقل، لكنهم في محل سكناهم يحتفلون. لقد استدعوا كل أصدقائهم، وها هم أولاء يقتلون أنفسهم ضحكاً".

قال بوبي ويده تعبث بذراع التروس: "أخطأنا في تفسير ضحكهم".

"قد يكون الأمر كذلك. إنه تضايقٌ أو عدم موافقة أو نحو هذا. سامي كيسيني أخبرني. وربما أخبره بعض الإوروبيين. لكني أشعرُ أن بعضه ضحكٌ طيب قديم الطراز".

شغَّل بوبي المحرك.

أطلقت ليندا صيحةً، رفعت قميصها، ودارت بعنف في مقعدها نحو الباب.

لقد لُسِعْتُ! تَحَرَّ عنها. لا أستطيع تحمُّلَ النظر".

ظلّت معوجّة على إليتها اليسرى، رافعةً قميصها، تنظر إلى السقف عبر نظارتها الداكنة، بينما كان بوبي يتحرّى. تماماً تحت أضلاعها شاهد التورُّمَ الأحمر.

نادتْ ليندا: "ماهو، ماهو؟.

"أرى المكان الذي لسعتكِ فيه.لكني لا أستطيع أن أراها".

"أوه، يا إلهي".

ظلت متصلبة، ودقّق بوبي في الجسد، الذي كشفتْه الآن، مثل طفل: الطيّات الخفيفة الصفراء للجلد الرطب، الأضلاع الرقيقة، المنْهَدة التي ارتُدِيت ليوم المغامرة، تخفي هذين النهدين الصغيرين البائسين، وتحت زنّار سروالها الأزرق، الملابس الداخلية التي بدتْ كالمنهدة مُنشدّةً وجراحيّةً.

انحنى، وقبّل التورّم الأحمر. أنزلت ليندا عينيها من سقف السيارة إلى أعلى رأس بوبي. كانت مهتمة الآن بإبقاء قميصها مرفوعاً كي لا يغطي رأس بوبي، وكانت مهتمة أيضاً بأن تظل ساكنة، لا تزعجه.

قبّلَ التورُّم ثانيةً، وسأل: "أليس أفضل الآن؟".

"إنه أفضل".

أبعدَ رأسه، فاعتدلتْ، وأنزلتْ قميصها.

قال بوبي: "آملُ في ألا تسيئي تفسير مقصدي".

"أوه، بوبي، كان ذلك من أفضل ما جرى لي".

قال، وهو يشغِّل السيارة: "أوه، عزيزتي، جعلتِ الأمر يبدو كالولادة".

"النسوة يستطعن تصديق أي شيء".

تكلمت بحدّة. لكن كما كان يتوقع. توازَنَ المزاج، وانطلقا من جديد على الطريق صديقين، شخصيتين واثقتين، شخصيتين مقبولتين.

أطبقت العتمة شديدةً. الغيوم السود المثقلة كانت دانيةً، وتلاشى آخر خيط نور من الحقل الأخضر.ثم هطل المطر،شديداً، كاتماً صوت

المحرك، مطرطشاً أبيضَ على الطريق المعبَّد. لم يعد ثمت منظر. ثمت المطر فقط. وفي السيارة رفاهية.

قال بوبي: "هذه الخدوش، أفترضُ أني سآلَفُها. مرّةً عضّني كلب أمي. بمقدورك أن تتخيلي الإضطراب. لي، لأمي، وللكلب المسكين. كانت عضّةً سيئةً جداً. وقد اتخذت، بصورة غريبة، شكل خطين متوازيين تماماً. تحت ربْلة الساق بالضبط. الكلب الآن ميت. لكني ما زلت أحتفظ بالأثر، والحقُّ أنني مسرورٌ لذلك على نحوٍ ما".

بعد قليل قال: "أعطاني طبيبٌ بعض المهدِّئات مرةً. كان ذلك قبل بضع سنين. استعدتُ متاعبي القديمة وظننتُ أني سأعاني الانهيار ثانيةً. لا أظن المرء يفقد الخوف، حقاً".

"مهدِّئات. يالله. لا تقلْ لي إنك تتعاطاها".

"اسمعي. أعطاني المهدِّئات. أقراص بيض صغيرة تبدو غير ذات أذى. كان لها مفعولٌ غريبٌ جداً. بعد ثلاثة أيام- أتريدين حقاً أن أخبرك؟". ابتسمَ.

"أَخبرْني".

"بعد ثلاثة أيام أحرقت بشرة حشفة قضيبي".

ليندا لم تتردد: "كم هو فظيع لك".

"احترقت تماماً". كان لا يزال يبتسم.

استمرّ المطر.

قال بوبي: "غريب. أنا لم أتعلم السياقة، قط، حتى جئتُ إلى هنا. لكني طيلة مرضي كنت أعزِّي نفسي دائماً بتخيل السياقة خلال الليل

البارد المطر، أميالاً بلا انتهاء، حتى بلغتُ كوخاً بأعلى تلٍ. ستكون هناك نار، ودفء، ولسوف أشعر بالأمان التامّ".

"المطر في الخارج. النار في الداخل. الأمر رومانسيّ دائماً".

"لا شك. رومانسيّ جداً. لكنه منحني طمأنينةً". كان في صوته رنّة لوم "ثم كانت تلك الغرفة التي رأيتُني فيها. كل شيء أبيض ناصع. ستائر بيض تهفهف في النسيم. جدرانٌ بيض. فِراشٌ أبيض. كثير من النوافذ العالية، كلها مفتوح. وفي الخارج أشدُّ التلال خضرةً، وفي القاع، بحرٌ شديد الزرقة".

"كأنه مستشفى في جزيرةٍ إغريقيةٍ".

"أعتقد أن الأمر مثل هذا بالضبط. رغبةٌ في التخلي، في أن تكون لا شيء، وفي ألاّ تفعل شيئاً. تكتفي بمراقبة نفسك كيف تصير شبحاً. اعتدتُ أن أُمضي ساعات كل يوم في تلك الغرفة. وكل ليلة. لم تكن لي طاولة جنب السرير. فاعتدتُ أن أضع ساعتي على الأرض. وفي صباحٍ دستُ عليها وكسرتُ الزجاج. كنت سآخذها إلى التصليح، لكني غيّرتُ رأيي، وقررتُ ألاّ أصلحها حتى أتعافى".

"لكن ذلك رهيبٌ، الآن".

"أن تتجول مع ساعة مهشمة. هو فقط ذلك النمط من الشيء المريض الذي تستطيع أن تفعله. لكن الأمر الأشدّ إرعاباً هو السرعة التي تتكيف بها إزاء أن حياتك قد شُطبتْ. في البداية اعتدت أن أقول (سوف أتحسّن الأسبوع المقبل) ثم صار الشهر المقبل. ثم صار العام المقبل".

"أكانت معالجةٌ ما بالصدمة؟".

"مـثل المهـدئات. لم أعـرف أي شيء عـن أي شيء. ظننتُ الطب النفسـاني مزحةً أميـركيـة، وأن الطبيب النفسـاني هو امرؤٌ مثل انجريد برغمان في فيلم (المسحور*).

"أكانت معالجة ما بالصدمة؟".

"إنه يؤرخ لنا. ألم يكن فيلماً هائلاً؟".

"ألم يكن. أنت على حق، بطريقـة ما، حـول الصـدمـة. هكذا بدأتُ أتحـسَّنُ. الطبـيب النفسـاني الذي اعتـدت مـراجعـته، ذلك الذي أبرأ رومـاتيـزمـه بالقول لنفسـه إنه يخاف الموت فقط، قـال لي بعـد إحدى الجلسات (ستأخذك زوجتي في جولة بالسيارة داخل البلدة)، أنا لم ألتقِ بزوجتـه، قط. جلست في غرفة الاستـقبال أنتظرها. كـان عجيباً ذلك الطبـيب النفسـاني. لا عـيادة. بيـته فقـط. ربما كـان عليّ الإنتظار في مكان آخـر. سـمعت هذه المرأة تتكلم مع الآخـرين. ثم سـمعتـهـا تقـول بصوتها الجليّ (لكني أستطيع أن أوصلك. عليّ أن أوصل أحد شـواذ آرثر الشباب). هي لم تعرف أني هناك. ظننتُ كل ما قلته للرجل سيظل مصوناً. لا أعـتقد أني كرهت شخصاً في حياتي ذلك الكره. أردتُ لهما الموت حقاً. لم يكن هذا عادلاً فلقد عالجني الرجل معالجةً جيدة. أعتقدُ أنني كنتُ أتحـسَّنُ دون أن أدري. لكن تلك الصـدمـة، كـمـا تقـولين، أعطتني الدفعة اللازمة.

ليندا نظرت، عبر النافذة المخدّشة، إلى المطر.

"أحد شواذ آرثر الشباب". ابتسم بوبي.

ليندا لم تقل شيئاً.

---

* Spell-bound

عرف بوبي أنه جعلها تشعر بالضيق والتأثُّر. قال بلمسة عدوانيّة: "لا أعتقد أني قلت ما يدهشك؟".

قال بعد برهةٍ، وقد تلاشت ابتسامته، وتبدّل صوته: "المرء يرتكب أموراً رهيبة، المرء يرتكب أموراً رهيبة كي يثبت لنفسه أنه شخص حقيقيّ. أنا لم أشعر البتة بأنني قد استُغللتُ كما هو الآن".

"الموقف العام تغيَّر كثيراً".

"أتساءلُ عن السبب. أنا أكره الشواذّ الانجليز. إنهم فظيعون فاسقون. ثم حدث، بالطبع، أن ألقي القبض عليّ. في ليلة سبت، في المكان المألوف. كان الشرطي في منتهى اللطف. أراد أن "يصلحني". الأمر مضحك. حاول أن يملأ رأسي بصور الرغبة. كان كمن يحثّ على الاغتصاب. وظننتُ في مرحلة أنه سيخرج حافظته ويريني صوراً داعرة. لكن فعل الأمور المعتادة. أخذ مني منديلي، بكل عناية. منديلي! كدت أموت خجلاً. كان منديلاً قذراً جداً. عُرضتْ قضيتي مبكرةً، صباح الاثنين، بعد قضايا العاهرات. مذنبة، مذنبة، عشرة باوندات، عشرة باوندات. أخبرت الحاكم أنني تصرّفتُ (في حرارة اللحظة) ممّا سبّب ضحكاً خافتاً، وسرعان ما عرفتُ بعد قولي هذا إنني لم أكن أستطيع أن أقول كلاماً أشدَّ حماقةً ولعنةً ممّا نطقتُ. لكن أُخلي سبيلي بسرعة فائقة وتمكنت من اللحاق بالقطار السريع إلى أكسفورد. أوه، نعم، بعد العطلة الأسبوعية الصاخبة في لندن عدتُ في الموعد للغداء في القاعة. أظنُّ دنيس مارشال أخبركِ. انني (انهرْتُ)و(اعترفتُ) له في وقتٍ مضى. الأمر يسبِّب لي المتاعب باستمرار، لكنني أنهارُ باستمرار وأعترفُ في النهاية.

ذلك هو الجانب الأنثوي في طبيعتي. ماذا تقول دوريس مارشال عمّا يفعلونه بأمثالي في جنوب إفريقيا؟ يحلقون رؤوسنا، يصنِّفوننا من أهل البلد الأصليين، يُلبسوننا ثياب نساء، ويرسلوننا لنعيش في الحيّ الأهلي؟

مضت ليندا تطيل النظر إلى المطر.

"آسف. كنت أثرثر كالمعتاد، وأظنني أحزنتُكِ".

قالت ليندا: "كنت أفكر في الطريق، حتى لو كان الوحل ليس سيئاً تماماً، فإني لا أرى أن باستطاعتنا بلوغ المجمّع قبل الثامنة أو التاسعة. علينا أن نقرر سريعاً إن كنّا سننحرف نحو فندق العقيد. بدأتُ أشعر أن هناك معنىً في قول المستوطنين المأثور من أن عليك أن تبلغ مقصدك في السفر على الساعة الرابعة. الساعة الآن هي الثانية ونصف".

"لم أسمع بأحدٍ تضوَّرَ جوعاً في الطريق إلى الكولكتوريت".

"علينا أن نحسم الأمر، وإلا سيكون الوقت في غير صالحنا أيَّ دقيقة".

"لا حاجة إلى السؤال عن رغباتك في الأمر".

قالت ليندا: "أعتقدُ دائماً أن العقيد الشيخ ظريف، كما أني أحب رؤية البحيرة في الطقس السيّء".

"أنا سعيدُ لأني لم أحزنكِ بأي حال. لطيف، أليس كذلك؟". إنه يتحدث الآن عن المنظر الطبيعي. "حتى في المطر، كما تقولين".

"تمضي (خلال الليل) إلى بيتك الصغير بأعلى التل".

"ياللّه. أعرفُ أن ذلك اعتُبر دليلاً ضدي. لا أستطيع القول إني آسف لأن تعاقد دنيس مارشال لم يُجَدَّد. لكني لا أصدق أني سأجد واحداً يصدق عدم علاقتي بالموضوع".

"لا أظن الأمر هاماً، يا بوبي".

"بوسوغا-كيسورو جاءني بالأوراق. ماذا بمقدوري القول؟ نحن نثرثر عن الفساد لدى الأفارقة. وعلى أي حال، لمن ولاءاتي؟".

"دوريس مارشال تتمكن من أن تغدو مسلّيةً جداً. لكن لا أحد ينتبه كثيراً إلى ما تقول".

"الأمر يضحكني. طيلة الوقت يطوِّف الناس هنا في البلاد، وينتقدون القوم. حتى إذا حانت مغادرتُهم اختلفت القصة".

"أظنُّ هذا يَصْدق عليّ".

"لم أرد ذلك. أنا آسف لمغادرتكِ".

"لماذا تأسف؟".

لم يستطع القول إنه آسف لأنهما كانا معاً في السيارة ولأنه اعترف لها ولأن لديها الآن فكرةً عنه كما هو حقاً.

قال: "آسف لأن التوفيق لم يحالفكِ".

"الأمر مختلفٌ بالنسبة لك، بوبي".

"تظلين تقولين هذا".

"انظرْ. أظنهم أغلقوا الطريق".

عند مفترق الطريق، وعلى الطريق نفسه،وفي الحقول حول الطريق، وقف رجال شرطة ببدلاتهم الرسمية، سوداً تحت المطر، والبنادق تحت عباءاتهم. وخلف المفترق تماماً أغلقت سيارات جيب غامقة الزرقة للشرطة، الطريق العام المؤدي إلى الكولكتوريت. قنديلٌ أحمر يتدلى من حاجز خشبيّ أبيض، وسهمٌ أسود على لوحة خشبية طويلة يشير إلى الطريق الفرعي المتجه منبسطاً إلى الجبال.

الطريق إلى الجبال كان خالياً. لم يطلب شرطيٌ من بوبي التوقف. لكن بوبي توقَّف. على مبعدة حوالي خمسين قدماً من الحاجز وسيارات الجيب مُدَّ لوحان خشبيان ثقيلان عبر الطريق العام: رذاذ المطر يتراقص على صفَّين من مسامير ستة إنجات معدنية. وخلف ذلك بمائة ياردة، تماماً قبل أن ينعطف الطريق العام، ومختفيةً بالدغل الخفيض، ست شاحنات عسكرية تحمل علامات كتيبة على أبوابها الخلفية.

استعدَّ بوبي بابتسامة، وشرع يُنزل نافذته. إطار النافذة يقطر، والمطر يندفع إلى الداخل. لم يتحرك أي واحدٍ من رجال الشرطة. لم يخرج أحد من سيارات الجيب. ثم بان رجلٌ يجلس في مؤخر سيارة الجيب، سميناً، شابّاً، ذا قميصٍ مُزهر شوكولاتيّ أصفر، تحت عباءته، ومال إلى أمام، وأشار بنفاد صبرٍ إلى بوبي كي يمضي في سبيله، وقد ظهرَ أنه كان يأكل.

قالت ليندا: "شكراً للّه. كنت أخشى تفتيشاً آخر".

قال بوبي: "هم ممتازون بهذه الطريقة. لديهم فكرة دقيقة جداً عمّن نكون".

قالت ليندا: "هم على الأقل جعلونا نحسم أمرنا. الآن فندق العقيد لازمٌ.

أشعرُ أن أوامر سيمون لوبيرو تنتهي هنا بالضبط. ألا ترى ذلك؟ يبدو أن الجيش يُحكم السيطرة. آملُ في ألاّنلتقي بإحدى شاحناتهم. إنهم محض أوباش".

"أنا أُبدي، دائماً، احتراماً للجيش".

"يقول مارتن: عليك أن تتوقف إلى جانب الطريقي كلّما رأيتَ شاحنة عسكرية، وتتركها تمرّ. أحياناً يُطبقون عليك للمزحة حسبُ".

قـال بوبي: "تمنيتُ لو جعلوها عملية شرطة. أنا متأكدٌ من أن سيمون نفسه كان يفضلها هكذا".

5

لعدة أميال، كان الطريق إلى الجبال معبّداً واسعاً آمناً كالطريق العام الذي كانا تركاه للتوّ. لكن هذا الطريق لم يُبْنَ على تعليةٍ، كان يتبع مستوى الأرض، وهي قد استوت، هنا، قرب الجبال، منحدَراً لطيفاً، ناعماً، عارياً، بلا شجر. في المدى المفتوح تَمْثُل أعمدة التسييج، فتُمْكن رؤية الطريق المغمور بالمطر إلى مسافةٍ ما، خالياً، يخترق الأرض المائلة. كانت الجبال شاحبة في المطر، لكنها لم تعد تحدِّد المشهد فقط. إنها الآن تقود العين إلى أعلى.

حقول، أسيجة، طريق ترابيّ متقاطع مع علامة مرور ناصلة، مستوطنة متناثرة من الكونكريت واللوح الذي بلون اللبن الرطب، أشجار وغابة.شرع الطريق يلتوي ويصعد. الطريق ضاق. ثم لم يعد هناك تعبيد. سطحٌ صخريّ خشنٌ فقط. وفي صعودهما لمحا عدة مرات، السهلَ العالي الذي كانا غادراه للتو، حتى خلال المطر هناك ما يشي بأرضٍ منحدرةٍ وراء ذلك. لكنهما، وهما يتوغلان عميقاً في الجبال، لم يعودا يريان سوى الشجر على كلا جانبي الطريق. الانعطافات حادّة حول المقتطَعات، صخرٌ رطبٌ يلتمع تحت متدليا الجذور والتراب. هناك قليلٌ من الانهيارات الذائبة في الخندق الضحل الممتلئ، وعلى الطريق أحياناً.

قال بوبي: "حقاً، من الصعب معرفة ما يختار المرء. مائة ميل من الوحل على الطريق العامّ أو هذا".

سرعان ما تمكّنا من الجبال. بين حين وآخر شاهدا قمماً ترتفع فوق المطر والضباب، حتى بدا لهما، بعد نصف ساعة فقط من الصعود، أنهما على سقف العالم، في قلب القارة. نور الشمس والشجر الخفيض، الطريق الأسود المستقيم، هسيس الإطارات، لعبة الضوء على الحقول الخضر المتألقة: هذا يعود إلى بلادٍ أخرى. السيارة تتخبط على الصخور، أحياناً ولامتدادات معينة كان الطريق مغطًّى بالنثار الذي يؤدي إلى صوت صرير، السيارة ضاجّة، تهدر، منخفضة التروس دائماً تحت وقْع المطر. كان بوبي وليندا يركِّزان على الطريق المعزول، دون كلام، منصتين إلى سيارات أخرى، نصف متوقعين رؤية شاحنات الجيش عند كل استدارة عمياء.

بين حين وآخر، الآن، شاهدا أكواخاً بجانب الطريق، وزنابق برية في بُرَيكات صغيرة يرذُّ عليها المطر. أحياناً تهبط الأرض من جانب، وتُشكلُ الجذوعُ السود لأشجار جانب الطريق والأغصانُ السفلى السود المبتلة، والأوراقُ المتقطرة، إطاراً لمنظر وادٍ داكن الخضرة: تلالٌ ذات مصاطب، ممرّاتٌ حمرٌ ترتقي كل تلٍ إلى كوخ أعشاب صغير، ممرّات تلتوي إلى وديانٍ أخرى مختبئة.

قالت ليندا: "هذا ما عنيتُه. لم أتوقع حقولاً هنا أو مصاطب تلال من صنع أيديهم، تصل حتى القمة. لم أفكر البتة بتلك المسالك، ولم أتصوَّرها بهذا القِدم والثبات".

قال بوبي: "هي الأرض التي تركناها لهم".

ارتدّت في مقعدها إلى الخلف، وخلعت نظّارتها الداكنة، ورأى بوبي أنه أخطأ القولَ، وعزف على النغمة المغلوطة.

قال في ما بعد، وبصوت آخر: "لم أعرف شيئاً عن إفريقيا حين جئتُ هنا. واستغربتُ عندما رأيتهم يعملون في الحديد. صادفَ أن أحداً لم يخبرني بذلك. استغربتُ حقاً. لكنك تعلمين أنك لو تركت أي قطعة معدن مرمية–"

"وغير بالية.فإن سيارتك ستختفي بين عشية وضحاها، ولا يبقى منها سوى المقاعد لتدلَّ على المكان. إنهم سيفككون طائرة بوينغ بكاملها، في مدة أسبوع".

بوبي يعرف المزحة، لكنه ضحك: "أظُنني حين جئت هنا أحسستُ إحساساً غامضاً بأن القوم سيكونون معادين، لأنني أبيض وإنجليزي وبسبب جنوب إفريقيا وما إلى ذلك".

"هم لا يهتمون بجنوب إفريقيا".

"الأمر هكذا بالضبط. هذا التعقيد الأقصى. هم يضحكون".

"أخبرني سامي كسيني أن ذلك يعود إلى أنهم غاضبون جداً".

"سامي يبالغ. مثل السياسيين. سامي يحب أن يتصرف عنصرياً من وقت إلى آخر. إنه يختبرك فقط. يمكن أن يكون ذلك مضجراً. أنا لا أستطيع أن أتحمل هذا الادعاء الإشتراكي العالمثالثي، أتتحمله؟ إنه أمرٌ التقطه من انجلترا. إنه ليس مميزاً. يقال إن سامي أمضى وقتاً سيئاً في انجلترا".

"بالتأكيد، خلّف عنده شيئاً عن المرأة البيضاء. العمياء، العرجاء، العوجاء، لا أحد يَسْلَم".

"أمرٌ مؤلم. لا أدري كم خلقنا من سامي".

"مؤلم. إنه مخيف. سامي يعتقد أنه لا يقاوَم، بسبب كونه أسودَ

سميناً. يشعر أنه تعلم كيف (يتعامل) مع الإنجليز في انجلترا. وحين أتحدثُ جدِّياً أقول إنه مشوَّشٌ بصورة سيئة".

"سامي استثناء. أعتقدُ أن ما أحبه لدى الأفارقة العاديين هو أنك لا تشعر معهم بكونك تحت الاختبار. هم يأخذونك كما أنت.دوريس مارشال على حق. أنا مدينٌ لدنيس بالكثير. جعلني آتي إلى هنا. ماتفعله آن الصبا. تدخل امتحان شهادة لأن الجميع يفعل ذلك. تتقدم إلى مؤسسة هيدلي لأن كل واحد يتقدم. أحسبه نوعاً من الهيستيريا. أشياء كثيرة بإمكانك فعِلُها بصورة جيدة. أشياء كثيرة تعرف أنها ليست كافية لكنها تنفع. تبدو متمكناً، لكنك في الحقيقة منجرِف. لم أكن بالمقاتل. بعد أكسفورد رضيت بأن أتعافى. ولم يخطر ببالي أن أستعمل نفسي كاملاً باعتباري كائناً بشريّاً. أعرف أن شرح ذلك ليس يسيراً، وكلُ ما قاله المرء قد يَعْوَجُّ هنا. حولنا أناسُ كثارُ يعرفون كيف يثيرون الصخب الصحيح".

"تجعل الأمور عسيرةً جداً، يا بوبي".

"بأي طريقة؟".

"الناس يأخذون أعمالاً لأسباب مختلفة. وأتساءل إن كان الناس يتحدثون عن أماكن عيشهم بقدر ما يتحدثون عن إفريقيا".

"في أكسفورد، لا يتحدث الناس إلا عن كونهم في أكسفورد".

"أظننا جرَّبنا كثيراً لنصل إلى الصخب الصحيح. كان علينا أن نعرف منذ اليوم الأول أن البلاد لم تكن لنا،وأنه علينا أن نستجمع شجاعتنا ونعود إلى بلادنا".

"لكنكِ هنا، منذ ست سنوات".

"كما يقول مارتن: الأكذوبات الوحيدة التي نعاقبَ عليها، هي التي نقولها لأنفسنا".

"وهل أنت ذاهبةٌ، حقاً، إلى الجنوب؟".

"هي فكرة فقط. بعد أربع سنين سوف يبلغ مارتن الخمسين. أفترضُ أننا نستطيع العودة إلى انجلترا، ومارتن يستطيع أن يكون صحافياً حراً. لكنك لا تستطيع أن تبدأ وأنت في السادسة والأربعين. ومارتن ليس من النوع الصحافيّ الحرّ. كما أنه ليس بالمُقاتل أيضاً".

تخبّطت السيارة وتخبّطت. الأشجار تقطر.ومن بين الأوراق السود المتهدلة لمحا خلف القمم البعيدة بحيرة جبلية صغيرة، داكنة، كالسماء.

شجرة جكرنده بجانب الطريق كانت نفضت أزهارها الأرجوانية، مساحبَ من لونٍ رقيقٍ على صخر الطريق ووحله: مضت السيارة فوقه.

"حياتي هنا"

"بوبي!"

في ممر على الجانب المشجَّر للتل، تماماً فوق الطريق، كان حوالي عشرة أفارقة في ثياب قطن زاهية جديدة يسيرون واحداً بعد آخر تحت المطر، وقد غطّوا رؤوسهم بالأوراق. كانوا شبه متخفِّين بثيابهم القطن الزاهية، وبالأوراق على رؤوسهم. لم ينظروا إلى السيارة.

قالت ليندا: "هذا مما يجعلني أشعر بالبعد عن بلادي. أشعر أن هذا النمط من حياة الغابة كان مستمراً إلى الأبد".

"كنت تقرأين كونراد كثيراً. أنا أكره ذلك الكتاب، وأنت؟".

"تعني أنهم قد يكونون ذاهبين إلى زفاف فقط، أوإلى اجتماع سنوي عامّ".

"الآن، أنتِ مثل دوريس مارشال".

"تماماً".

"أحببت دنيس. لا أستطيع إلا الاستمرار في الشعور بأني مدينٌ له بسبب ما قدَّم لي. لقائي معه في كلية جودي تلك، غيَّر حياتي. أخذتُ أشعر بأني أريد أن أستعمل نفسي من جديد. حصل لي على عمل هنا، وأعتقدُ أنه أراني كيف أنظر إلى البلاد. لكنه أرادني أن أظل عاجزاً. أراد أن يظل وسيطي. ظل يقول إني لم أفهم الأفارقة وإنه سوف يتعامل معهم من أجلي. لم يعجبه أني بدأت أجد موطئ قدمي الخاص، وأتحرك. شخصٌ ساذجٌ حقاً. أرادني أن أظل ملْكه. وقد جُنَّ حين اكتشف أنني لا أرفض الإتصال الجسدي مع الأفارقة".

"لم يكن أيُّ منكما كتوماً".

"هو تكلم كثيراً عن خدمة إفريقيا. لا أستطيع إخبارك كم كنت ممزَّقاً. بعد ذلك بدأ حملته ضدي. لكن ذلك حصل حين شرعت أودّ أوغونا وانجا-بتيري وبوسوغا-كيسورو. فهِما مقاصد دنيس.

"لا أريد أن أسمع المزيد".

"كلهم هكذا".

انطفأت فجأةً حماسة بوبي. شعر أنه دمَّر جو الاعتراف والصداقة وأنه خسر ليندا. لقد ثرثر. وفي الصباح سيشعر بالندم التامّ. وستكون ليندا من بين أولئك الناس الذين يختبئ عنهم. تجهَّم وجهه. الرجل الصامت.

مَرّا بمزيد من الأفارقة على جانب التل. ليندا لم تهتف، ولم تُشر إليهم. وبدأ بوبي يبحث عن كلمات تعيد الجو السابق. قبل نصف ساعة

كان لديه الكثير مما يقول، والآن لا شيء يقترح نفسه. وإذ شعر بليندا جالسةً قربه، أراد فقط أن يعيد ما قاله، أن يلتقط تلك المقاطع التي اجتذبتها.

قال: "أعتقد أن هذه هي رحلة السيارة التي ألفْتُ أن أحلم بها. الجبال، المطر. الغابة. إنها مثل بلاد برغمان".

مُرْتبَيات صفراء من التراب الطريّ بدأت تظهر على جانب الطريق، وعلى الطريق نفسه أحياناً. سيارات ثقيلة كانت مرّت قبل حين، وقد نثرت عجلاتُها التراب ونشرته على امتداد الطريق، وثمت مجارٍ صفرٌ صغيرة في كل مكان. تحتهما كان وادٍ، داكن الخضرة، وغائم المنظر في المطر. وفي الوادي عدة تلال صغيرة مخروطية الهيأة، وكلها ذو مصاطب، وكل مصطبة ذات كوخ حشيش، مع كدس حشيش. وإلى الأكواخ، وعلى امتداد قاع الوادي، تمتدّ ممرّات ذات لون بُنّي خفيف، مثل الممرات في حكاية خرافية.

"ألفْتُ أن أسوق السيارة يوماً بعد يوم على هذا الطريق،وأقضي ساعاتٍ في تلك الغرفة البيضاء–".

"بوبي!"

كانا ينزلقان، منحرفين في البداية إلى اليسار، ومؤخرة السيارة تضرب مُرْتبىً ترابياً، وكان جدار جانب التل يأتي إليهما، ثم إلى اليمين، الوادي واضحٌ تحتهما، ولم ينقذ بوبي من الفزع والإرتباك إلا إدراكه أن المرتبيات الترابية ستمنعهما من التردّي. ثم صارت الحركة غير معقولة، وعشوائيةً، فجأة صارت السيارة خفيفةً، تكاد تنقلب عند كل مَيَلان. وعندما استقرّت السيارة أخيراً، كانا مائلين قليلاً في خندق

عند جدار جانب التل، وبمواجهة الطريق الذي جاءا منه، وعميقاً في دغل جانب الطريق، كانت أغصانٌ سودٌ وأوراقٌ مبتلة قد التصقت بنوافذ الجهة اليسرى. المحرّك انطفأ، وكانا يحسّان بالمطر على الأوراق والسيارة.

بوبي أعاد تشغيل السيارة، وحرّك معشّق التروس. ارتجّت السيارة وسمعا أنين العجلات دوّارةً في الوحل. حاول ثانيةً. هذه المرّة لم ترتجَّ السيارة، سمعا الأنين فقط.

فتح بوبي بابه. انهمر المطر والورق والريح. اعتلى الطريقَ منحنياً. وابتلَّ قميصه البلدي الأصفر واسودَّ بالمطر، بعد أن كان يتراقص مع حركته السريعة.

خاطب ليندا: "لم يحصل ضررٌ. أرى ذلك. أظن السيارة تحتاج إلى دفعةٍ فقط. أنتِ تولّي السياقة".

"لا أستطيعَ أن أسوق".

"لا بدَّ من شخصٍ يدفع".

"ألا نستطيع أن ننتظر حتى يأتي أحد الأفارقة الذين رأيناهم؟".

"كان ذلك قبل أميال. سنكون غائصين تماماً حين يصلون".

خرجت ليندا من باب بوبي ووقفت في المجرى خلف العجلات الدوّارة. دفعتْ، ثم بتوجيهٍ من بوبي حاولت أن تهزّ السيارة، ثم اكتفتْ بأن ضربت راحتيها عليها. قرّر بوبي استعمال معشّق التروس إلى الوراء. أدّى معشّق التروس إلى الوراء، المطلوبَ. تحرّرت السيارة، وأعادها بوبي إلى الطريق.

في ما بعد، حين كان بوبي يعمل على إدارة السيارة كي تواجه الطريق الذي يسلكانه، وليندا تتحرك من جهة الطريق هذه إلى تلك

لتدلَّهُ، موحلةً حتى ركبتيها، مبتلة القميص، مكشوفة المنْهدة، بليلةَ الشَّعر، ملطّخة اليدين بالوحل، في ما بعد ارتطمَ أنبوب العادم بكومة ترابٍ فتوقّفت السيارة. ترك الاثنان كلاهما السيارة بحثاً عن عصا لتخليص أنبوب العادم: السيارة الخالية تسدّ الطريق بزاويةٍ غريبة، وراكباها منقوعان ملهوفان في ناحيتين منفصلتين من الدّغل، بوبي قلقٌ ثانيةً من الشاحنات العسكرية، وليندا في النهاية متهسترة، تقتلع الدغل عشوائياً وتقدِّم إلى بوبي فروعاً صغيرةً ونُتَفا كمن يقدِّم قربان أعشاب.

حين اجتمعا ثانيةً في السيارة الجاهزة لم يتكلما. كان المنظر جديراً بالمعاينة، شأنه من قبلُ، لكنهما أهملاه. السيارة مبتلة رطبة، وعلى المقاعد اللدائنِ والحُصُرِ المطاطِ وحلٌ، وعلى الأرضية ولوحة أجهزة القياس وحلٌ.

قال بوبي: "لستُ أدري أيّ أبله ألقى بذلك التراب على الطريق".

ليندا لم تنطق.

بدا لأميال أن أكوام التراب مستمرة، وكلما سارا على الطريق الأصفر توقَّعا انزلاق السيارة. وبدون تعليق سحقا أزهار جكرندة أرجوانية في الوحل. آنذاك، أيضاً، توقُّف المطر. انجلت السماء، غدت شبه فضية إلى الغرب، وعرفا، بعد غسق الغابة والمطر، أن الوقت لا يزال عصراً.

في الوديان، ذلك السكون الذي يُعقب المطر المستديم. الممرات خالية، والغيوم المنهَكة أقلُّ عتمةً الآن، وأعلى، وبلا حركة. النباتات والأشجار ساكنة. السماء الداكنة مستقرّة: الشمس لن تبزغ ثانيةً ذلك

النهـار. وفي مُضيِّهمـا، أخذا يريان أناسـاً على الممرات، أناسـاً داخل الحظائر. الدخان يتعالى مستقيماً من بعض الأكواخ.

دائماً، تابَعَ الطريقُ تضاريس تلّ، ودائماً كان تلٌّ ودغلٌ على جهة. ولفترةٍ الآن، في تلك الغابات، على ممراتٍ موطوءةٍ أومُوَطّأةٍ في أفاريزَ سوداء بُنّية، كانا يشاهدان أفارقةً يسيرون، مرتدين ثياباً جديدة زاهية. ما كانت يسيرةً رؤية الأفارقة بجلودهم السود وثيابهم القطنِ مفوّقة الألوان. والآن رأى بوبي وليندا أن جانب التل الذي يسلكانه ملآنٌ بالأفارقة. حيثما نظرا شاهدا مزيداً. في إفريزٍ عريضٍ مُقتطَع في التل كان ملجأً منخفضٌ مسقوفٌ بالأغصان. وكان يبدو جزءاً من الغابة بسقفه الورقِ وأعمدته السود وفروع شجره المشذّبة، لكنه كان مكتظّاً بأفارقةٍ جلوسٍ، وكلهم زاهي الملبس. وعلى ممرّات متعرجة فوق الملجأ وتحته وقف مزيدٌ من الأفارقة.

قالت ليندا: "ليس زفافاً. إنها أيمانُ الكره تلك، ثانيةً.

"هم ليسوا من قبيلة الرئيس".

"أقربُ إليها بما يكفي. في مكانٍ ما، فوق، خلعوا ثيابهم القطنَ الجديدة الزاهية وهم يرقصون عراةً متماسكي الأيدي ويأكلون الروث. ربما أرسل إليهم الرئيس قطعة لطيفة من الروث. قد يختفي المرء هنا دون أثر. أتعرف ماذا حدث في الناحية الأخرى، ألا تعرف؟ لقد جرت الأنهار دماً. لكن ذلك أيضاً أمرٌ لم يقع البتة".

قال بوبي وقد بدأ مزاجه يغلي: "كانوا أقناناً هناك. لقد اضطُهدوا قروناً".

قالت ليندا: "غير معقول، حدٌّ اللعنة".

ركّزَ انتباهه على الطريق.

"ليس بالنسبة لهم. غير معقولٍ بالنسبة لي. وأنا هنا".

كانا يمضيان نحوأعلى المرتفعات. السماء انفتحت أكثر. خرجا من الغابة ليكونا على المرتفَع العاري، والوادي من الجهة الأخرى انفتح انفتاحاً مشهوداً: "بلادٌ مصغّرة تمتد تحتهما، وكل زاوية ملأى بالتفاصيل ذاتها من تلٍ ذي مصاطب، وكوخٍ ينتهي في مصغّراتٍ من ذاته، تنحلُّ في الضباب. المشهد جديرٌ بالهتاف.

لكن ليندا اكتفت بالقول: "برغمان".

تجهّم وجه بوبي.

شرعا يهبطان، ولم يعودا يريان المشهد.

في هذه الناحية من المرتفعات كان النبت مختلفاً، أكثر عشبيةً. بعض جوانب التلال كانت مريشةً بقصب خيزران دقيق. التقطا لمحةً من البحيرةِ المتجهينِ إليها، رصاصيةً في النور الكابي. ثم دخلا، وهما ينحدران، غابةً، فهبطت عليهما العتمة. التوى الطريق، وبدا الإنحدار أصعب. لا أثر للبشر، حتى بلغا بضعةَ أكواخ، ثم دارةً في منفسَحٍ نامٍ ثانيةً، تعلن الإقتراب من بلدة البحيرة.والآن، في السيارة، استنفدا الصمت والأذى. لقد نشفا، والوحل على المقاعد ولوحة أجهزة القياس يجفّ سريعاً.

قال بوبي: "هل يقدم العقيد حمّاماً ساخناً؟".

قالت ليندا بلطف: "آملُ في ذلك".

بدا كأنهما يستديران استدارة أخرى في الطريق الصخريّ. لكن الغابة والعتمة انتهتا، وهما الآن في الفضاء المفتوح ونور الأصيل.

البحيرة أمامهما، واسعةٌ كالأفق، والماءُ كالسماء. هما الآن على الإسفلت من جديد، على طريق قصير بدا كأنه ينحدر على التل إلى البحيرة مباشرةً، لكنه انعطف ليُظهر البلدةَ، ثم تحوَّلَ بغتةً إلى شارع مشجَّر ذي مسربين، مع أعمدة مصابيح في الوسط، ونخيلٍ سامقٍ، مستوردٍ، لايوحي فقط بالنبات الطبيعي للمناطق الإستوائية، وإنما بالإزدراع لنباتات متكيفة أيضاً في منتجع لبلاد أكثر برودةً.

كان الشارع المشجَّر ذا مطبّات. حاملُ أحد المصابيح مكسور. حديقة تفصل الشارع المشجر عن البحيرة، مقاهٍ غير مضاءة عند الضفة. رصيف قوارب صغير خالٍ. على الجهة الأخرى من الشارع المشجر داراتٌ مشيدة داخل حدائق هائلة، ملأى باللون، مدهشة بعد الغابة. بوغونفيلا حمراء تزيِّن شجرة ميتة. محطة بنزين قديمة ذات مضخة واحدة. نافذة صغيرة لدكّان سياحة موسوقة بالعاج والجلديّات. على لوحة خارج بناية منخفضة عادية كتبت إعلانات بخط يدٍ أبيض عن أسماء أفلام وممثلين.

وبغتةً أبدت البلدة التي ظهرت متماسكةً في البداية، معايبَها. مداخلُ الدارات نما نبتُها، وارتفع في عتبات بواباتها الرملُ والقمامة. الحديقة العامة لم تُشَذَّب. كُرات المصابيح وقناديل العربات المقلّدة في الجدران مهشمةٌ فارغة. المعدن صديء في كل مكان. الشارع المشجر كان أكثر من ذي مطبّات. كان ذا شقوق وأخاديد، والمجاري الكونكريتية سُدَّت بالرمل والقمامة والقصب. المماشي الجانبية نما نبتُها. وسقوف عدد من الدار منهارة. سقفُ شرفةٍ من الصفيح كان معلّقاً مثل جناح طيرٍ مبسوط.

الشارع المشجر والحديقة العامة بُنيا على أرض غير ممهدة. قرب نهاية الشارع المشجر جدار كونكريت طويل أصابه العفن، وصار ينزُّ

ويميل بفعل ضغط الأرض من الجهة الأخرى. فوق مدخل البوابة لوحة عمودية بشكل سهم ذي رأس مائل، تقول: فندق.

دخلا، ومضيا على الساحة المفروشة بالحصا، حيث تنهض بعد شريطٍ من حديقة قديمة يوازي الجدارَ الكونكريتي، بنايةٌ خشبيةٌ ذات طابقين وشرفةٍ لا تزال متماسكةً كما يبدو.

عندما توقّفا سمعا صوت الماء. وهو آتٍ من البحيرة. ومن البناية نفسها، من غرفة صغيرة قرب مكان توقُّفهما، سمعا صوتاً باللغة الانجليزية يصيح.

قالت ليندا: "ذلك هو العقيد. إنه في نشاطه".

6

استمرَّ الصياح، بينما أخرج بوبي وليندا أمتعتهما من السيارة، وشغَّل بوبي جهاز الإنذار، الذي غرَّدَ فوراً، ثم كاد ينهق حين أغلق بوبي الباب.

استمرّ الصياح، لكن الإفريقيّ الذي هبط الدَّرجات من المكتب، حاملاً بيده قبعته اللبّاد، كان يبتسم، وعندما رأى بوبي وليندا اتّسعت ابتسامته. حين اعتمر قبعته صار بلا وجه، واختفت ابتسامته. بدت ثيابه المتهدلة ذات الطراز الأوروبي الكالح مبتلّة، وجزمته العسكرية المهترئة كانت تنسحب على الحصا الرطب طيلة الخروج من الساحة.

قطّبَ بوبي، وهو يصعد إلى المكتب مع ليندا. العقيد كان سمع السيارة، وفي المكتب، في خضمّ السجلات والأوراق، والكتب والتقاويم، كان ينتظر.

وجهٌ متجهمٌ قابل وجهاً متجهماً. كان العقيد أقصَر ممّا توقّع بوبي. كان في قميص قصير الكُمّين، وكانت يداه الممدوتان مضغوطتين على طرف النُّضد. عضلات ذراعيه انكمشت، لكنه لا يزال متين البنية. أهملَ ليندا، لكنّ عينيه السوداوين المترقرقتين، الممتلئتين توتراً من صياحه، ومن غضبٍ كاد يُسيل دمعه، ثبتتا على بوبي.

لم يكن العقيد ليتكلم أولاً. وليندا، المهملة، كانت صامتة أيضاً.

قال بوبي: "نريد غرفتين لهذه الليلة".

انحدرت نظرة العقيد من وجه بوبي إلى قميص بوبي.

تقويمٌ جبلي معلّق من كوى الحائط الخلفي فوق خزانة حديد قديمة سوداء.

لا صورة للرئيس، فقط لوحة مائية مؤطرة عن البحيرة والفندق، يعود تاريخها إلى سنة ١٩٤٩، مهداة من الفنان (إلى جيم).

بدون أن يتكلم، فتح العقيد سجلاً وقدمه إلى بوبي.بوبي، متجهماً أيضاً كتبَ. وأثناء كتابته فقط شرع يفهم أن العقيد كان شيخاً. كانت يدا العقيد ذواتي بثور، وكان الجلد مرتخياً. اليدان ترتعشان وهما مضغوطتان على النُّضد. كما شعر بوبي أيضاً بأن للعقيد رائحة غير مستحبة.رأى كذلك أن القميص التحتاني للعقيد ذو لون بُنّي من الوسخ، ورأى الوسخ في طيات الجلد لرقبة العقيد.

مَرَّر بوبي السجلّ إلى ليندا. تراجع العقيد عن النُّضد، وأدار رأسه، وصاح بالخادم. آنذاك توقفت يداه عن الإرتعاش، وعندما التفت إلى بوبي كان وجهه مرتاحاً، بل أن عينيه تَشِيان بالسخرية.

قال: "أظنكما ترغبان في العشاء؟".

قالت ليندا: "قد يجيء شخص ثالث. ربما علِقَ بواحدة من أكوام الطين تلك على الطريق".

نبأ لبوبي. الآن صار التجهُّم والصمتُ من نصيب ليندا أيضاً، مثل ما كانا من نصيب العقيد.

لم يتكلما وهما يتبعان الخادم إلى البناية الرئيسة ويرتقيان الدّرج.

كان الخادم فتيّاً. البنطلون الأسود والسترة القصيرة الحمراء، صارا، حين ارتداهما، نوعاً من ملبسٍ إفريقيّ. في كل خطوة كانت عقباه تطلأن من حذائه الأسود. الصبغ متقشرٌ على الدرج. وعلى منبَسَط الدّرج كومةٌ من ألواح قديمة غير مصبوغة، قد تكون رفوفاً استُغني عنها. وفي الممر المظلم في الطابق الأعلى حيث البساطُ الجوتُ له رائحة الرطوبة والتراب، أُوقِفَ سريرٌ على طرفه. وبلا كلام، دخل بوبي وليندا، كلٌّ منهما في غرفةٍ تواجه الآخر. ليندا كانت المحظوظة، إذ أن غرفتها تطل على الشارع المشجّر والبحيرة.

غرفة بوبي كانت مغلقة، شبه مظلمة. النافذة المنقّطة بالمطر تُظهر خزّان ماء الفندق، والشجر والدغل، وسطوح المنازل في الشارع القريب، وفي الساحة إلى أسفل، السكنُ المنخفض الأبيض لخدم الفندق. سمع بوبي الثرثرة ذات النبرة العالية بلغة الغابة، وقعقعة القدور، وهتافات كالصرخات. لا ضجيج يأتي من بقية البلدة التي يخيِّم عليها ضبابٌ خفيف الزرقة، كأنه متأتٍّ من نيران طبخٍ متناثرة.

الفراش مُعَدٌّ منذ حين. غطاء الفراش ذو الأزهار الصغيرة، تزيَّنَ بكل ما يُعيب الغطاء. الضوء العلوي كان معتماً، وفي السقف الخشبي تتبدّى عروق اللوح وعُقَدُه مثل حروقٍ في الطلاء الأبيض. في غرفة

الحمّام كانت التثبيتات عتيقة ثقيلة، والمغسل متشققاً، ملطّخاً حيث يقطر الماء. النحاس على القابس كان أسود. والماء حين فتحه بوبي بصقَ أحمرَ بُنّياً موحلاً: كالماء بعد المطر. لم يَصْفُ الماء. لكنه صار ساخناً. اغتسل بوبي.

في الطابق الأدنى، أدار أحدهم مذياعاً. وقعقع صوتُ إفريقيٌّ في البناية الخشبية الجوفاء، مع أخبار الساعة السادسة من العاصمة، أو مع التعليق الذي يلي الأخبار: صوتٌ يقرأ كلمة كلمة، وأحياناً مقطعاً مقطعاً، محشوراً، ثم محاولاً الإفلات "إق-طاعي... إر-رهابي..... انفـــصـ-الـي..... ابر-ام لنكولن .....قـــوات الأرمن...... أبيدوا.....حشرات".

كان وقع الكلمات على بوبي مثل تأتأةٍ غاضبة. وبمواجهة منافسة المذياع قرعَ خدم الفندق قدورهم أعلى، وضحكوا ضحكاً أشدَّ، وصرخوا أكثر بلغتهم، لغة الغابة.

غرغر الماء البنّي عبر المنفذ النحاس المسودّ، في الفجوة السوداء، عبر خطوط الوحل الطافية مثل أشنات في قاع جدول. كانت رائحة عفن. المنشفة البيضاء كانت مهترئة خفيفة عفنة الشميم. فجأةً، بعد أن نشّف وجهه، وضغط المنشفة على عينيه، أحسَّ بوبي بالإنهاك، وبالدّوخة من الرحلة الطويلة، وفي تلك البلدة المنتجع التي لم يكن ليعرفها، وعند ضفة تلك البحيرة، في غرفة هذا الفندق، وفي هذا الوقت من اليوم، الإنهاك الذي أحسَّ به بوبي استحال كآبةً.

ما كانت الكآبة كريهةً. الوحدة، رغب الآن في أن يكون وحيداً، وتمتعَ بفكرة الرغبة في أن يكون وحيداً. كان يوماً مديداً، ثرثرَ فيه،

وتعثّر في أحكامه كثيراً. رغب في أن يكون غائباً، أن يكون مفتقَداً. كانت بداية أحد عبوساته، وبهذه الطريقة كان يعاقب نفسه وينشِّطُها.

لم يغيِّر سرواله. ارتدى القميص الرمادي الذي لبسه غداء العاصمة، أمس الأول، ونزلَ. وفي الحانة،حيث لم يزل المذيع يتعثر بكلماته الغضبى، ظلامٌ. فوق جدار الونكريت الطويل، وهو على هذا الجانب ليس أعلى من متراس، كان سعف النخل في الشارع المشجّر أسود إزاء البحيرة والغيوم الثابتة. في الحديقة العامة، يُخفي الدغلُ الحائطَ حيث ترتطم مياه البحيرة. الدخان معلَّقٌ خفيفاً في الهواء. والنور كاد يأفل.

وقف بوبي عند مدخل بوابة الفندق. لم يكن يريد الخروج إلى الشارع المشجر. تمشّى في الساحة. لمح نيران طبخ في مسكن الخدم. نظرت إليه نسوةٌ وأطفال. لم يكن يتوقع مثل هذا العدد. مضى ليقف عند مدخل البوابة ثانيةً. أحسَّ بأنه مراقبٌ. التفتَ فرأى العقيد مستنداً إلى مدخل الحانة غير المضاءة، ينظر إليه. بوبي خرج إلى الشارع المشجر.

سار بمحاذاة الجدار الكونكريتي للفندق، ماراً بمنزلٍ خالٍ، أخضر من الرطوبة في ظل شجرة ضخمة، طين وكُسارة طابوق على الشرفة. أعشابٌ تشدّ الرمل والتراب الفائضَين من ممشى الدخول، ثم انعطف إلى شارع جانبيٍّ. كان الشارع الجانبي قصيراً، والبلدة ذات عمق ثلاث بنايات فقط. في شرفة إحدى الدارات كان أفارقة ينحنون حول نار طبخ. وقف رجلٌ ذو بدلة عسكرية مهلهلة حين مَرَّ بوبي. بوبي أشاح بوجهه عنه. لكن الرجل وقف فقط كي يلقي شيئاً من جيبه في القدر.

كانت البلدة مسكونة. وكثير من البيوت التي بدت مهجورة كانت مسكونةً، بأفارقة جاؤوا من الغابة، واستعملوا الأشياء الغريبة ذات الزوايا التي وجدوها، الحيطان، الأبواب، النوافذ، الأثاث، كي يعيدوا تشكيل مأوى كوخ الغابة الدائريّ. داخل غرف الاستقبال أقاموا مُستظَلاّتٍ، ورفعوا سقوفاً على الجدران النصفية للشرفات. النيران توقَد على الصفائح، والطابوق هو أثافي الموقد. رجال كثيرون يلبسون بدلات عسكرية مهلهلة، لا تزال رطبةً من المطر، وجيوبها موسوقة متهدلة. دراجة هوائية مستندة إلى مدخل بابٍ بلا باب، كأنه داخل سقيفة كوخ.

على الأرصفة، نما العشب حول قمامة المنازل، أشياء لم يمكن استعمالُها فألقيتْ خارجاً: ألواح مكسورة من زجاج صور، أجزاء من أرائك، حشيّاتٌ فُتحتْ من أجل نوابضها، كتب ومجلات التصقت صفحاتُها ألواحاً صُلبةً. ومرةً رأى بوبي علبة سجائر مسحوقة، عليها بالأسود فوق الأحمر الباهت، كلمة: BELGA إنها ذكَّرَتْ بالعطل الأوروبية: كأن بلجيكا وأوروبا كانتا تقعان، في أحد الأيام، عبر الماء، وأن البحيرة ليست سوى نسخة للقنال الإنجليزي. هذا المنتَجع لم يُبْنَ للسائحين في إفريقيا، فلقد أنشأه أناسٌ ظنوا أنهم جاؤوا إفريقيا ليبقَوا وأرادوا منتجعاً هو نسخةٌ من أشياء في البلد: حديقة عامة، رصيف زوارق، متنزّه شاطئ. والآن، بعد الاضطرابات عبر البحيرة، بعد الاستقلال وجنون الامتلاك، بعد تمردات عسكرية عدة، بعد الهجرة البيضاء جنوباً وترحيل الآسيويين، بعد كل هذه المَقاتل، لم تعد للمنتجع من وظيفة.

في البُعد الآن، كان صوتٌ منغَّمٌ واهنٌ، كأنه لرقصٍ، لكنه جدُّ واهنٍ حتى أن بوبي لم يستطع التأكد بالرغم من توقُّفه كي ينصت. استمرَّ يمشي. في النهاية الدغلية لشارع فرعيّ بلغ صفّاً مما كان مخازن. آنذاك سمع صوت محرِّكٍ، وبعد قليل جاءت سيّارة تقرقع على الشارع المهشَّم. كانت سيارة شيفروليه تقودها فتاةٌ هندية. توقفت خارج أحد المخازن. بالكاد نظرت إلى بوبي ودخلت مسرعةً، وحذاؤها ذو الكعب العالي يدقّ على الطريق والكونكريت. كان المخزن مظلماً، لكنه لا يزال يعمل، وهو مفتوح للمتاجرة. الرفوف زاهيةٌ بالعلب، ورجلٌ وسطٌ خلف النُّضد.

استمرّ الصوت المنغَّم. صار أوضح، وأعلى منه سُمع رجلٌ يصيح. استدار بوبي إلى الخلف، باتجاه انفتاح البحيرة، كامدةِ الفضة من خلل الدغل والأشجار والأسيجة التي بدأت تنمو أشجاراً. غير أنه كان يسير باتجاه الصوت، وكان الصوت يقترب. وعندما بلغ الشارع المشجر رأى سَريّة جنود يأتون في صفَّين إلى الشارع المشجر خارجين من نفق أشجار. في العتمة، وإزاء بَشَرتهم السوداء اللامعة كانت فانيلات الجنود البيضاء تتوهج مثل دروعٍ بيضٍ كثيرة، وأحذيتهم الخيش البيضاء مثل رفرفةٍ منفصلة لأجنحة حمام. الرجل ذو الشاربين الذي كان يصيح بهم، ويركض معهم، بزّة التدريب للجيش الإسرائيلي. ثلاثةً ثلاثةً جاء الجنود، سراويل من الخاكي، أحذية بيضاء، فانيلات بيضاء، وبلا وجوه. الإسرائيلي الذي كان يعلن الوقت، كان يجري إلى مقدمة الطابور. ثمت استدار، واستمرّ يصيح، رافعاً رِجليه عالياً، ومستعرضاً السرية وهي تركض مارّةً به. لكن الإسرائيلي كان يفعل شيئاً، والأفارقة يفعلون شيئاً آخر. الإسرائيلي كان يستعمل جسده، ممرِّناً، مُبْرزاً لياقته. أما الأفارقة

نصف مغمضي العيون فقد انجذبوا في ما يشبه رقصة الغابة. رُكَبُهم لا تكاد ترتفع، وجوههم بلا ملامح، يعلوها السرور، ومرّوا بالإسرائيلي يرمشون، يرمشون للتخلص من العَرَق المتحدر من رؤوسهم الحليقة إلى عيونهم. وعندما مرّوا جميعاً، استدار الإسرائيلي، وهو لا يزال يصيح: آه! آه!، ثم تحوّل مثل كلب الراعي إلى مقدمة الطابور من الناحية الأخرى، وهو ينادي الأفارقة بلا طائل. لقد صار الأفارقة بفعل طعام الجيش سماناً، منتفخي الأذرع، بينما المدرِّبُ الإسرائيلي ضئيل، نحيل، مستدقّ.

مضى المدرِّب الجنود في مسربٍ واحدٍ من الطريق المشجّر، وفي المسرب الثاني كان بوبي يتبعهم متجهاً إلى الفندق. فانيلات الركض البيض كانت تلتمُّ في العتمة ورفرفت الأحذية البيض، ثم اختفوا في النبات المظلم وسط الشارع المشجر. وبالتدريج انحسر وقعُ الأخذية، لكن صيحة المدرِّب استمرت واضحةً.

ثم ارتفع من جديدٍ، وقعُ الأحذية والصيحات. لقد استدار الجنود، وكانوا يمضون على المسرب الثاني من الشارع المشجَّر. إفسادٌ للعتمة، بياضٌ يخرج من السواد توقَّف بوبي يتفرج. لكن بوبي شعر بالقلق حين اقترب الجنود وظهرت الرؤوس السود، الحليقة فوق فانيلات بيض مهتزّة. من الخطأ أن يحدِّق إليهم، فقد يُلحَظ ذلك. هكذا نظر إلى أمام باستقامة، مقاوماً إيقاع الرقصة، ماراً بالجنود المتعرِّقين الرامشين ومدرِّبهم الذي هرول، على مبعدة بوصات منه، صائحاً: آه! آه!.

هبط الليل الآن. وفي شرفة أو شرفتين توقّدت نار المخيم الإفريقي واهنةً واشتعلت بعض مصابيح الشارع، زرقاء، فلورسنتية. بانَ نورٌ

ضئيل في دارة في الناحية الأخرى من الشارع المشجر. أمسى لون الحديقة العامة المهملة في لون البحيرة أسود صقيلاً. وصل بوبي ثانيةً إلى البيت ذي الشجرة الضخمة الذي بانت كتلته إزاء الإضاءة الشاحبة لساحة الفندق. أسفل الحائط الكونكريتي كان الظلام دامساً. الضوء يتمدد من مدخل البوابة، وساحةُ الحصباء متقاطعة الظلال كانت الحانة مضاءة. وبدا ظلٌ ليندا في الشرفة.

"بوبي؟".

لقد افتقدتْه. بدت وحيدةً تَنتظر. لقد بدَّلتْ ما ترتديه، وهي الآن في سروال أبيض أو قشديّ.

قالت: "أرغب في بورت وليمون".

لكن الحانة صامتة وموحشة،والمزحة المتعلقة بالعقيد ودوريس مارشال لم تفعل فعلَها.

جلسا صامتين، يحتسيان الشيري، يتملّيان الصور الفوتوغرافية والمائية على الجدران ذات اللوحات، وهيأة جوني ووكر المترب على طاولتهما. العقيد وهو يلبس الآن نظّارة فضية الإطار، جلس تحت أحد المصابيح السقفية يقرأ كتاباً، وكان يحتسي الجِنّ. الخادم ذو السترة الحمراء متقاعسٌ وراء النُّضد، ينظر إلى النُّضد.

وقْعُ خطى على الحصباء، على الدرجات الكونكريتية، على الشرفة، ثم وقف إفريقيٌ طويل نحيلٌ في مدخل الحانة. تحت معطفٍ عسكريّ مهلهل كان يرتدي بدلة سوداء، وقميصاً أبيض قذراً، وربطة فَراشة سوداء. وكانت جزمته شبه العسكرية مطيّنة. توقّف في المدخل حتى رآه العقيد. آنذاك انحنى وقال: مساء الخير، يا سيدي العقيد.

أومأ العقيد برأسه، وعاد إلى كتابه.

بخطواتٍ مرهفةٍ، وحركةٍ خفيفةٍ، وبدون أن ينظر إلى أي شيء في الغرفة. مضى الإفريقي ووقف عند البار. صبَّ له الخادم ويسكي مع الصودا. طوّق الإفريقي الكأس بأصابع طويلة نحيلة. وعندما رفع الكأس دوَّرَ عينيه إلى جهةٍ لينظر إلى بوبي وليندا.

العقيد ظل يقرأ. الصمت في الغرفة كالصمت في الخارج.

طنّتْ سيارةٌ في البُعد، ثم صارت على الشارع المشجّر، ثم خارج الساحة بالضبط، ثم داخل الساحة. انخبطَ بابان. ليندا وبوبي وخادم الحانة نظروا إلى الشرفة. كان القادمان إسرائيليين ضئيلين نحيلين يرتديان الملابس المدنية. سلّما على العقيد لكنهما لم ينظرا إلى بوبي أو ليندا. وعندما جاء الخادم إلى طاولتهما طلبا ما يريدان دون النظر إلى الخادم، ثم تحدثا بنعومة في شبه همس، بلغتهما، مثل من تلقّوا أمراً بألاّ يختلطوا، أو يعلّقوا، أو يروا.

أنهى الإفريقي شربه، وقد وضع الآن يداً في جيبه. وبعناية، وضع قطعة نقد، بإبهامه وسبّابته، على الطرف القصيّ للنُضد. توقّف عند طاولة العقيد، منتظراً أن يُرى ثانيةً، ثم انحنى وقال: "ليلة سعيدة، أيها العقيد، شكراً، سيدي".

انحنى العقيد.

عندما غادر الإفريقيُّ، نظر العقيد إلى بوبي وليندا عبر نظّارته وقال في ما يشبه ابتسامة: "حسناً. بعضُنا في الأقل،يلبس".

ابتسمت ليندا.

تجهَّمَ وجه بوبي، ورضيَ بمرأى العقيد يتخلى عن محاولته الإبتسام. قال العقيد: "ليس عليكما أن تخبراني عن حال غرفتيكما، فلم أكن

ارتقيت تلك السلالم منذ ثلاثة أشهر أو أربعة"، وضع يداً على مؤخرته. "بيتر يهتم بذلك الآن. رئيس الخدم. يجب أن تريا مسكنه. اعتدتُ أن أفتش المساكن مرة في الشهر. تخليتُ عن ذلك منذ سنين. لم أتحمَّل. ما الفائدة، ما الفائدة؟". أمسك الكتاب بكلتا يديه، ومدَّدَ الكعب، وشرع يقرأ من جديد.

من الغرفة المجاورة دخل خادم طويل ذو بدلة خاصة وقال للعقيد: "العشاء، سيدي". الإسرائيليان نهضا رأساً، ودخلا غرفة الطعام. كانت غرفة واسعة ذات عمودين مربعين في الوسط ونوافذ واسعة مشبّكة الأسلاك في الجدار الذي يواجه البحيرة. الجدران ذات الألواح تعرض مزيداً من الصور المائية. اثنتا عشرة مائدة مهيأة. حوالي ست زجاجات صلصة، حاملُ دورقٍ فضيٌّ طويل، وكدْسٌ من الكتب والمجلات، تُعيِّن مائدة العقيد. المائدة التي أوصلَ الخادمُ بوبي إليها مهيأة لثلاثة أشخاص.

الخادم قويٌ، نشيط الحركة، ذو رائحة كريهة شيئاً ما. طرفُ كُمّهِ وياقة سترته الحمراء، مسودّان سواد الزيت. الزيت يلمع على خديه ورقبته. قائمة الطعام التي قدَّمها إلى بوبي مكتوبة بخط يدٍ مائل قديم الطراز: خمسة أطباق.

عادت ليندا.

قال بوبي: "عدتِ سريعاً".

تناولت القائمة وانحنت بشدّة عليها. "رأيتُ أحداً في غرفتك".

ظلت منحنية، وفهمَ بوبي أنها لم تكن لتعلن أنباءً فقط، لكنها توقّعتْ منه أن يذهب ويرى. انزعج للمطلب الأنثوي العابر. لكن المزاج زال بمجرد خروجه من غرفة الطعام.

ضوءُ معتمُ في مَهْوى السلّم. لا ضوء في الممر بالأعلى. عندما أشعل ضوء غرفته أرسلت النافذةُ انعكاساً معتماً. الفراشُ لم يُقلَب. حقيبته المفتوحة مثل ما تركها، القميص البلدي الأصفر معلّقٌ بظَهر الكرسيّ. لم يُعبَثْ بشيء. لم يتغير شيء. الروائح فقط بدت أكثر حدّةً.

سار عبر الممر إلى غرفة ليندا: غرفة أصغر، لكنها أكثر ضوءاً وطراوةً: لقد تكرَّم العقيد على ليندا. على أريكةٍ رأى مَنْهدةَ النهار، القميصَ، والسروالَ الأزرق الملطخ بالوحل، ذا الثنيات الحميمة، ولا يزال المحزم المكرمش المؤخرة المسوّاة يحتفظان بشيء ممّن ارتدت السروال. شيءٌ فضي لامعٌ يشعّ على الطاولة العارية جنب السرير: بعضٌ ممّا يُلَفُّ به. كيسٌ صغيرٌ فتحتْه أصابعُ مرتبكة. لم يكن شامبو. كان معطّرَ مهْبلٍ ذا اسمٍ كريه.

القحبة. فكّر بوبي. القحبة.

عندما كان يقطع غرفة الطعام ثانيةً، ابتسم منكّساً برأسه. لكنه توقّف عن الإبتسام حين جلس إلى المائدة، وتجهَّمَ. رأى أن ما أُعدَّ لثالثٍ قد أُخِذَ. ومرةً أخرى، وبعد وقت قليل، فهمَ طبيعة نظرة ليندا، التي كان أهملها. كان قرَّر أن يظل صامتاً، والآن وجد نفسه يقول بهمس المتآمر شأن همسِ ليندا: "لم أر أحداً".

ليندا أقلُّ من راضية. ارتعش جبينها، وتأوَّهتْ نافدة الصبر. وبدّلتْ جلستَها.

للتو، دخل العقيد، بخطوته المتصلبة المتقطعة. واضعاً إصبعاً بين طيتي كتابه.كان محتقن الوجه، بفعل الجنّ. أجال طَرْفه في الغرفة راضياً، كأنها ملأى تماماً. نظر بلطفٍ إلى ليندا.

"هل قرأتِ هذا؟". رفع الكتاب: كان من تأليف ناؤومي جاكوب: ليندا لم تستطع قراءة العنوان. "إنه ممتازٌ حول ذهنية الهون*". قال للخادم: "لا تُريني قائمة الطعام، أنا كتبتُها. سآخذ الحساء. اعتدتُ الحصول عليها هنا. تلك سفرات المجموعات من فرانكفورت. عليّ التخلص منها".

وفكّر بوبي، تقصد أنهم تخلّصوا منك.

قال العقيد: "هم يلتهمون أرباحك. هم يلتهمون أرباحك بالدقة. كنا نهيء لهم (بوفيه). فكرة رهيبة. لا تقدمْ إلى الهون (بوفيه) أبداً. لن يشبع أحدهم حتى يأكل آخر كِسْرةٍ. يظن أن اللحم الجديد في البوفيه له وحده. اعتادوا أن يهرولوا مزدحمين. رأيت امرأتين تتعاركان. لا. لا. أَخْلِ البوفيه إن رأيتَ الهونَ قادمين.

واجِه القطيعَ في الباب وقُلْ: أيها السادة، إنها قطَعٌ محدَّدةٌ تماماً".

قالت ليندا: "إنهم إكّيلون هائلون".

"مثل البلجيكيين. ها هم أولاء محتشدون. اعتدْنا أن يأتينا الكثير من الجانب الآخر. الأمر الوحيد الذي يمكنه قوله لصالح البلجيكي أنه يعرف قنينة البرجندي الجيدة. لم يبقَ كثيرٌ من أولئك هنا. طبعاً، معظم هذا"، -أشار إلى النوافذ المشبَّكة، إلى الظلام، إلى البحيرة- "معظم هذا من صُنع أيديهم. ظنوا أن عليهم المجيء فقط من بلجيكا الصغيرة ليعيشوا الحياة الطيبة رأساً. لا عمل. لا شيء من ذلك. الحياة الطيبة فقط. هناك امرأة قالت لي قبل الاضطرابات بالضبط: لكنها مزرعتنا، الملك أعطانا إياها. كان عليك أن ترى ما حصلوا عليه هنا. بيوت

---

* Hun : تعبير غير إيجابي عن قدماء الجرمانيين.

باذخة، قصور، برك سباحة. آهٍ، لو رأيتِ. ثمت هاتان القبيلتان عندهم".

قالت ليندا: "الفلمنكيون والوالونيّون".

"يَبدون ضد ما ينبغي أن يكونوا عليه. الوالونيون يجب أن يكونوا السِّمان، لكنهم أميلُ إلى النحافة وأرقُّ. الفلمنكيون يجب أن يكونوا نحافاً، لكنهم سمان. هل رأيتِ جمْعاً فلمنكياً عند المعْلف؟ هم يطلبون العشاء في العاشرة ويأتون في السابعة. في السابعة. يبدأون الشرب. فقط ليُجيعوا أنفسهم. في الثامنة يكونون جياعاً يقضمون كل شيء ويجعلون الخدم يروحون ويغدون بمزيد ومزيد من المشَهِّيات. عليك مراقبة المشهيات إذا جاءك البلجيكيون. ويظلون يشربون ويشربون ويُجيعون أنفسهم أكثر فأكثر. الطعام هنا، والخدم ينتظرون. لكنهم قالوا الساعة العاشرة، وهم لن يدخلوا إلا في العاشرة. حتى العاشرة ظلوا ينشِّطون شهيتهم. يتخاصمون. يتصايحون. يلعبون الورق. الأطفال يتصارخون. وكلهم يصيح بالخدم طلباً للمشهيات. وسيحدث في هذه الحانة جحيمٌ من حفلةٍ صغيرةٍ عائلية فلمنكيّة. وفي العاشرة يدخلون ويأكلون بشراهة لمدة ساعة ونصف، مقعقعين وناخرين وشاخرين معاً. الأم. الأب. الطفل. كلهم كرةٌ صغيرةٌ من الشحم. ذلك كان الأنموذج الذي قدّموه. لا تستطيع أن تلوم الأفارقة. فللأفارقة عيون. وبمقدورهم أن يروا. الإفريقي ظريف من هذه الناحية. فأنت قادرٌ على تشغيله بصورة شاقّة أسابيع وأسابيع، لكنه في أحد الأيام يقطع معك الأمر".

حدث ارتطامٌ في المطبخ، وانفجاركلامٍ عالي النبرة.وارتفع أحد الأصوات إلى صرخة بدت مثل ضحكة، ثم تعالت الأصوات مجتمعةً من المطبخ.

زاغ ذهن العقيد. ولم يعد ينظر إلى ليندا مباشرةً. الإسرائيليان يتكلمان بخفوت. الخادم الطويل جاء ليحمل صحون بوبي وليندا، وليخلِّف وراءه نفحةً من النتن.

سأل العقيدُ: "أرأيت ذلك الشخص بملابس السهرة؟".

أحنى بوبي رأسه. وليندا أوشكت أن تبتسم، لكنها رأت العقيد لا يبتسم. "لقد دأبَ على المجيء إلى هنا لشهرٍ أو نحوه. ومُذاك ظلَّ في تلك الملابس. لست أعلم مَن هو".

قالت ليندا: "كان بالغ التهذيب".

"أوه، نعم. كلهم بالغ التهذيب. لكنه يأتي ليُجهز عليَّ في مكاني. أليس هكذا، يا تيموثي؟".

عدَّل الخادم الطويل من وقفته ورفع رأسه: "سيدي!".

"يريد أن يقتلني. أليس كذلك؟".

ظلَّ تيموثي ساكناً، والصينية في يده، وحاول أن يبدو جاداً. لم يقل شيئاً. استراح فقط حين عاد العقيد إلى طعامه.

قال العقيد: "سيُجهزون عليك في أحد الأيام".

ذهب تيموثي إلى المطبخ بخطواتٍ عجلى طويلة. صوتٌ جديدٌ أضيفَ إلى الزعقات هناك، ثم تلاشى الصوت فجأةً، بينما الزعيق مستمرّ. خرج تيموثي من جديد، نشيطاً، جاداً، كعهده،وذهب إلى مائدة الإسرائيليين. قال العقيد: "أتذكّرُ كيف كنا ندرب الرجال إلى سالونيك والهند وأماكن مثل تلك. أحياناً كنا نشدُّهم إلى الخيل.آه.وا. وا! تسمعينهم يصرخون في الجهة الأخرى من الأرض. بعضهم تكون لديه ندوب بعمق بوصةٍ. لكنا جعلنا منهم فرساناً. نرسلهم إلى سالونيك

والهند أو إلى أي مكان". نظر مباشرة إلى ليندا من جديد: "قد تبدو هذه الأسماء غريبة على مسمعك. وأحسب اسم هذا المكان سيكون غريباً أيضاً بعد أمدٍ لن يطول".

سكنت الزعقات في المطبخ.

شرد ذهن العقيد ثانيةً، وشُغل بطعامه.

إفريقيّ طويل نحيل، شديد السمرة، ليس أسود، دخل غرفة الطعام، آتياً من المطبخ. كان يتحرك خفيفاً مثل رياضيّ. حنا رأسه وابتسم للإسرائيليين ولبوبي وليندا، ومضى إلى مائدة العقيد. حيوية وجهه وتفتُّحه جعلاه يبدو أقلَّ إفريقيةً، بل أقرب إلى شخص من جزر الهند الغربية، أو إلى أميركيّ خلاسيّ. كان يرتدي ثياباً بسيطة معتنىً بها. سرواله الخاكي نظيفٌ مكويّ، وياقة قميصه الرمادي نظيفة منشّاة، صُدرَتُه القشديّة تعلن الرياضيَّ، لاعب التنس، أو الكريكت. شعره مفروق. وحذاؤه البنيّ يلمع.

وقف أمام العقيد وانتظرَ كي يُرى.

ثم قال: "جئت لأقول مساء الخير، سيدي". كانت لهجته تشي بلهجة العقيد.

"نعم، يا بيتر. انصرفْ. سمعنا الارتطام وسمعنا زعيقك. إلى أين أنت ذاهبٌ هذه المرة؟".

"إلى السينما، سيدي". كان الأمر مفاجأةً.

سأل العقيدُ ليندا: "هل رأيت بيت حشراتنا المحلي؟ أظنه سوف يُغلق حين يذهب الجيش. إن ذهبَ الجيش".

الإسرائيليان لم يسمعا.

"وماذا ستشاهد، يا بيتر؟".

حيّر السؤال بيتر. ظل ينظر إلى العقيد. ثبت وجهه على نصف ابتسامة، ثم صار إفريقيّاً بلا ملامح.

قال: "لا أستطيع أن أتذكر، سيدي".

قال العقيد: "هاك الإفريقيّ". الكلمات قيلت لليندا، لكنها لم تُوجَّه إليها.

انتظر بيتر. لكن العقيد كان مشغولاً بطعامه. تماسَكَ بيتر ثانيةً، وعاد إلى وجهه نصفُ الابتسامة.

أخيراً، قال: "هل أذهبُ، سيدي؟".

أومأ العقيد برأسه، دون أن يرفع بصره.

ابتعد بيتر بخطوة الرياضي الخفيفة. عقباه الجلديتان تدقّان على أرضية الحانة، والشرفة. وما إن لامستا الدّرجات الكونكريتية حتى دقّ العقيد زجاجة الصلصة على المائدة وصاح: "بيتر!".

قفز بوبي. وأمسك تيموثي بوجهه منصباً كأنه صُفع. حتى الاسرائيليان نظرا. خيّم الصمت على غرفة الطعام، والحانة، والمطبخ.

ثم عاد بيتر، خفيفاً بقدر ما سمحت عقباه الجلديتان، إلى غرفة الطعام، ووقف أمام مائدة العقيد.

قال العقيد: "أعطني مفاتيح الفولكس واجن، يا بيتر".

"المفاتيح في المكتب، سيدي".

"حُمْقٌ ما تقوله، يا بيتر. لو كانت المفاتيح في المكتب لما سألتُك عنها الآن. أتراني كنت سأسأل؟".

"لا، يا سيدي".

"إذاً، حمقٌ ما تقول".

"حمقٌ، يا سيدي".

"أنت إذاً، أحمقُ جداً".

صمتَ بيتر.

"بيتر؟".

"حمقٌ، يا سيدي".

"لا تقل ذلك، متكبراً، يا بيتر. إن كنتَ أحمقَ فأنت أحمق. أنت أحمق وتفعل الحماقات. ليس من طبيب ساحرٍ يقدر على شفائك".

لم يعد بيتر ينظر في أرجاء الغرفة. كانت عيناه مثبتتين على العقيد. كتفاه النحيلتان متهدلتان، وبدا منحنياً.

قال العقيد كأنه يتكلم مع ليندا ثانيةً، لكنه لم يكن ينظر إليها: "آه، هو يبدو لطيفاً، جدَّ مهذّب". رفع راحته المفتوحة وخفضَها: "مُرَّ بباب مسكنه، وكلُّ ما عليكِ أن تفعليه هو أن تتّقي المرض".

عينا بيتر بدأتا تحدِّقان، من وجهه النحيل، وتلتمعان. وارتخى فمه.

"أعطني المفاتيح، يا بيتر".

"المفاتيح في الفولكس واجن، سيدي".

أزاح بوبي صحنه. ليندا رفستْه تحت المائدة. استقرَّ في جلسته. لحظ العقيدُ الأمرَ. أبعدَ نظرَه عن بيتر، وهبطَ به إلى الأرضية قرب قدمي بوبي، وبدا كأنه يشرد.

أشار بسبّابته: "كم عُرض أرض الفندق، يا بيتر؟".

"مائة وخمسون قدماً ، سيدي".

"والعمق؟".

"مائتان، سيدي".

"وفي تلك الثلاثين ألف قدم مربع، أنا السيِّد. لا أهتمّ بما يجري خارجاً. أنا السيد هنا. إن لم يعجبْك ما أفعلُ فبإمكانك أن تخرج. اخرج حالاً".

ضغط بوبي إصبعاً على مفرش المائدة والتقط كِسْرَةً.

"ما رأيك فيّ، يا بيتر؟".

"أنا أودُّك، سيدي؟".

"هو يوِدُّني. بيتر يودُّني".

"أنتَ أدخلتَني يوم كنتُ صغيراً. أعطيتني عملاً، وأعطيتني سكناً. واعتنيتَ بأطفالي".

"له أربعة عشر طفلاً. وهو يعيش الآن مع ثلاثٍ من تلك الأنعام. مهذّبٌ جداً. لطيفٌ جداً. ذلق اللسان. لن تصدِّقي أنه غير قادرٍ على الإمساك بقلمٍ في هاتين اليدين. لن تصدِّقي المزبلة التي جاء منها. لكنك تحب القذارة، يا بيتر؟ تحبّ الذهاب إلى جُحْرٍ أسود لتأكل الوسخ وترقص عارياً. ولسوف تسرق وتكذب لتفعل ذلك، ألا تفعل؟".

"أحبُّ السكن، سيدي".

"ستظل هناك ما دمتُ حيّاً. لن تنتقل إلى هنا، يا بيتر. لا أريدك أن تعوِّل على ذلك. إن متُّ جُعْتَ، يا بيتر. ستعود إلى الغابة".

"هذا حقٌّ، ياسيدي".

"وأنت تودّني. أنا محسنٌ إليك. لكني ما كنت محسناً إليك. في هذه الغرفة كان أناسٌ يتحدثون عن تصفيتك. ألا تتذكر؟".

"لا أتذكر".

"أنت كذاب".

"أنا أودك، سيدي".

"وماذا عن الولد الذي أُغلقت عليه الثلاجة؟".

"كان ذلك في مكان آخر".

"إذاً، أنت تتذكر ذلك".

"أنا لا أتحدث أبداً عن هذه الأشياء، يا سيدي".

"الجَلْد بالسياط. كان الكثير من ذلك. وماذا عن المحاصيل التي مُنعتْ زراعتُها عليك؟ أتتذكر ذلك؟ تقول إنك تودُّني؟

"أنا أكرهك، سيدي".

"طبعاً، أنت تكرهني، وأنا أعرف أنك تكرهني. الأسبوع الماضي أنت قتلتَ ذلك الإفريقي الجنوبيّ. وهو شيخٌ، أعزل. ألم تفعل؟ عاش هنا عشرين عاماً، وتزوجَ واحدة من نسائكم".

"لصٌّ قتلته، يا سيدي".

"هذا ما يقولونه دائماً، يا بيتر. لكننا نعرف من قتله. كان شخصاً كرهَه".

"لا، يا سيدي".

"أتذكر يوم مرضتْ امرأتُك، يا بيتر؟".

"أنت تعلم ذلك، يا سيدي".

"أخبرْني ثانيةً".

اتّقدت عينا بيتر المحدِّقتان، وترقرقت فيهما دموع الأذى. هبط نصفُ فمه الأسفل، وتوتَّر أعلى وجهه.

قال العقيد: "هي حكايةٌ ترويها أنت دائماً،والناس يستمعون دائماً".

تيموثي كان مستنداً إلى أحد العمودين المربعين، في وسط الغرفة، رأسُه إلى الوراء، مائلٌ قليلاً، وهو يتابع النظر.

قال بيتر: "زوجتي كانت مريضة". توقَّف مختنقاً من التأثر.

"لديك ثلاثُ أُخرَيات. استمرّ".

"في إحدى الليالي، اشتدَّ عليها المرض، فأخذتُها بسيارةٍ إلى المستشفى.

قالوا: لا. المستشفى للأوروبيين فقط. الأكواخ لأهل البلد. قبِلها طبيبٌ هندي. لكنْ بعد فوات الأوان. ماتت".

"وأنت ذهبتَ اليوم التالي، وجئتَ بنسوةٍ أُخريا ت، وأرسلتَهن إلى الغابة، يحتطبْنَ. وحملن الحطب على ظهورهنَّ وعدن إليك مساءً. حكاية جيدة، للزوار بخاصة".

"أنا لا أتحدث عن هذه الأمور، سيدي".

"من تكره أكثر؟ الهنديّ أم أنا؟".

"أكره الهنديّ".

"أنا جاحدٌ. من تكره أكثر؟ الهندي أم أنا؟".

"سأظل أكرهك دائماً، يا سيدي".

"لا تنسَ ذلك. كُرهُكَ يُبقيني حيّاً. في إحدى الليالي، يا بيتر، ستدقُّ على بابي ــ".

"لا يا سيدي".

"سترتدي معطفاً أو سترةً، وسيكون كوعاك عند جنبيك ـ".

"لا. سيدي.لا. سيدي".كان بيتر يغمض عينيه ويفتحهما.

"لن أتصرف مثل الإفريقي الجنوبي، يا بيتر. وعندما تقول (مساء الخير، يا سيدي) لن أقول (ماذا، إنه بيتر، ولدي، تعال يا بيتر. اشربْ شاياً. كيف حالك؟ كيف حال العائلة؟). لن تكون هناك أكواب شاي. لن أتصرف هكذا. سأكون منتظراً. سأقول:(إنه بيتر. بيتر يكرهني)، ولن تدخل من تلك الباب. سأقتلك. سأُرديك بالرصاص قتيلاً".

فتح بيتر عينيه،ونظر إلى قمة رأس العقيد.

قال العقيد: "هكذا سأحلفُ يميني. تحت هذه الأنوار، على المكشوف، أمام شهود. أخبِرْ أصدقاءك".

ظلَّ بيتر، فترةً، ينظر إلى قمة رأس العقيد. وإذْ أغلقَ فمه، صار مزموماً ثانيةً. لا دموع في عينيه المتّقدتين. أدخل يده في جيب سرواله الخاكي وأخرج حلقة مفاتيح فيها مفتاحان. كان يريد وضعها على المائدة، لكن العقيد مدّ يده فوضع بيتر المفاتيح في راحة العقيد. لم يَبْقَ ما يؤخِّره هنا. وبخطوةٍ خفيفة وثّابةٍ رياضيّةٍ، شأنه من قبل، سار عبر غرفة الطعام إلى المطبخ.

العقيد لم ينظر إلى أيّ أحدٍ في الغرفة. تناول كأس ماء، لكنّ يديه ارتعشتا فوضع الكأس. وشحب وجهه.

تيموثي ترك العمود وتشاغَلَ.

عندما تمالكَ العقيد نفسَه، وعاد اللون إلى وجهه، نظر إلى ليندا وقال: "هي ليلتُهم الكبيرة، كانوا يستعدّون لها طيلة الأسبوع. وكان السيد بيتر يعتزم الذهاب إلى هناك بالفولكس واجن. كثيرٌ من الناس يعتقدون أنه سيطرَ بالفعل. أوه، إنه السيد بيتر سياسيٌّ تماماً هناك.

حسناً، هذه مشكلته. أليس كذلك يا تيموثي؟". لم يعد يرتجف. ابتسمَ لتيموثي.

قابله تيموثي مرتاحاً بابتسامة.

الكلام يعلو في المطبخ ثانيــة. وشرع صوتٌ عــالي النبـرة يزعق، وتعالى ضحكٌ قال العقيد لليندا: "هل تسمعينه؟".

أخذتْ شوكةً إلى فمها، وأومأت برأسها.

"إنه بيتر، مع أنك لن تصدِّقي. أتعرفين ماذا يقولون؟ يبدو أنهم في جدلٍ حادٍّ، لكنهم لا يقولون أي شيء. إنهم مثل الطيور حين تزقزق. عليكِ أن تسمعي تيموثي هنا آن يبدأ".

تيموثي الذي كان يأخذ صحون الإسرائيليين، ابتسم للثناء، لكنه ظلَّ ثابتاً. غضّنَ جبهته، وشدَّ زاويتي فمه المغلق.

تعالى الضحك في المطبخ.

قال العقيد: "إنه بيتر. بمقدورهم الاستمرار في هذا، ساعاتٍ بدون معنى. مارأيكِ في العشاء؟".

قالت ليندا: "جيدٌ جداً".

"لا دخل لي. الطبّاخ يعمل كل شيء. هو يقول لي وأنا أكتب القائمة"، ابتسم العقيد: "جاء رأساً من الغابة. لم يجلس على كرسيٍّ حتى جاء إلى هنا.

لا أعلمُ ماذا سيكون مصيره لو رحلتُ. لكن ما الفائدة؟".

"«أتفكر بالرحيل؟"

"لا أفكرُ إلا بهذا. لكن فات الأوان. لا أستطيع أن أنتظر مجيء الأميركيين وشراءهم لنا جميعاً. سيحصل هذا. لكنه جِدُّ متأخرٍ عليّ".

الإسرائيليان، طلبا قائمة حسابهما، بالإشارة فقط. أخذ تيموثي نقودهم وأعاد الباقي. تظاهرَ العقيد بعدم النظر. حين مرَّ الإسرائيليان بمائدة العقيد، تردَّدا، وانحنيا لبرهة قصيرة. العقيد لم يقل شيئاً. رفعَ عينيه مستجيباً ثم حدَّق إلى الفراغ، كأن مرورهما قطع سلسلة أفكاره. ظلَّ يحدِّق حتى وصل الإسرائيليان إلى ساحة الحصباء وأخذا يتكلمان أعلى من السابق.

قال العقيد: "هؤلاء الناس لا يعرفون كم هم محظوظون".

رنَّ باب سيارة، مرةً، مرتين. شُغِّلَ محرِّكٌ.

"لو جاء الإوروبيون هنا قبل خمسين عاماً من مجيئهم، لاصطيدوا كالطرائد وأُبيدوا. وعشرين، ثلاثين عاماً، من بعدُ-حسناً، لكان العرب هنا أولاً، ولأوثقوهم بالحبال وساقوهم إلى الساحل وباعوهم. إنها إفريقيا. سيقتلون الملك. سيفتكون بقبيلته قبل أن ينتهي الأمر. هل عرفته؟ هل كنتِ تستمعين إلى الأخبار؟".

قالت ليندا: "رأيتُه فقط".

"جاء هنا مرةً يتغدّى. مهذّبٌ جداً. لو كنتُ أصغر سنّاً لذهبت أحاولُ إنقاذه. مع أن ذلك سيكون عبثاً. هو لا يختلف عن الآخرين. لو أُعطي نصفَ فرصةً لذهبَ يصطاد الطبيبَ الساحر. يقال إن ثمت الصالح والطالح في كل مكان. هنا لا صالح ولا طالح. أفارقةٌ فقط. هم يفعلون ما عليهم أن يفعلوا. ينبغي أن تقولي هذا لنفسك. أنت لا تستطيعين أن تكرهيهم. بل لا تستطيعين أن تغضبي منهم. أن تغضبي حقّاً".

كاد العشاء ينتهي. وتيموثي ينظف الموائد التي هُيِّئتْ لكنها لم تُستعملْ. قال العقيد وهو يرتِّب المجلات والكتب على مائدته: "فات

الأوان. فات الأوان على ذلك الإفريقي الجنوبي. اعتادَ المجيء إلى هنا، حتى أصابته تلك الجلطة الأخيرة. كانت تلك غلطته الكبرى.إنه من البُوَير القدامى حقاً.

وجدوا برّاد الشاي نصف ممتلئ، والكوبين على الأرض، والشاي والدم في كل مكان.جاء مصطحباً زوجته مرةً أو مرتين. أقبح امرأة رأيتُها في حياتي. مثل قردٍ عجوزٍ مغضّنٍ وفي منتهى السعادة". توقّف عن الكلام. "في السنوات القليلة الأخيرة رأيتُ أشياء هنا تستدرّ الدموع".

رفع بوبي ببصره، بسبب الزيَف المفاجئ، نبرة امرئٍ يقول ما يظنُّه متوقَّعاً منه. لحظَ العقيدَ ينظر إليه. أمّا بوبي الذي كان يحتسي القهوة فقد نفخ على البخار. حوّلَ العقيد نظره عنه.

توقَّفَ الزعيقُ والزقزقة في المطبخ.

كأنها إشارةٌ للعقيد. نهض العقيد: "ليس كما تقرأين في الصحف. وليس مما يريد الناس في مقر المقيم العام سماعه أيضاً. كل شيء بالنسبة لهم لطيفٌ خفيفٌ الآن. يجب ألا يُغضبوا الطبيب الساحر". استعدلَ في وقفته، ورتَّبَ المجلات ثانيةً، وأعاد ترتيب قناني صلصته، تناول كتابه ووضعه لصقَ صدره. "ليس من أصوات انتخابية كثيرة في هذا الحي الآن".

قال ذلك متخلصاً. وإذ سار مبتعداً بالَغَ في استقامة هيأته، لكنه لم يستطع إخفاء مؤخرته المجروحة. في الحانة، ثم على الشرفة باتجاه غرفته، كانت خُطاه بطيئةً، خطوة خفيفة، خطوة مبسوطة ثقيلة.

تيموثي الذي يتحرك بخفّة جديدة، أقرب إلى اللّعب كان يجمع أغطية الموائد. كان يؤدي حركات عريضة سريعة، ويخطو خطوات واسعة

تنتهي كل واحدةٍ منها بسَحْبةٍ، كأنه يستعرض طوله ومداه. وفاحت رائحته الكريهة في الغرفة. كانت الساعة أقل من الثامنة ونصف بقليل.

قالت ليندا: "أشعر أن عليّ أن أمتدح البلجيكيين. لا أكل قبل العاشرة".

قال بوبي: "الفلمنكيون، السِّمان".

أطفأ تيموثي مصباحين من المصابيح الثلاثة.

قال بوبي: "أنتِ خبير التسلية المحلية".

قالت ليندا: "انتظري في الحانة، فقد نذهب في جولة".

لم يهتم بوبي بطريقتها الواثقة المقيِّدة. كأن الخيبة والعتمة أبرزَتا فيها، الزوجةَ، فوضعته في موضع مارتن. لكنه من ناحية أخرى لم يودّ البقاء وحيداً. دخل في الحانة. أطفأ تيموثي المصباح الأخير في غرفة الطعام، وأمكنَ سماعُ زعيقه مع شخص ما في المطبخ. كان الساقي خلف النُّضد. وهو لا يزال مطأطئاً يتملّى النُّضدَ، وقد تبيَّن الآن أنه كان يقرأ كتاباً. في هذا الحين نزلت ليندا وعلى كتفيها سترةٌ محبوكة. ارتجفت ارتجافةً مضحكة، كأنها ترتجف لأكثر من البرد.

في الشارع المشجر لم يسمعا أصوات المطبخ أو المسكن. سمعا فقط وقْعَ أحذيتهما على الرمل والحصا النثير للطريق المهشَّم، والتلاطُمَ المتقطع للبحيرة غير المرئية على جدار البحيرة. إضاءةُ المسكن في الخلف تقدمُ عمقاً لمبنى الفندق، الضوء الآتي من الحانة ينتشر على جانب من الساحة، ويتبدى واهناً من خلل النوافذ المفتوحة لغرفة الطعام غير المضاءة على الجانب الآخر، معيِّناً حدود الحائط الكونكريتي للفندق. ووراء ذلك، ظلام الشجرة الضخمة والبيت الفارغ.

قالت ليندا: "لا أريد أن أكون نفسي هنا".

أمامهما مصباح شارع يضيء، دائرةً فلورسنتيةً متشظيةً، داخنةً بعد مطر النهار. السعف المبتّل يشعّ.وفي الحديقة العامة التماعاتٌ.

همست ليندا: "عجيب. كيف بمقدورك أن تنسى البيوت، وتشعر بأن البحيرة لم تكتَشف حتى الآن".

قال بوبي غير هامسٍ: "لا أدري ماذا تعنين بالإكتشاف. الناس هنا يعرفون البحيرة منذ الأزل".

"سمعتُ هذا. لكني أودّ فقط لو استطاعوا أن يجعلوا البقيّة منا تعرف".

بلغا المنزل ذا سقف الصفيح المتدلي مثل جناح طائر مبسوط. في الشرفة كان جماعةٌ متحلقين حول نارٍ صغيرة.

قالت ليندا: "لم يكونوا انتقلوا إلى الشارع المشجَّر، آخر مرة كنتُ فيها هنا".

وبينما هي تتحدث، تعثرتْ. انزلقتْ حصاةٌ بعيداً. وقف إفريقيٌّ في الشرفة، وقد بدت رِجلاه النحيلتان العاريتان وسترتُه المهترئة إزاء النار.

صوَّبَ بوبي وليندا نظرهما إلى أمام.

وعندما تجاوزا البيت قالت ليندا: "إنه على حقٍّ. سوف يقتلونه".

تجاوزا محطة البنزين، والمخزن السياحي، والسينما التي لا تزال فارغةً مغلقةً. بلغا نهاية الشارع المشجّر واستمراً في الدرب كثيف الشجر الذي خرج منه الجنود المهرولون في أول ذلك المساء. الدرب غير معبَّد، فوقعتْ أقدامهما على رملٍ رطبٍ، وحصا، وورق. اشتدّت الظلمةُ سريعاً، وكادت تمّحي أمام الناظرِ الجدرانُ الباهتة لداراتٍ مشيَّدةٍ بعيداً

في عمق حدائق موحشة مهملة، وكانت الشرفات بعضاً من الظلام المطْبق. لا نيران هنا. الأشجار خفيضةٌ على الدرب، ومضى معنى الفضاء الطليق.

نبح كلب، في صوت خافت، عميق، ثم صار قربهما، كبيراً مزمجراً. مضيا، والكلب يرعاهما، غاضباً، إلى خارج منطقته. نبحت الكلاب على جانبي الطريق الممتد أمامهما. وسرعان ما أمسيا يمشيان بين كلابٍ لا تعرف حدوداً. مصباح كهربائي خافت، لا نار موقد يشتعل داخل غرفة دارةٍ. ومن تلك الدارة خرجت كلاب بلا نباح، مخالبها تخمش النبت ثم السياج الخشبي، مقعقعةً بخفوت على رمل الطريق، ناثرةً الحصا. ودائماً، من الطريق الأسود أمامهما، جاء صوت مزيد من الكلاب. لم تُنادِ أصواتٌ هذه الكلابَ.

قالت ليندا: "سخافة".

التفتا إلى وراء. لكن الكلاب التي أبقتهما وسط الطريق، صارت الآن أمامهما ووراءهما. المخالب تخمش الرمل مصْدرةً صوتاً شبه معدني، والزمجرة عميقة، مباغتة ليست عالية بتاتاً. النباحُ مستمرٌ في البُعد. قطيع الكلاب ازداد عدداً.

قالت ليندا: "آه يا إلهي، هذه الكلاب بلا أصحاب. صارت متوحشة".

قال بوبي: "لا تتكلمي، وبالله عليكِ لا تتعثّري".

حديثهما هيَّج الكلاب أكثر. الكلاب احتلّت الطريق، الآن، بالكامل، وصارت حركاتُها أشدَّ وأعنف. كانت تنتظر إشارةً: الوثبةَ الأولى من أشجع كلبٍ في القطيع، إيماءةً مفاجِئة من بوبي أو ليندا،

حصاةً زايلتْ مكانها. لكن الشارع المشجر والضوء كانا يقتربان باستمرار.

قالت ليندا: "ذكرتَ أن كلب أمك ترك هذين الخطين المتوازيين على ربْلة ساقك. تملَّكَ الغضبُ بوبي: "سأقتل هذه. إنني أحتذي الحذاء ذا المقدمة الفولاذ. سأقتل أول كلب يهاجمني. سأهشِّم جمجمته. سأقتله".

لازمه الغضب وكان مثل الشجاعة.وكأنّ الكلاب استجابت لغضبه. بدأت تلازم حدَّ الطريق، وتتراجع. لكن الشارع المشجر قريب، والظلمة تشفُّ في نور الفلورسنت، والشارع المشجر هو الحد الذي تتقيد به الكلاب.

كان بوبي يرتجف. وبطيئاً، على الشارع المشجَّر، عاد إليه الإحساس بالزمن. كانت ليندا تقول: "يقال إن عليك أن تأخذ اربع عشرة حقنة للكُزاز".

"جاؤوا بهذه الكلاب لمهاجمة الأفارقة".

"حسناً يا بوبي، والآن تهاجم هذه الكلابُ، الجميعَ".

"درّبوها لمهاجمة الأفارقة".

"لم يدربوها جيداً".

"الأمر ليس مضحكاً".

"كيف تحسبني أشعرُ؟".

سارا عائدين إلى الفندق، صامتين. لم ينظرا إلى نيران الموقد التي مرّا بها. في الفندق كانت الحانة لاتزال مضاءة، ولا ضوء في غرفة العقيد التي تلاصق المكتب. ظهرتْ ليندا في الشرفة تنتظر من بوبي أن يقول شيئاً.

لم يقل شيئاً. تجهَّم وابتعد عنها، ومضى إلى الحانة وحده. سارت من الشرفة إلى الممشى، وسمعها تصعد الدرج إلى غرفتها. الساعة تعدّت التاسعة حسب. المغامرة استغرقت أقل من نصف ساعة.

جلس بوبي على مقعدٍ عالٍ وشرب دوبونيه. زال عنه الخوف، وتناءت لحظة الفزع في الطريق المظلم. تحول الغضب إلى إعياء، وكآبة، مع عزلته، في تلك الحانة، عند تلك البحيرة الإفريقية الشاسعة. كان يحدِّق إلى الرأس المغبر للساقي الإفريقية ذي السترة الحمراء القصيرة، وفكَّرَ: خادمٌ مسكين، إفريقيٌّ مسكين، رأسٌ إفريقيٌّ مسكين، واغرورقت عينا بوبي بالدموع.

قال الساقي وهو يتناول كتاباً مهترئاً آخر من أسفل البار: "أنا أقرأ الهندسة". وفهم بوبي أن الساقي يحاول أن يبدأ حديثاً. هذا ما يفعله بعض الشبّان الأفارقة، إنهم يحاولون أن يبدأوا أحاديث مع أناسٍ يظنونهم زوّاراً لُطفاء، وهم يأملون ليس فقط في ممارسة تَحدُّثهم بالإنجليزية، وإنما في اكتساب المسلك والمعرفة أيضاً. وقد تأثَّر بوبي لأنه اصطُفيَ بهذه الطريقة، وكان سبب تأثّره أن الساقي اختاره بعد كل ما حصل ووثقَ به، كما تألَّمَ لأنه سمح لنفسه بقبول تأثير العقيد، فلم ينظر إلى الساقي، بل نظر إلى إفريقيٍّ ببدلةٍ حسبُ، إلى مستخدَمٍ من مستخدَمي العقيد، إلى جزءٍ من الفندق الكريه.

قال بوبي: "أنت تقرأ الهندسة. أرِني أين كنتَ تقرأ".

ابتسم الساقي، وتراقَصَ على أطراف أصابعه. ضغط بكوعَيه على النُّضد، وفي الوقت نفسه قَلَّب الصفحات الأولى من الكتاب، جامعاً كل صفحة بكامل راحة يده.

الصفحات التي قلّبها كانت سوداء مغضّنة، بالية الأطراف.

قال الساقي: "أقرأ هنا"، ووضع راحته، وهو لا يزال يتقافز، على صفحتين، وقدّم الكتاب إلى بوبي.

بوبي وضعَ الكتاب وسط النُّضْد: "أنت تقرأ هنا؟ مجموع الزوايا الثلاث في المثلث تساوي مائة وثمانين درجة؟".

"أنا أقرأ هنا"، مال الساقي جانباً على النُّضد. "أنتَ عَلِّمني".

"أنا أعلّمك. أنتَ أعطِني ورقاً".

أخرج الساقي دفتر مذكرات.

"انظرْ، أنا أعلمك. أنا أرسمُ خطاً مستقيماً. هذا الخط المستقيم يساوي مائة وثمانين درجة. مائة وثمانين. انظر الآن. أنا ارسم مثلثاً على خط مستقيم. هكذا. تلك الزاوية هنا، وتلك الزاوية الأخرى هنا، وتلك الزاوية في الأعلى، تساوي كلها مائة وثمانين درجةً. هل أنت فاهمٌ؟".

"ميّه".

"أنت لا تفهم. انظر. أنا أعلمك ثانيةً. أنا أرسم دائرةً هنا. الدائرة تساوي ثلثمائة وستين درجة".

"ميّه".

"لا ليس ميّة. ثلثمائة وستين. ثلثمائة وستين. أنا أُريك ميّه. أنا أرسم خطاً عبر الدائرة. ميّه هناك. ميّة هنا".

"أنا أقرأ الفرنسية".

"أنت تقرأ كثيراً. ماذا تحب أن تقرأ أكثر؟".

قال الساقي: "أذهب إلى المدرسة العام المقبل"، إنه يتباهى الآن،

ناظراً أسفل أنفه، ماطّاً شفته السفلى، وساحباً بأنامل يديه كلتيهما كتابَ الهندسة. "أشتري كتباً مدرسية أكثر. أحصل على شغل أكبر".

للكلمات أصداء. فهمَ بوبي أنْ لا بدَّ من أحدٍ مرَّ بهذا الطريق من قبل. المغامرة لم تخطر ببال بوبي، المغامرة هي ماتخلّى عن الأمل فيه اليوم. أما الآن، مع حزنه على الفتى الذي ربما كان له معلّمٌ سابقٌ، فقد رأى المغامرة آتيةً، وآتيةً كما في الغاب حين لا يتوقعها أحدٌ، حتى لقد بدتْ مثل مكافأة. أن يعلّم فتىً لم يتفَحّصه من قبلُ. نظر الآن إلى رأس الفتى، الغبارُ ملتصقٌ بالزيت، نظر إلى الرقبة النحيفة القوية. أمّا الفتى وقد عرف أنه موضع تثمين، فقد غضَّ من بصره متأملاً الكتاب الفرنسي، محرِّكاً شفتيه الغليظتين.

"ما اسمك؟" سأل بوبي، وهو ينظر إلى أذنَي الفتى.

"كارولوس". الفتى لم يرفع بصره.

"اسمك لطيف".

"أنت تعلمني الفرنسية".

كتاب النحو الفرنسي، ذو الغلاف القماشي الأحمر المهترىء الملطّخ اللزج الباهت المغضّن، ألّفه قسيس إيرلنديّ، وطُبع في إيرلندة.

"إلى أين وصلتَ؟ وصلتَ إلى هنا؟ أداة التبعيض؟".

"التبعيض".

"في اللغة الانجليزية لا توجد أدوات تبعيض. أنت لا تقول (أحضرِْ لي بعض الحبر)". توقّفَ بوبي: تعليم اللغة ذو مصاعب غير متوقَّعة. "في اللغة الفرنسية، أنت دائماً تقول: (أحضرِْ لي بعض الحبر)".

"(بعض الحبر)".

"تماماً".

نظر بوبي إلى الفتى، والفتى حدَّرَ بصره إلى الكتاب، وحرَّكَ ببطءٍ لساناً ثخيناً بين شفتيه.

قال بوبي: "متى تغلق الحانة؟".

قال الفتى: "أنت علمِّني الإنجليزية. أنت لا تعلِّمني الفرنسية. أنت لا تعرف الفرنسية؟".

"أنا أعرف الفرنسية. انظرْ، أنا أعلِّمك. في الإنجليزية تقول: INK".

"INK".

"في الفرنسية تقول: L'ENCRE".

"INK".

"متى تغلق الحانة؟".

"أي وقت. INK. علِّمني أكثر".

"أحضرْ لي بعض الحبر. SOME INK. أحضر لي DE L'EN-CRE. DE L'ENCRE. كيف، في أي وقت؟".

استولى الحياء على الفتى. نكّس رأسه على الكتاب الإيرلندي المهترىء، فرأى بوبي لِمّته: فُتات زغبٍ متعلّقة بين الشَّعر الجعدِ.

قال الفتى: "الحانة تغلق الساعة العاشرة".

"أحضرْ لي شاياً الساعة العاشرة".

خفض الفتى رأسه. "المطبخ مغلق".

"أنت أحضر لي شاياً. الغرفة٤. أنا أعلِّمك أكثر".

بسطَ بوبي أصابعه وفرك مفاصلها في شعر الفتى الجعد. "أعطيك شلناً".

وضع بوبي راحته على رقبة الفتى القوية، نصفُ راحته على الشعر الجعد، والنصف الآخر على البشرة الدافئة. قـال: "أي مُساوِمٍ صغير أنتَ"، وفجأةً جذبَ وجه الفتى عبر النُّضد إليه، وهمس في أذنه: "أعطيك خمسة".

لم يردّ الفتى رأسه، أمّا بوبي الذي لا يزال يمسك برأس الفتى قريباً، ويشعر بالجهد الذي يبذله كي يظل ساكناً، فقد بدأ يمسِّد بإبهامه على أذن الفتى اليسرى، متحسساً العظم تحت البشرة الإفريقية الناعمة. صار الفتى أكثر هدوءاً. جالت الدموع في عيني بوبي، ومع أنه كان ينظر إلى إبهامه وإلى الهيأة المعقدة لأذن الفتى وشعره الخشن المفلفل، إلا أنه لم يكن يفكر بالفتى أو الكلاب أو الأفعال الحميمة التي ستأتي، كان فقط يستسلم إلى رقّته وكآبته الخاصتين، اللتين تفيضان عادةً في مثل هذه اللحظات أكثر من اللازم.

فجأةً قفز الفتى مبتعداً.

كان إنذار السرقة في سيارة بوبي يزعق. التموجاتُ المعدنية الحادة تعلو وتنخفض حول الولولة المركزية المستمرة. وثبت ساحة الفندق بالنور، مصباحاً ساطعاً بعد آخر، في كل مكان. مساكن الخدم انفجرت في زقزقة عالية النبرة، تحوَّلتْ فوراً إلى زعيق عامّ.

صاح العقيد: "بيترا! بيترا!".

من مساكن الخدم ولولت النسوة. وقْعُ الأقدام في كل مكان، في الساحة، وفي الفندق نفسه.

كان الفتى ينظر إلى بوبي بعينين مُلئتا رعباً.

إنذار السرقة ظل يزعق. ولم يهدأ إلا بعد أن توقفت السيارة عن الاهتزاز، وسكنتْ ثانيةً.

صاح العقيد: "بيتر!".

خرج بوبي إلى الشرفة. غرفة العقيد في نهاية الشرفة مضاءة. كان الباب مفتوحاً، والنافذة في مؤخرة الغرفة تكشف الساحة الساطعة بالضوء.

كان المرآب ظُلّةً مفتوحة. مصباحُ عارٍ يشتعل الآن ويرسل ظلالاً عميقة. اهتزاز السيارة لا يُلحَظ، لكنّ الإنذار لا يزال مستمراً، والزعيق المركزي تقطَّعَ.

رأى بوبي أن العجلات في موضعها، وأن أغطية محاورها لم تؤخذ.

فترات الصمت بين الزعيق صارت أطول، والزعيق نفسه أكثر خفوتاً. وصار الإنذار سلسلة من الزقزقات والصفرات حتى سكتَ في النهاية. ثم صار سطوع الساحة المستيقظة باهراً مثل ما كان الإنذار.

عاد بوبي إلى الحانة. الفتى لا يزال ينظر إليه بعينين مُلئتا رعباً. أشعلَ كل أضواء الحانة.

كان العقيد يقول: "بيتر".

أخيراً هدأت مساكن الخدم.

"كلبٌ قفز على السيارة أو قطة، سيدي".

"أكنتَ نائماً؟".

"نائماً، سيدي".

"أنتَ أحمقُ جداً".

النسوة أعولْنَ.

"سوف أُوثقك بالحبال. تيموثي! كارولوس!".

أتلعَ الفتى رأسه، لكنه لم يتحرك.

استمرَّ العويل، مغطِّياً أسئلة العقيد، والأجوبة الناعمة.

"كارولوس!".

الآن تحرّك كارولوس. فمه نصف المفتوح غلُظَ وجمد. حركته مرتبكة، وأطرافه ثقيلة. فتح الباب الخلفي للحانة ووقف قليلاً وقد أعطى بوبي ظهرَه، ويده خلفه على مقبض الباب. عبر الممر الواسع المظلم كان نصف باب مفتوحاً فاستطاع بوبي أن يلمح الساحة المضاءة: المصابيح التي بلا ظُلَلٍ على السيقان المعدنية لخزّان الماء، سطوع مساكن الخدم البيضاء، الشجرة في الخلف تلتمع ظلاً أسود وتبدو اصطناعيةً.

"كارولوس!".

جذبَ الباب يغلقه، فصار بوبي وحيداً في الحانة التي بدت أوسعَ وقد اشتعلت أضواؤها جميعاً.

في الخارج، ولولت النسوة متعاقباتٍ، ليس من اثنتين تشهقان في وقت واحد. واستحالَ التقاط ما كان يقوله الرجال. صارت الولولة صوتاً بسيطاً، جزءاً من الخلفية.

في صورة فوتوغرافية مؤطّرة، وموقّعة، ومكبَّرة تكبيراً غير دقيق، كان رجلٌ في قارب يرفع سمكة كبيرة ويبتسم في نور الشمس الشديد: الطقس والحالة، وكل النظام اللازم، ليومٍ معيَّن.

ثمت تقويمٌ، ذو منظر إفريقي، من مصنع بيرة بلجيكي، أسماءُ البلدات في بلجيكا وإفريقيا مطبوعةٌ بالحرف الأحمر نفسه.

الطلاء على الرفوف نصف الفارغة قديمٌ مخدَّشٌ، قشديّ تحت بُنّي، وفي إحدى الزوايا ست قناني ليكور فارغة ذات علامات تجارية عتيقة يابسة ملطّخة.

خفتت الولولة في الخارج، ولم تَعُد خلفيةً. سمع بوبي صوت العقيد. الولولة تعالت من جديد،وانحسرتْ ثانيةً، ثم هبط الصمت شبه مطْبِقٍ.

ترك بوبي الحانة ومضى مسرعاً عبر الشرفة إلى الممشى المسيَّج. الباب المؤدي إلى الساحة كان مفتوحاً. لم ينظر. أحسَّ بإضاءة، بحركة. عرف أيضاً أنه مراقَبٌ.

في الطابق الأعلى، وبينما كان يفتح بابه، سمع ليندا تفتح بابها. كانت ترتدي مبْذلة ليلٍ قطنية قصيرة، كان زنداها اللامعان يبدوان حادَّين مثل كوعيها.

همستْ: "بيتر؟ عرفتُ الأمر. عرفت الأمر".

مرةً أخرى، أحسَّ أنها تورِّطه في حميميّة زواجٍ محايدة. كان متحفظاً بالرغم من حاجته إلى الصُّحبة. تجهَّمَ كأنه يواجه ما حدث في الطابق السفليّ، وحادَ عن ليندا، ثم دفع بابه يفتحه، بدون أي كلام.

كانت الغرفة ساطعةً جداً من وهج الساحة. أغلق الباب، مصمماً في آخرلحظة أن يجعله ينصفقُ قليلاً. ركل شيئاً على الأرضية. ما كان بحاجة إلى إشعال الضوء ليرى أن ما ركله كان مفتاح سيارته.

لم يشعر بالقلق إلا بعد أن خلع ملابسه. المقتحمون: ربما حدثت أزمةٌ، وربما وجد نفسه بدون سيارةٍ، في الشَّرَك. قرَّر جمع أمتعته آنذاك، والإستعداد للمغادرة السريعة في أي وقت. رتَّبَ حول كرسيٍّ كل ما قد يحتاجه: حقيبة ملأى، سراويل، القميص البلدي الأصفر، حذاء وجوارب. ذهب لينام مرتدياً فانيلته ولباسه التحتيّ. كان ذلك بلا معنى، كان تشويشاً، كان تصرُّف المجمّع، لكن عندما أطفئتْ أنوار الساحة، وأحسَّ

بنفسه وحيداً في الظلام، كان مبتهجاً لأنه فعلَ ما فعلَ.

طرقةٌ على الباب، لكنها خفيفةٌ جداً حتى لم يكد يتأكّد منها. انتظرَ. الطرقة ثانيةً. نهض، لم يشعل النور. البابُ فُتح، وأشعل نور السقف. لم تكن ليندا. كان كارولوس، مع صينية الشاي. عاد العالمُ أليفاً. الفندق هو الفندق.

قال بوبي: "أغلق الباب".

كارولوس أغلقَ الباب.

"أنتَ أحضرتَ الشاي، يا كارولوس، أنت فتىً جيدٌ جداً. أنت أحضرتَ الشاي هنا، وضع كارولوس الصينية على الطاولة التي تلاصق السرير. كان يتحرك بصورة خرقاء كأنّ أطرافه فقدتْ مرونتَها، وهكذا تغيَّر وجهُه. صارت عيناه حمراوين، وشفتاه غليظتين، متفطِّرتين جافّتين، مع زَبَدٍ أبيض، وبدا كاملُ وجهه ملتهباً بالفطنة والريبة.

"أنتَ اجلسْ هنا. أنت تكلمني. أنا أعلِّمكَ".

كان كارولوس يُخرج ورقةً من الجيب الضيّق لسترته الحمراء.

"أنا أعلِّمك الفرنسية؟ أنا أعلمك مائة؟".

كانت الورقة إيصالاً بالشاي. مكتوبة بقلم ناعم، بخطّ يد العقيد الصارم.

تملّك الغضبُ بوبي، وتعاظمَ غضبه لمرأى وجه كارولوس الثقيل.

أصدر أمراً "القلم".

لدى كارولوس قلمٌ جاهز.

قال بوبي معيداً القلم والإيصال: "الآن اخرجْ!".

كارولوس لم يتحرك. وتعبيره لم يتغير.

"اذهبْ!".

"أنتَ أعطِني".

"أعطيك؟ لا أعطيك شيئاً. أُعطيك سوطاً".

حتى هذا لم يكن حقاً، إنه كلمات سواه، كان ينتهك نفسَه. جالساً في الفراش ناظراً إلى وجه الإفريقي الملتهب يقترب من وجهه، رآه مفعماً بنوع من الغضب الواضح المجنون جعل غضبه هو يتلاشى في رعبٍ، رعبٍ من شيء أحسَّهُ عصيّاً على التحكُّمِ، عصيّاً على الفهم.

قال: "أُعطيك. أعدِك. أُعطيك".

تناول شلناً من الباقي الذي كان وضعه على الطاولة القريبة.

"أنت أعطني خمسة".

"أعطيك. أعطيك".

حتى والنقود بين يديه، نظر كارولوس يمشي نحو الباب حتى فهم بوبي أن كارولوس كان فقط (جاء للتو من الغابة)، وعرف بوبي أنه لم يقرأ وجه الفتى حقاً، وأنه رأى في الوجه أشياء لم تكن فيه.

قال: "يا فتى".

توقّفَ كارولوس. وبدأ يستدير ليواجه بوبي.

"أطفىء الضوء، يا فتى".

لبَّى كارولوس الأمر. وعندما غادر الغرفة أغلق الباب وراءه بهدوء.

أشعلَ بوبي المصباح المجاور. صبَّ كوب شاي. كان خفيفاً مليئاً بالورق وقد أُعِدَّ في ماءٍ ليس حتى فاتراً. كان شاياً فظيعاً.

7

كان في سيارة مع امرأةٍ لم يستطع أن يتأكد من هويتها. كانا يتخاصمان. كُل ما قالته كان دقيقاً، كل شيء كان جارحاً، ومع أنه كان لكل شيء جوابه، إلا أنه لم يستطع أن يشرع أمره. كان عليه أن يصيح أعلى من صيحاتها، كان يصرخ، وأثناء إسراعهما على الطريق الخالي، بصورة خطرة، والمِقودُ يثب في يديه، جرحتْه وجرحته، أعمقَ فأعمق، وكان غضبٌ، وصداعٌ في رأسه كأنه على وشك الانفجار. لم يَعُد في السيارة. كان يقف إزاء طاولة في غرفة ملأى بالناس والثرثرة، وقد تهاوى بسبب رأسه المنفجر وتمدَّدَ هناك، أمامهم، على الأرض.

عندما استيقظ احتفظ فقط بذكرى الرأس. المرأة اختفت مع مجادلاتها، لكن الجرح بقي. كان ظلامٌ، إلا أن ثمّت نوعيةً للظلام تنبئ بنورٍ وشيكٍ. فكّرَ: إنها ليلتُه المبكرة، وأحداث المساء، وهو على أي حال أعدَّ امتعته لمغادرةٍ سريعة. السروال والقميص البلدي فقط ثم يغادر. لكن البنزين: ليس لديه ما يكفي. خزّانه لم يكن مليئاً: وشعر بالفزع مراراً كأنه في حلمه. ثم طلع النهار: زقزقة خفيضة من مساكن الخدم، أشجارٌ في الخلف لم يرها مساء أمس، والمذياع في الطابق السفليّ، المذيع الإفريقي يتعثر بالعبارات العنيفة لنشرة أخبار العاصمة.

دُهشَ للنور، والفضاء الطليق، والبحيرة، حين هبط إلى غرفة الطعام. السماء سامقة زرقاء، ووراء نخيل الزينة في الشارع المشجّر تمتد البحيرة مع الأفق. مساء أمس كان تشبيك الأسلاك على النوافذ كأنه يسيّج الغرفة، أمّا الآن فهو لا يشكل أي حاجزٍ للضوء، بل لا يكاد يُرى. كان مساء أمس استوائياً بالغ الرطوبة والثقل والوحشة، أما الآن

فالهواء نقيّ. الفندق، الشارع المشجر، الحديقة العامة، البحيرة: ظلٌّ شيءٌ من جو المنتجع. وهذا الصباحَ كان نشاطٌ على الشارع المشجّر. أعلى من جدار الفندق يمكن للمرء أن يرى شاحنةً عسكرية تتحرك ببطء من اليسار إلى اليمين.

العقيد، وقد ارتدى ما كان يرتديه قبْلاً، كان عند مائدته يوشك أن يتمّ فطوره، كان يشرب الشاي ويقرأ كتابه. بوبي، المرتدي قميصه البلدي الأصفر، نسي البحيرة والنور، سار، ويُسراه إلى جنبه، ويُمناه تترجّحُ، قاطعاً مَمرّه السريع الكالح إلى المائدة المهيّأة الوحيدة. جلس متجهماً، ونظر إلى العقيد، لكن العقيد كان يقرأ. فُتاتٌ على مفرش المائدة، فوضى في المُربّى ذي رقائق الزبدة: ليندا كانت نزلتْ بالفعل. وبكآبةٍ سوّى بوبي الزبدة على قطعة من الخبز البارد.

قال العقيد: "الأخبار ليست حسنةً جداً هذا الصباح".كان صوته مرتاحاً أنيساً. "على أي حال أعتقد أن الأمر لو انتهى سريعاً فسوف يكون هذا أفضلَ لنا جميعاً".

بوبي الذي كان يقضم خبزه اليابس، ابتسم ابتسامةً قصيرة جوفاء. العقيد لم يرَ شيئاً، إذ كان يقلب صفحة من كتابه.

تيموثي، ورائحته حادّة في هواء الصباح الخفيف، قدّمَ قائمة الفطور.

كانت القائمة وسخةً مثل خرقة النادل الحمراء التي مسح بها تيموثي المائدة. كانت حركاته أكثر حريةً هذا الصباح، أليفةً تقريباً، وبدا عليه أنه متلهفٌ على الكلام. في كل خفقةٍ ودّيّة من خرقته كان يطْلق مزيداً من رائحته.

شاحنة أخرى مرّتْ طاحنةً بالفندق.

قال العقيد: "الجيش يتحرك هذا الصباح. ليس وقتاً للسفر، حين يتحرك جيشنا. أنا أجعل دائماً مسافةً واسعة بيني وبينهم".

قال بوبي: "أظن الطريق لا يزال مبتلاً".

"أوه، لا بد أن تتدهور واحدة أو اثنتان من تلك الشاحنات".

ابتسم العقيد مباشرةً لبوبي. بدا العقيد أكبر سنّاً هذا الصباح. لكن وجهه غير مجهد، وبدا اللحم حول عينيه وفمه أكثر نعومةً وارتياحاً.

بوبي لم يكن متأكداً بصدد المزحة.

لاحظ العقيدُ:"سوف يخلّفون الطريق في حالة فظيعة".

قال بوبي: "لكني أظن الطريق سينشف سريعاً، مع هذه الشمس".

"أوه، مع هذه الشمس، سينشف في منتهى السرعة. في منتهى السرعة. أستطيع القول وقت الغداء".

كانت مثل دعوةٍ للتمهل، غير متوقعة. لكنّ ليندا كانت نزلتْ ولا بدَّ أنها تكلمت مع العقيد.

دخلت سيارةُ الساحة. انصفقَ بابٌ. العقيد وضعَ إشارةً، قُلامةَ قصبٍ في هيأة سكين ورقٍ، من الواضح أنها لديه منذ زمن، في كتابه، وانتظر. ظهرَ أنه يعرف الزائر.

كان بيتر، قادماً من الحانة بخطوته الخفيفة الرياضية. كان يرتدي الخاكي هذا الصباح: سروال الخاكي من مساء أمس، قميص خاكي كويّ مع كتّافيّات وجيوبٍ تُزَرّر إلى الداخل. كان كُمّاه مثنيّين إلى أعلى، على رسغه الأيسر ساعة يدوية كبيرة ذات سير لامع من الفولاذ غير القابل للصدأ. ذراعاه معروقتان، مرتخيتا العضل، والجلد المتهدل

المتغضن حول كوعيه يُظهر أنه أكبر سنّاً مما يبدو. حملَ قائمتين أو ثلاثاً مكتوبة بخط اليد. ينبغي أنه كان في الخارج يتسوّق. عندما شاهد بوبي، توقّف، انحنى، وابتسم وقال بلغة انجليزية ذات لكنةٍ: "صباح الخير، يا سيدي".

لا سخرية في ابتسامته. كانت مثل ابتسامة واحدٍ من المعارف القدامى. لم تكن منسجمة مع الانحناءة، كانت جزءاً من تشتُّت بيتر. مثل ملابسه، مثل انحناءته، مثل لُكنته، كانت ابتسامة بيتر جزءاً من تدريبه، منفصلاً عن الأجزاء الأخرى. مثل كارولوس وتيموثي، كان بيتر ملْكَ الفندقِ، ومأوى خدم الفندق. كان أمراً مزعجاً، كما هو الشأنُ دوماً في مظانّ المستوطنين السابقين. وقد أحسَّ بوبي بأنه يتطفل على المكان.

وقف بيتر مسترخياً عند مائدة العقيد بينما كان العقيد يدقّق القوائم. عندما ابتعد بيتر، بعد أن انحنى ثانيةً لبوبي وابتسم، وقف العقيد ممسكاً بكتابه على صدره. عدّلَ من هيأته ودفع كتفيه إلى الوراء. ثم تردد، كأنه ينصت إلى طنين الشاحنة العسكرية على الطريق المشجّر.

ابتسم لبوبي وقال: "في أوقاتٍ كهذه، أشعر أنك كلما كنتَ قريباً من معسكرٍ للجيش كنت أسْلَمَ. إنهم تحت السيطرة أكثر. لستُ أدري إن كنتَ هنا أيام التمرد. حتى الطبيب الساحر هرب. لم يعرف أحدٌ مكانه لمدة أسبوع. لكن الأمور هنا كانت ممتازة".

وثانيةً، كان بوبي غير واثق.

قال العقيد: "طبعاً، سينتهي كل شيء في يوم أويومين، كلُّهم سيهدأ. في يوم أو يومين".

لم يكن بوبي واثقاً، لكنه فكّر بأن العقيد يريد الصُّحبة. قال : "نحن من الآن متأخرون ليومٍ".

"سنقدم لكم غداءً مبكراً. ولسوف تصل إلى الكولكتوريت قبل منع التجول بوقتٍ جيد".

"إذاً، منع التجول، رسميّ؟".

"الساعة الرابعة. سنجعلك تغادر في وقت جيد".

في ما بعد، نزل بوبي إلى الطابق السفلي، ليجد ليندا في الشرفة.

كانت تنظر إلى البحيرة المتألقة عبر نظّارتها السوداء. كانت غيّرتْ قميصها لكنها ترتدي سروال أمس الأزرق الذي تعلقت به لطخٌ مترية خفيفة هي بقايا الوحل الذي نُفضَ.

قالت : "هل أخبركَ العقيد؟".

ابتعدتْ، دون انتظار جوابه. كانا لايزالان يتخاصمان.

لم يكن بوبي في مزاجٍ للكلام، أراد، بخاصّة، أن يُجَنِّب صحبةَ العقيد المقلقة، وقرِّر، بارتياح، أن يتجهَّم. وبوجهٍ متجهمٍ قلَّبَ الكتبَ التي في المكتب، قصص حربية، قصص رومانسية تاريخية، اختار عدداً منها، وجلس في الشرفة، مقتعداً كرسيّاً مضفوراً، لقراءة عابسة.

ليندا التصقت بالعقيد. جلسا في المكتب المفتوح، وسمعهما بوبي يتحدثان. تمشّيا في الساحة، والمرآب، والحديقة، ومأوى الخدم، وسمع بوبي العقيد يتكلم. جلسا في غرفة العقيد المفتوحة، وخرجا، ووقفا في مدخل بوابة الفندق. ظهرَ أن العقيد يعترف بمدخل البوابة حداً لا يتخطّاه. فهو يظل داخل الساحة ذات الحصا، ولم يَخْطُ، البتةَ، على الكونكريت الذي ينحدر إلى إسفلت الشارع المشجّر.

على فترات مرّتٍ شاحنات الجيش بطيئةً. تحت القلانس الخضر كانت وجوه الجنود الممتلئة بلا تعبير، ولا تزال كابية السواد من اغتسال الصباح.

فقدَ الهواءُ طراوة الصباح، وصار النور شديداً، وبدأ بوبي، بالرغم من الكتب، يشعر ثانيةً بشيء من الوحشة في المنتجع المتداعي. دخل كارولوس الحانة، مترب الشعر، دُهنيٌّ البشرة، بسرواله الأسود العتيق وسترته الحمراء الضيقة، كأنه لم يخلع ملابسه ولم يغتسل منذ البارحة. تنقّل ضاجّاً في الحانة بمكنسته وخرقته، زلِقَ الخطى، كأنه يقلد تيموثي. ثم رأى بوبي في الشرفة. كارولوس لم يخرج إلى الشرفة. تراجعَ بمكنسته وخرقته ومكثَ في الحانة، خارج الرؤية. بوبي لم يتحرك. قلّبَ وجه الكتاب على ركبتيه، نظرَ إلى نقطة في الساحة، وطأطأ رأسه. سمع كارولوس يتحرك هادئاً في الحانة، محاولاً ألاّ يجلب الانتباه إلى نفسه.

العقيد وليندا لا يزالان معاً، لكنّ بينهما الآن فتراتِ صمت. وعندما جاءا وجلسا إلى مائدة بوبي، لتناول القهوة، رأى أنهما فعلا ذلك بسبب استنفادهما المزاجَ الذي كان تولّدَ من حديثهما.

بوبي، المتجهم حتى الآن، لم يبذل جهداً كي يتكلم. ولا ليندا أيضاً وراء نظّارتها السوداء. وبدا أنْ ليس للعقيد ما يقوله.

فكّر بوبي: سيبدأ الكلام عن الأفارقة.

كارولوس وقف في مدخل باب مع صينية القهوة.

قال العقيد: "يبدو أن الشاحنات توقفتْ".

نظر بوبي إلى كارولوس ثم حدّق إلى الفراغ، مُظهراً قدرته على الصرامة حتى في صحبة العقيد. صار كارولوس في منتهى الغباء، ومثقلاً بالخوف.

قال العقيد، مهيئاً الأكواب بيديه المستديرتين القويتين: "أستغربُ من الطريقة التي يستطيع فيها أولئك الأفارقة أن يبدو أذلاّء هكذا حين يطيعون الأوامر. هل رأيت أولئك السوّاق؟ يسوقون بطيئاً بطيئاً، ويبدون جدٌ أذلاّء كأنهم جُلدوا هذا الصباح. هذا فقط لأن مدرِّبيهم يلاحظونهم".

بوبي، الصامت، أمالَ كوبه الفارغ، ليتفحّص عيباً في التزجيج.

قال العقيد آخذاً الكوب من بوبي: "بإمكانك تدريبهم، لكن إلى حدٍّ، إلى حدٍّ فقط. كارولوس. سرعان ما يسوقون تلك الشاحنات كالمجانين، وهذه الوجوه الذليلة ذاتُها ستكون مؤذية جداً. كارولوس".

كارولوس كان واقفاً في المدخل، ينظر مرتعباً من بوبي إلى العقيد.

نظر بوبي إلى كارولوس.

قال العقيد وقد ظهر الإنزعاج في صوته لأول مرة هذا الصباح: "كارولوس، هذا الكوب قذرٌ تماماً".

أحضر كارولوس كوباً آخر. شربوا القهوة. لكن إنزعاج العقيد الذي بدا مفترضاً للوهلة الأولى، استمرَّ. مضى اطمئنان الصباح، وصار وجهه متوتراً ثانيةً. ليندا صامتة، باسمة وراء نظارتها السوداء كأنها تمْتح من رضاً داخليّ. بوبي ظل متجهماً.

بعد القهوة تركهما العقيد، ومع أنهما سمعاه يتكلم إلى المطبخ عن غدائهما، إلا أنه تصرَّف في ما بعدُ كأنهما قد غادرا بالفعل. لم يأت إلى الحانة أو غرفة الطعام آن تناولهما غداءهما. أمّا تيموثي، الأهدأ الآن، فقد جاءهما بقائمة الحساب، وتسلّم نقودهما.

كان العقيد في الساحة حين نزل بوبي وليندا بحقائبهما، لكنْ لم يَبْدُ عليه أنه رأى، لم يبدُ عليه أنه سمع حين فتح بوبي باب السيارة وزعقَ

جهاز الإنذار. وقف العقيد في مدخل البوابة، ويداه في جيوبه. نظر إلى الشارع المشجر والبحيرة، أحياناً نظر إلى مبنى الفندق عن بُعدٍ، كأنه يستعد لصورةٍ. لم يسمع السيارة تُشغَّل، لم يلحظْها تقترب. لكن، حين أبطأ بوبي، انحنى فجأةً إلى أمام، وابتسم لليندا.

قال: "إن لقيتما الجيش، تماوَتا".

آنَ بدأ بوبي يبتعد، شرعَ جمعٌ من ثمانية رجال يدخل الساحة من الشارع المشجر. اثنان كانا هنديين معمَّمين، والآخرون أفارقةً شبّاناً بقمصان بيض وسراويل سود، ربما كانوا مسَّاحين متدربين، أو بنّائين من معسكر الجيش، أو موظفين بدائرة الأشغال. أحد الهنود تكلم مع العقيد.

صاح العقيد: "غداء! هذا ليس مطعم طريق. لا يمكنك المجيء إلى هنا في أي ساعة تختار وتطلب غداءً".

عبر المنحدرالكونكريتي انعطف بوبي وليندا إلى الشارع المشجر، الذي فاجأهما خرابه ثانيةً، في ضوء النهار، والألوان الساطعة. السطح الإسفلتي الرقيق كان منتفخاً متشققاً مثل أعلى كعكة.

كان العقيد يصيح: "لا! لا!".

قال بوبي لليندا: "هذا لصالحك. لقد أفلحتِ جداً، هنا".

"أوه. بإمكانه الإكتفاء بالنقود أيضاً. ثمانية×خمسة عشر، تساوي مائة وعشرين شلناً، دع عنك حساب المشروب".

"لا داعي للقلق. سيحصلون على غدائهم. هل نعود لنتأكد، بعد الحصول على البنزين؟".

صعَّدتْ حنكها، ونخرتْ نخرةً خفيفةً بنفاد صبر، والتفتتْ تنظر إلى الجدران الخضر الرَطبة للمنزل الفارغ الذي لم تتمكن من مشاهدته البارحة.

8

محطة البنزين تعمل. حصلا على بنزينهما، وهدأ القلقُ المستترُ لدى بوبي. وتجنباً للمرور على الفندق ثانيةً انعطف في شارع فرعيّ، وخرج من المنتجع عبر شارع موازٍ لبوليفار البحيرة. وسرعان ما خلّفا وراءهما الدارات المتناثرة في طرف البلدة، وصارا على الطريق الجبلي.

أكتاف الطريق الناعمة كانت منسحقة بفعل الشاحنات العسكرية، لكن السطح الأوسط كان متماسكاً يابساً. هنا وهناك، وفي الزوايا بخاصة، حركت الأمطارُ والشاحناتُ العسكرية صخوراً عن مواضعها، مكوِّنةً حُفراً موحلة، وفي بعض الأماكن، حين الطريقُ منخسفٌ نتأت صخورٌ كبيرة، إلا أن الطريق، على وجه العموم، كان سهلاً. العاملون على إصلاح الطريق لم يكونوا في هذا الجانب من المنتجع، ولم يُلْقِ أحدٌ أكوام تراب.

صعدا أكثر. ولجا غابةً، لا تزال رطبة، مع بقع ناعمة من نور الشمس على الطريق وعلى سفوح التلال كثيفة النبت. اختفى النور وفضاء البحيرة الطليق. أحياناً كانا يلمحان البحيرة تحتهما، وقد فقدت بريقَها، وتميُّزها عن السماء. وعندما خرجا من الغابة ودخلا في وديان السرخس والقصب الرطبة بدت السماء دانيةً ثقيلة الوطأة، والضوء مختلف النوعية، مستقراً، ميتاً، لا يحمل أي انعكاس من سطح الماء.

ما كانا يتكلمان.

الآن قالت ليندا: "إنك لتُدهَش كيف دبَّروا المكان".

كانت استفزازية. خصامُها لا يزال مستمراً. لم يُجب بوبي، وهي لم تزدْ في القول. بعد فترة،بدّلتْ بعنايةٍ جلستَها على المقعد.

تنا ءى القصب والسرخس. وفي قمة المرتفع كانت الأرض جرداء تماماً. ثم شرعا يهبطان ثانيةً عبر وادٍ مثل الوديان التي شاهداها أمس. وثانيةً، الحقول، والتلال ذات المصاطب، والأكواخ. في مطر أمس كانت الألوان ناعمةً، خضراء ورمادية، الممرات يغشّيها الضباب، والحقول فارغة. الآن، في نور الشمس الميت كانت الألوان أقسى. والأكواخ التي بدت، أمس، في المطر، مُلتجآتٍ مريحةً، صارت تُرى الآن تراكيبَ خشنةً من الحشيش ناهضةً في ساحات مسيجة من طين أسود موطوء. نسوة وأطفال بملابس زاهية تشتغل بأدوات بسيطة في قطع صغيرة من التراب الأسود المبتلّ. النسوة يحافظنَ على انحناءة ثابتةٍ معتمدة على ساقين مستقيمتين قويتين، مؤخراتهن عريضةٌ بالغةُ البروز. إنهنّ منحنياتٌ تماماً، لا يتحركن إلا من الخصر إلى الرأس. إنهن يعزقن، ويقتلعن الأعشاب، ويمضين في طابورهنّ. وعلى امتداد الوادي، بين النسوة والأطفال، كانت نيرانٌ صغيرة داخنة من أكوام العشب النديّ المقتلَع. إنها حياة الغابة البعيدة في الذاكرة. الممرات كانت ممراتٍ بسيطة للغابة، لا تؤدي إلى سواها.

في انعطافة للطريق أمامهما، حيث اتسعت الحافة العارية وارتفعت ثم انخفضت، وقفت ستة من المواشي، متكأكئة على بعضها، ماثلةً إزاء السماء. لكن تبيَّنَ أن اثنين منها طفلان عاريان. كانا واقفين حيث هما، وقد خبتْ عيونهما، وشوهّ الوحل مرآهما، يراقبان السيارة تمرّ.

قالت ليندا: "كنت آملُ في أن أشتري لمارتن بعضاً من سيجار الآبار البيض ذاك. أتعرف؟ بإمكانك أن تشتري حزمةً كبيرةً منها بشلنات قليلة.ملفوفة في علبة من ورق الموز اليابس".

فكّر بوبي، مارتن: كانا يقتربان من البيت. قال: "كنت أظن مارتن ذا غليون".

"هو يحب هذه. إنها كريهةٌ تماماً، لكنه يحب أن ينفخ ويملأ غرفته بالدخان. ينفخ فقط. في الستائر، ورفوف الكتب، وتحت الحشيّات. فقط ليجعل الرائحة في كل مكان. كان من المعتاد الحصول عليها في فندق العقيد. لكني لم أرها هذه المرة، ونسيتُ أن أسأل. أعتقدُ أنها كانت تأتي من جانب البحيرة الآخر. لكني أفترض أنّ لدى الآباء البيض البائسين الآن أموراً أخرى يفكرون بها بدلاً من السيجار".

"ليست لدى العقيد أوهامٌ على هذا المستوى. يا إلهي. كان الأمر فظيعاً".

قال بوبي: "لستُ في وضع من يصْدر حكماً. لم أكن أبداً مع مجد المستوطنين".

"لقد تدهور كثيراً. منذ الحادث والعجيزة المصابة كما أعتقدُ. الغرف كريهة، والخدم قذرون، ولم يعد هو ليهتمّ بنفسه".

"هذا ما يحدثُ لحظةَ توقفك عن مراقبتهم".

لم تدرك ليندا السخرية. كان صمتها مثل موافقة بسيطة.

بوبي حاولَ ثانيةً: "ظننتُ الأفارقة وحدهم ذوي رائحة. ماذاك الذي تقوله دوريس مارشال؟ تلك النبذة عن حكمة المستوطنين والتمدن والنظافة؟".

قالت ليندا: "يا إلهي. تيموثي ذاك".

أهملَ بوبي الموضوع.

قالت ليندا: "أعتقد أن مئات الناس مثل ذلك في أنحاء العالم، في مختلف البقاع الغربية".

"عاشوا حياةً هانئة".

"الموضوع ليس هنا".

"ما هو؟".

"لا أظنك تريد أن تفهم. إنه لفظيعٌ". تهدَّج صوتُها، وفوجئ بوبي. "الرجل الأحمق يريد أن يعيش وحيداً على تلّه. يا إلهي. والقميص الذي كان يرتديه قذرٌ جداً. أراد الصحبة. وهو على حق. إنهم ينتظرون قتله".

"لأقتلَنَّ نفسي إن مكثتُ هناك".

"لا أثق ببيتر ذاك، مطلْقاً. مُداهنٌ ناعمٌ مع تلك الساعة اليدوية البرّاقة".

قال بوبي: "عليّ الإعتراف بأنّ بوبي مُبالغٌ في نظافته".

"العقيد أُصيب بصدمة القنابل في الحرب العظمى. هو أخبرني. قال إنه يغيب عن الوعي لو عنَّفه أحدٌ. عَنَّفه، تلك الكلمة استعملَها. ثم ذكر أنه تمالكَ نفسَه".

كتمَ بوبي غيظه. "بإمكانه الذهاب إلى الجنوب". توقَّفَ. "لا يزال هناك كثيرٌ من السود كي ينفِّسَ عن حاله".

"إن شئتَ عَرض الأمر هكذا. لكن لا يهمّ الآن أين يذهب. هو أدخلَ بيتر خادماً، طازجاً من الغابة-".

"-ودرّبه. أعرفُ".

"أفترضُ أنهم عاشوا حياةً هانئةً، كما تقول. لكن أي بقاعٍ غريبة حلّوا فيها. سالونيك. الهند".

"بأي سرعة نلتقط الأشياء. لم أكن أعرف أننا أرسلنا مستوطنين إلى سالونيك".

"لستُ أعرف حتى أين تقع سالونيك. لقد سئم حتى المرض مرأى البحيرة، سئم الفندقَ، ومأوى الخدم، سئم طعامَه، والمائدة التي يذهب إليها ثلاث مرات في اليوم. لكنه لن يغادر. أخبرني أنه لم يخرج من بوابته شهوراً".

"لا أرى الأمر رغبةً. كانت لي عمّةٌ مثله، في انجلترا المظلمة".

"ولا يزال مستقيماً حدَّ اللعنة. لا يزال يقدم لك غداءً بخمسة صحون".

كانت تتكلم بطيئةً، وظنَّ أنها تغدو "غامضة". لكنه رأى آنذاك خيطاً رفيعاً من الدمع تحت نظّارتها السوداء. أراد أن يقول: أعرفُ سبب بكائكِ. لكنه قرَّر أن يتركها على سجيّتها، قرَّر ألا يفعل شيئاً يغذو حالتَها.

ركّزَ على قيادته السيارةَ. دائماً على الطريق الصخريّ، آثار شاحنات الجيش التي مرّت من قبل: الأطراف الناعمة المنسحقة، موطوءةٌ بالعجلات، الحفر الموحلة في بعض الزوايا، وجلمودٌ في غير موضعه بين حين وآخر، أبيض حيث دُفِن، يعلوه لونُ التراب. ظلَّ الطريقُ سهلاً خالياً بصورة معقولة.

قالت ليندا: "أظنّكَ على حق. دع الموتى يدفنون الموتى".

وادٍ يؤدي إلى واد. الطريق يصعد ويهبط. لكنهما ظلاّ ينزلان. صارت الوديان أوسع، والأرض أقل سواداً، وأكثر صخريةً، والضوء أشدُّ استوائيةً. لم تعد المساكن كلها من حشيش. وليست كلها ذات أسيجة وباحات موطوءة. كانت ثمت مَجاميع قليلة من أكواخ لوحٍ وصفيح، وأحياناً حتى أطلالٌ من ألواحٍ مهترئة وصفيح صدىء.

أحياناً، يظهر شيء كالنُّصب إلى جانب الطريق. كأنه تذكارٌ حربيّ أو منهل ماء. وتبيَّنَ في ما بعد أنه ماسورة عمودية: فوّهة سوداء تمتد من جدار كونكريتي عريض مُسَوّى الجوانب، مقطوع الزوايا: الإدارة العامة للأشغال العامة والرعاية، ٢٧-٥-٥٤ بارزة في شريط فسيفساء أزرق وأبيض في أعلى الجدار.

كان هذا أولَ ثمانية. ثم الطريق وحده، ثانيةً.

من السيارة، لمحا بصورة متقطعة نهراً ذا صخور، يتّسع مع استواء الأرض. ثم خرج الطريق، من مقتطَعٍ في الغابة، وامتدَّ على سدّة عالية ذات جدران كونكريتية، إلى جانب مجرى النهر المتمدد: قنوات ضيقة موحلة بين جزر من الرمل والشجيرات نصف المعرّاة والصخور المتراكمة بيضاء في ضوء الشمس. لا حاجز على السدَّة، وأعطى الانفتاح إحساساً بالخطر.

تحوَّل الطريق عن النهر، ودخل الغابةَ من جديد. لكن النهر ظلَّ قريباً، وعندما التوى الطريق ثانيةً خارجاً من الغابة، ليمتدَّ بمحاذاة النهر أيضاً، شاهد بوبي وليندا جندياً ذا بيريه حمراء واقفاً في الضوء الساطع على الجدار الكونكريتي العريض للسدَّة، وكان خاكي بدلته وسواد وجهه اللامع، بتقابلهما، واضحين حادَّين إزاء انفتاح مجرى النهر. أشار إلى السيارة، مائلاً إلى الأمام قليلاً، ضامّاً جزمتيه السوداوين الملمّعتين. كان العمّال الأفارقة في الوادي نحافاً، مهلهلي الثياب. كانت بدلة الجندي المكويّة ضيّقة على ذراعيه وفخذيه وكرش الجنديّ لديه. كان يدرك اختلافه، يدرك الملابس العسكرية، وأثر طعام الجيش. كانت إشارته ثقيلة، خرقاء، بل فزِعة، لكنها تحمل معنى السلطة، وثمّت ثقة في الوجه المستدير الباسم.

كان بوبي يقود السيارة بطيئاً على الطريق الصخريّ.

قالت ليندا: "إنه لَسمينٌ لطيفٌ".

ظل الإفريقي يبتسم ويلوِّح، ويده تخفق من الرّسغ. السيارة لم تتوقف. نزلتْ يد الإفريقي. صار وجهه بلا ملامح.

كان لدى بوبي وهو ينظر في المرآة المهتزّة، إحساسٌ مشوَّشٌ عابرٌ، بالإنفتاح والخطر: السدّة التي بلا حاجز تميل خلفه، وتندفع إلى جانبه. نظر من المرآة إلى الطريق.

قالت ليندا: "لم أُحبب النظرة التي رمقَنا بها. أتصوَّر الآن أنه سوف يتصل بالهاتف مع أصدقائه السمان الآخرين، ولسوف ينتظروننا عند حاجز طريقٍ ما. أتصوَّر أنه سيقرع الرسالة على الطبل، هذه اللحظة".

"أنا دائماً أحملُ الأفارقة في السيارة".

"أنا لم أمنعك".

"ماذا تقصدين بأنك لم تمنعيني؟".

"تماماً مثل ما قلتُ. سيلتقونك في أي مكان، بذلك القميص البلدي الأصفر".

"بحقٍّ الله".

كان يبطئ السيرَ. أما الآن فقد اندفع مسرعاً، بضراوةٍ هيِّنة.

قالت ليندا: "أظنُّ سبب ذلك أنهم لا يقرأون، لكنهم أذكياء جداً. أتعرف ذلك الحيّ قرب المجمّع؟ كنت مع مارتن نمرُّ به يوماً، فرأينا خادم دوريس مارشال، أو المشرف، كما يُفترض أن نقول، يتقلب على العشب، سكران كالعادة، في عزّ ما بعد الظهر. ما أن رآنا حتى توسَّطَ الطريقَ ملوِّحاً كي يوقفنا. كان مارتن يريد التوقف. وأنا لم أكن أريد. حسناً،

ذلك الخادم السكران رأى الحديث من على مبعدة خمسين قدماً أو مائة قدم، وأعاد كلمةً كلمةً على مسمع دوريس مارشال. دوريس مارشال لم تحبب الأمر. أتيكيت إفريقي جنوبي. لقد جرحتُ مشاعر مُشْرفها".

كبح بوبي السيارة، وعندما توقفتْ شدَّ على المِقوَد ومال عليه.

"آه، بوبي. لم أكن جادّةً".

أغمض عينيه، ثم فتحهما.

"حقاً، ما كنت جادّةً. أنت لم تكن تفكر بالعودة إليه؟".

كان هذا في ذهنه، على نحوٍ غامض.

"سيكون الأمر جدُّ مضحك".

قال بوبي: "عرفتُ أنّ عليّ أن أفعل شيئاً هذا الصباح. كان عليّ أن أتصل بالهاتف مع أوغونا وانجا-بتيري أو بوسوغا-كيسورو. خطرَ لي هذا حسبُ".

تقبّلت الشرح: "أشكُّ في أن أياً منهما يعمل اليوم".

وضع بوبي يده على مفتاح التشغيل.

في البعد، من اتجاه السهل، كان صوت هليكوبتر. كان صوتاً خافتاً، يأتي مع الريح حيناً، ويتلاشى حيناً، ثم استقرٌ في النهاية. وعندما أدار بوبي المفتاح، لم يعد صوت الهليكوبتر مسموعاً.

مضيا باتجاه السهل، وصوت الهليكوبتر يقترب، وينحسر، لكنه مسموعٌ دائماً أعلى من نبض المحرك وقرقعة العجلات على الطريق الصخريّ. أضاعا النهر، لكن للأرض كلها، الآن، صفة مجرى النهر الناصلة. ثمت أكواخ قليلة متناثرة على قوائم. الصبّار المزهر ألقى ظلالاً سوداً. صار الطريق رملياً مع آثار عجلاتٍ غائصة، وفي الزوايا رملٌ

جافٌّ انزلقت فيه عجلات السيارة. كانت أرضاً عتيقة، منهكة. لكنها خالية من السكان.

ركض رجلان في الطريق. لكنهما ربما كانا ولدينِ. كانا عاريين، أبيضين بياض الطباشير من قمة الرأس إلى أخمص القدم، أبيضين كالصخور، أبيضين كالنصف السفليّ المحرشَف المتعقد لنبات الصبار العالي، أبيضين كالفروع الميتة لأشجارٍ انحلّت جذورها في التربة المتداعية. لأربع ثوانٍ أو خمسٍ، لا أكثر، ركض الشخصان الأبيضان بخطى بطيئة خفيفة على الطرف الحجري للطريق ثم عادا راكضينِ من الطريق إلى حقل من الدَّغل والحجر.

ربما كانت خطواتهما طبيعية. ربما خافا فقط من السيارة. ربما كان لونهما، يسلبهما الوجوه وحتى العري الذي جعلهما يبدوان خفيفين شفيفين. ربما ضجيج السيارة هو الذي قتل الصيحات التي قد يطلقانها وأصوات أقدامهما.

ظهورٌ جدُّ سريع، جدُّ مباغتٍ، وبلا انزعاج: بوبي وهو ينصت إلى الهليكوبتر أعلى من نبض المحرك، لم ينظر ليرى، في ذلك المنظر الساطع المبعثر، أينَ ذهبَ الولدان أو الرجلان المطبشَران.

ليندا لم تنظر. لا هي تكلمت ولابوبي. ومرّت فترةٌ قصيرةٌ قبل أن يدرك بوبي أن الهليكوبتر التي كان ينصت إليها، لم تَعُد ممكنة السماع.

والآن، صار خارج الجبال تماماً، الجبال التي بدأت تترا ءى في المرآة سلسلة زرقا ء-خضرا ء مُتْلعةً على سهلٍ ساطع. ظهرت المزارع ثانيةً والحقول المسيَّجة، ومرابعُ أكواخ صغيرة عند مفترقات الطريق: بيوت وأكواخ في باحات مترِبة، مخزنان خشبيان أو ثلاثة: طلاءٌ متقشر على

لوحٍ عتيق، إعلاناتٌ ناصلة على الأبواب، أُطُرٌ معوجّة، مداخل مظلمة.

قللا من السرعة بسبب سيارة صهريج بنزين يسوقها هنديّ. كانت أول مركبة رأياها منذ تركا الفندق. لكن المركبات كثرت الآن: شاحنات قديمة، سيارات عتيقة يسوقها أفارقة. الطريق معبَّدٌ ثانيةً. كانا يدخلان بلدةَ سُوقٍ.

مبانٍ رسمية جوزيّة-حمراء صغيرة تتناثر حول الطريق المتعرج، لكن الفراغات بين المباني لم تُملأ، معظم البلدة كان أرضاً يباباً، منجرفة متوهجة مثل مجرى نهر. المباني كانت على طراز إيطاليٍّ ما، مع لمسةٍ أميركية جنوبية. الجدران تهبط إلى الأرض تماماً ملطّخة بالوحل. الكونكويت المجصَّص على عجلٍ يبدو كاللبِن. أعمدة تلغراف معوجّة، أسلاك مرتخية، النهايات المهشمة لطريق الإسفلت، أرصفة علاها العشب، غبار، قمامة متناثرة، دراجات إفريقية، شاحنات وسيارات معطّلة خارج ظُلّة محطة الحافلات: البلدة أخفقت في النموّ، لكنها لا تزال تعمل.

الأفارقة جلسوا وأقعوا في حديقة عامة متربة، سمقَ فيها شجر اليوكالبتوس. ثمت سوق مع برجٍ ساعةٍ. إحدى البسطات كانت ملأى فقط بثيابٍ للأفارقة معلّقة، كل ثوب على حمّالة، الحمّالات مرتطمة ببعضها حتى بدت البسطةُ مثقلةً ببساط خِرَقٍ خفّاقٍ. تحت الساعة، على البرج، وبالكونكريت البارز حروفاً، حمراء على جوزيّة: سوق ١٩٥١.

ثم تجاوزا البلدة، وصار الطريق خالياً من جديد. كان الطريق خالياً جداً، والهواء صافياً جداً، والأرض مستوية جداً وعارية، حتى أنهما استطاعا أن يريا، قبل أميال من الوصول، سدّةَ الطريق العام الرئيس،

المؤدي إلى الكولكتوريت. ذاك أيضاً كان خالياً. أسود، عريضاً، مستقيماً: توقفت السيارة عن القعقعة. صار للعجلات هسيسُ ثانيةً: صوت الحركة الناعمة السريعة. الهواء اندفع عبر النوافذ نصف المفتوحة.

بوبي كان مستشاراً: "أتحسين بذلك؟ قد يحصل لكِ تيارُ ريحٍ خطر هنا. الرياح المتقاطعة قد تقذف بك خارج الطريق إن لم تكوني متنبهة".

الشمس تبدَّت على القسم العلوي من الزجاج الأمامي، واتّضحَ كلُ خدشٍ عميقٍ من خدوش الأمس التي حدثت في محطة البنزين. على غطاء المحرك الملتمع كوّنت الخدوش الصغيرة أشكالاً دائريةً.

قالت ليندا: "عرفتُ ذلك".

أبعدَ من الالتماع الأبيض لغطاء المحرك، وخلال تشويهات موجات الحرارة، في البعد، كان القير الأسود ينحلُّ في ضوء: فوضى عربات على جانبٍ من الطريق، حادث سير.

قالت ليندا: "ظننت الأمر أفضل من أن يكون حقيقةً. دائماً تحدث الحوادث عندما يكون الطريق خالياً مثل هذا".

وإذ اقتربا مبطئين، شاهدا حافلة فولكس واجن صغيرة رماديةً حمراء متوقفة على مستوى الطريق، وسيارة بيجو صالون زرقاء متوقفة على الحافة، مائلةً إلى جنب، وأخرى نصفُها في الخندق، بيجو عائلية مهشمة داكنة الخضرة يظهر من رقم لوحتها أنها واحدة من تلك التي يستعملها الأفارقة كسيارات أجرة للمسافات الطويلة. ثمت عربات أخرى بعدها، لكن هذه كانت الحطام الوحيد: جديدة جداً، وفي التحطم هشّةٌ جداً وقاتلة.

أبطأ بوبي، من وراء الحافلة الصغيرة خرج إفريقي يرتدي سروالاً أسود وقميصاً أبيض. توقّفَ بوبي.

"أتمكننا المساعدةُ؟".

ضيَّقَ الإفريقي عينيه ناظراً إلى اللمع الباهر للزجاج الأمامي، ونظر، غير متأكدٍ، إلى بوبي وليندا ولم يُجبْ.

تجاوز بوبي الحطام المخيف إلى أمام. شاهد فولكس واجن بيضاء، فتوقَّف ثانيةً. كانت مثل مائة فولكس واجن بيضاء، مثل فولكس واجن البارحة، لكن الرجل الذي جاء من ورائها لم يكن قصيراً، بل كان أسود طويلاً متين البِنية. حُلكتُه وهيأته ما كانتا إفريقيتين: كان في ملامحه الحادّة ولونه الدافئ ما ينبئ بدماء أخرى، بقارة أخرى، ولغة أخرى.

ليندا الباحثة في الحطام عن دمٍ، جسدٍ، أحذية، بطّانية، استجابت فوراً لسلطة هذا الرجل. مالت خارجاً في الشمس ونادتْه: "ماذا حدث؟".

ابتسم لليندا واقترب من السيارة.

قال: "حادثٌ مميت. سوقوا بحذر".

ما كان من البلد. لقد تكلم بلهجة الزنجي الأميركي التي لا يخطئُ أحدٌ التقاطَها. البسمة واللهجة، والرأفة غير المتوقعة للنصيحة، منحت كلماتِه سلطةً. شعر بوبي بالنبض الخفيف للأخوّة البشرية. كان شيئاً أكثر من العاطفية التي تغمره، هو البريء الأبيض، حين يلقى موظفين أو شرطةً أفارقةً يؤدّون واجباً صعباً. كان متلهفاً على إظهار طاعته واستجابته للنصيحة. قاد سيارته بانتباه على آثار الإنزلاق السوداء المتمايلة التي بدأت وانتهت فجأة على الطريق الأسود.

كانت الشمس تأتي من أعلى الزجاج الأمامي المخدَّش: شعر بالوهج خطراً فأنزَل الحافة.

أظهرت المرآةُ حركة حول السيارة الصالون والحافلة الصغيرة. والرجال أكثر ممّن رأى حين مرَّ. ثم شرع الطريق ينعطف، فاختفى المنظر.

أربع أو خمس شاحنات عسكرية، مَحاورُها عالية على الطريق الممهد، كانت متوقفة إلى أمام. وعلى حافة المعشبة جنب الشاحنات، وفي الخندق الضحل، وفي ظل أشجار مريضة بالحقل التالي، كان جنودٌ ذوو بنادق. قاد بوبي سيارته ببطء كي يبيِّن أنه لا يخفي شيئاً.

الجنود جميعاً التفتوا لينظروا إلى السيارة. كانت وجوههم تبدو مزيّتة تحت القلانس الخضر. والجنود على الحافة بدوا عابسين. عيونهم ضيقة فوق خدودهم الممتلئة، وجباههم التي كانت بالغة النعومة في نشوة الهرولة أمس عبر شارع البحيرة كانت الآن ملطّخة متغضنة بين حواجب بلا شَعر تقريباً. البنادق في أيديهم اليوم، ولا بنادق في أيدي غيرهم. الجنود قدّام الخندق، وفي ظل الأشجار، كانوا يبتسمون للسيارة.

رفع بوبي يداً واحدة من المقود في نصف تلويحةٍ. لم يلوِّحْ أحدٌ مستجيباً. ظلَّ الجنود جميعهم ينظرون إلى السيارة، الذين ابتسموا، والذين عبسوا.

قالت ليندا: "لم يكن ذلك حادثاً".

كان بوبي يسرع.

"بوبي، لقد قتلوا الملك. كان ذلك هو الملك".

كان الطريق مستقيماً أسود. وهسَّت العجلات على القير الرطب.

"كان ذلك هو الملك. لقد قتلوه".

قال بوبي: "لا أدري".

"أولئك الجنود عـرفـوا لماذا يكشّـرون. أشـاهدتَهم يكشّـرون؟ وحوش.وحوش سودُ سمـان. لا أستطيع أن أتحمل المشهد حين يكشّرون هكذا".

"الملك كان أسود أيضاً".

"بوبي، لا تجعلْني اتكلم عن ذلك الآن".

"لا أدري عمَّ نتكلم. ربما كان الأمر كما قال ذلك الرجل، حادثاً".

"لطيفٌ أن يصحَّ ذلك. أتعرف. ظننتُهـا مزحةً. قـالوا إنه سـوف يحاول الفرار في سيارة أجرة، متنكراً في هيأةٍ ما".

"ربما فـعل ذلك في مكان قـريب من هذه النواحي. بين مـتـاريس الطريق".

"هذا ما يقوله الجميع في العاصمة عن اعتزامه فِعل ذلك. ظننتُها مزحةً. وهذا ما مضى إليه وفَعله".

"طبعاً كل ذلك كان كذباً، كل هذا الكلام عن الإنفصال وعن مملكة مستقلة وما إلى ذلك. وبالمناسبة، هذا هو رأي سيمون لوبيرو. لم يكن الملك سوى فتىً لندنيٍّ عابثٍ. لقد أُعجب به كثيرون هناك. لكني متأسف إذ أقول إنه كان أحمقَ جداً".

"هذا ما يقوله الجميع. وأعتقدُ أني لهذا السبب لم أصدِّقْ. ظننتُ الأمر أكثر حماقةً من أن يتحقق. كل تلك اللهجة الأكسفوردية وكلام لندن. ظننتُها عملاً مسرحياً".

"كان سيمون سديد الرأي، دوماً، حول الأمر كله. وقد أُتيح لي أن أعرف أن سيمون ودَّ كثيراً أن ينحصر الأمر في حدود عملية خالصة للشرطة".

"ومع هذا، يحسب المرء أن لا بدّ لهؤلاء الناس من أساليب سرية، وأنهم سيستطيعون دائماً الاختباء في الغابة والنجاة. خاصةً وهو إفريقيٌّ وملك. ظننت الهليكوبتر والرجال البيض فيها محض أضحوكة".

قال بوبي: "نعم. الأوباشُ السودُ ظفروا به". فاجأته مرارته، واكتشاف الغضب، غير الموجَّه إلى أحد. صار أهدأ. قال ثانيةً: "الأوباش السود ظفروا به. آملُ في أن تصل الكلمة إلى لندن، وفي أن يجد أصدقاؤه الأذكياء ذلك الأمرَ مسلّياً أيضاً".

كان لا يزال يسرع في سيره، لكنه لا يندفع.

قال: "كان عليّ أن أتصل هاتفياً بأوغونو وانجا-بتيري. ربما حصرَ منعَ تجوُّله. ليس لأني أتوقَّع حدوث متاعب. نحن في وقت ممتاز".

قالت ليندا: "أتعرف ما يقولونه عن إفريقيا، أنت تقطع كل هذه المسافات الطويلة، وعندما تبلغ مقصدك لا تجد ما تفعله. لكن عليّ القول إن من اللطف رؤية المجمّع القديم من جديد".

انفسحت الأرض، وادَّنى الأفق. بعيداً، تمكنهما رؤية التلال شاحبة الزرقة، خفيضةً، تكاد تندمج بالسماء، وعلى المسافة المتوسطة، الجلاميد المستديرة، والمخروطات، متفرقة، غريبة الأشكال، أكثر عتمةً، وخضرةً، لكنها مشوّشة المرأى في السديم الذي يميز هذه الناحية من الكولكتوريت، منطقة الملك.

قالت ليندا: "جلمود الفهد".

"أحد مَشاهدي المفضلة".

"مثل فيلم ويسترت لجون فورد".

"أي عضوٍ في جمعية سينما. بالنسبة لي هي إفريقيا فقط. سيكون

الكثير من الحديث السخيف في المجمّع خلال الأسابيع القليلة المقبلة، والكثير من التعليقات في الصحافة الأجنبية. أعتقدُ أنني لن أهتمَّ كثيراً إن أحسستُ بأن أولئك الناس معْنيّون حقاً ومهتمّون".

"لست أدري إن كنت سأهتمّ. هذا هو الفظيع. لا أعرف ما الذي أعتقده. كل ما أعرفه أنني أريد أن أعود إلى المجمّع".

في ما بعد، والمنظر هو ذاته بالرغم من السرعة، والمسافات تبدو في مكانها باقية، قالت ليندا: "ماذا تظن سبب إطلاقهم تسمية جلمود الفهد؟".

لاحظ بوبي أن صوتها تغيَّر وبدأ يصير غامضاً. لم يُجبْ.

قالت: "رأيتُ مرةً فهداً ميتاً".

ركّز بوبي على الطريق.

"في غرب إفريقيا. لسانٌ أحمر طويلٌ متدلٍّ من بين أسنانه. أردت أن ألمسه حين أدخلوه. لأرى إن كان لا يزال دافئاً. لكن عليك ألاّ تلمسه لأنه مليء بالبراغيث. ثم بدأوا يسلخونه. تماماً تحت الجلد، مثل راقص باليه. بملابس ضيقة.

لن تصدِّق العضلات. كل ذلك يجب أن يُقطع ويُرمى، ويُحرَق بالنار. وفي الصباح حين استيقظتُ فكّرتُ (سأذهب وألقي نظرةً على الفهد)، لقد نسيتُ".

تكلمتْ بطيئةً. لقد بدأت تنصتُ إلى كلماتها هي.

قال بوبي: "لا أعتقد أنهم سوف يسلخون الملك".

"لا أتحمل طريقة تكشير الجنود أولئك. أرأيتَهم يكشّرون؟ لم تكن هنا أيامَ التمرد. ثمانون من رجلال المارينز نُقلوا جواً إلى هنا. ثمانون

فقط، وهؤلاء الجنود المكشِّرون أنفسهم ألقوا بنادقهم ومزَّقوا تلك الأيام راكضين. لم يكونوا سماناً هكذا. كان الحال مسلِّياً في المطار. كلُ من في المجمَّع كان هناك. لكن المارينز لم يلوِّحوا بأيديهم مستجيبين. أولئك الفتيان كانوا يقفزون فقط من الطائرات، والبنادق في أيديهم جاهزة، ويركضون خلال الحشد الهاتف".

قال بوبي: "سمعتُ بذلك. ولا أظن الأفارقة نسوا ذلك بدورهم. لقد وجدوه أقلَّ مَدْعاةً للتسلية. إنه خوفهم الأعظم، منذ البلجيكيين والكونغو. الرجال البيض يهبطون من السماء".

"هذا ما كان سامي كيسيني يقوله لي".

"وهذا ما ظنَّ الكثيرون منهم أن الملك يريده".

"أشعرُ كما شعر العقيد. أشعر بأنني كان عليَّ أن أذهب وأفعل شيئاً لمساعدة الملك. لكني أعرف آنذاك أن هذا سيكون بلا معنى أيضاً".

"تماماً. لا شغلك ولا شغلي. عليهم أن يسوّوا هذه الأشياء بأنفسهم. وكاد هو يفعلها. فلو لم يلتقطوه، لمدة تسعين دقيقة أخرى، أو نحوها، لكان هناك، مجذِّفاً يقطع البحيرة نحو الضفة الأخرى.

"أوه. يا إلهي. تقصد أنهم لا يزالون ينتظرونه عند البحيرة؟ إذاً، ظلوا ينتظرون طيلة الليل. سيكون وقعُ الأخبار على الكولكتوريت فظيعاً".

"أعتقدُ أنهم سيكتمون على الأمر، يوماً أو يومين".

"لا أظنني أريد إثارة الكولكتوريت ثانيةً".

"سلوكٌ مختلفٌ تماماً، بالنسبة لكِ".

قالت ليندا تردّ على الاستفزاز: "طبعاً، فالجنود قد يكونون يعيثون فساداً هناك في هذه اللحظة".

المشهد المنفسح كان يزول. والأرض تتقطع أكثر، مزيد من الأشجار. الطريق يلتوي أكثر.مرّا بقطعٍ مفروزة، بدكاكين وأكواخ: قرية. لكن لا يُرى أحد.

قالت ليندا: "كرهتُ هذا المكان منذ يومي الأول هنا. شعرتُ بأن ليس لي الحق في أن أكون بين هؤلاء الناس. كان الأمر في منتهى اليُسر. جعلوه في منتهى اليُسر لم يكن، إطلاقاً، مثل ما أردتُ".

قال بوبي: "أنتِ تعرفين سبب مجيئكِ".

"أرسلوا جيمي روهنجيري ليستقبلنا في المطار. وكان عليَّ أن أتحدث مدة أربعين ميلاً مع جيمي. الحديث الذي تُديره مع القوم المثقفين. كأنك تلعب الشطرنج مع نفسك: أنت تؤدي كل الحركات. وكلُ ماظللت أراه تلك الأكواخ الصغيرة الفظيعة. كنت أصرخ في داخلي. عرفتُ أن لا شيء حسناً سيَحدث لي هنا. وفي اليوم الأول وضعونا في غرفة قذرة بالثكنة التي يسمّونها دار ضيافة. لم تكن لمارتن نقاط كافية لأي شيء".

قال بوبي: "لم تكوني في أسوأ حال".

"بنتٌ في الغرفة المجاورة كانت تبكي. ولا يزال الوقت عصراً فقط. أخافني هذا حقاً. ولا أظنني أردتُ شيئاً مثل ما أردت المغادرة ذلك اليوم ، والعودة إلى المطار، وركوب أول طائرة تعود بي إلى لندن".

"لِمَ لم تفعلي ذلك؟"

"أنت تخرج في جولة بالسيارة مع سامي كيسيني، تتحدث حديث مثقفين، وترى متوحشاً عارياً ذا قضيب يبلغ القدم طولاً. تتظاهر بأنك

لم تر شيئاً. تشاهد ولدين عاريين مطْليين بالبياض يركضان على الطريق العام، فلا تتحدث عن الموضوع. سامي كيسيني قرأ في المؤتمر ورقة عن الإذاعة.أخذ مقاطع كاملة من ت.س. إليوت، لا من سواه. أنت لا تقول شيئاً عن الأمر. لا تستطيع أن تقول شيئاً. في الظاهر أنت تشجِّع وتشجِّع. وفي المجمَّع، أنت تتكلم وتتكلم. الجميع يكذبُ، حسبُ، يكذب ويكذب".

"تعرفين لماذا جئتِ. لا تستطيعين الشكوى".

"إنها بلادهم. لكنها حياتك. وفي النهاية لا تعرف بمَ تشعر إزاء أي شيء. كلُ ما تعرفة أنك تريد السلامة في المجمّع".

"أنتِ جئتِ طلباً للحرية، مع هذا. وقد تكيّفتِ بسهولة.أتتذكرين؟".

"لا شك في أننا ننظر إلى هذه الأشياء بصورة مختلفة، يا بوبي".

"مع هذا، لا يهم الآن ماذا تعتقدين".

"كل ليلة في المجمّع، تسمعهم يثيرون ضجّةً لا حدَّ لها، وأنت تعرف أنهم يضربون أحداً ما حتى الموت في الخارج. كل أسبوع، هناك قائمة القتلى، وبعضهم حتى بدون أسماء. عليك إمّا أن تنأى بنفسك، أو أن تذهب بينهم والسوطُ في يدك. كلُ حلٍّ وسطٍ مضحكٌ".

"أذاك هو مارتن؟ أم العقيد؟ لا أستطيع متابعتكِ، يا ليندا. كل تلك العطلات الأسبوعية الجميلة في العاصمة، مع تلك النيران الموقدة في الهواء الطلق. كنت أتوقعُ مزيداً. كنت مندهشاً لذوقك، يا ليندا (أنا أتكيّفُ بسهولة)، المسألة تقال بلطفٍ، لكنها ليست غلطة من أحدٍ حين نرى الناس الذين نلقاهم هم مثلنا تماماً. كنتم جميعاً تقرأون الكتب ذاتها. طبعاً نحن نقرأ الكثير. أليس كذلك؟

علينا أن نحفظ أدمغتنا من الصدأ، بين المتوحشين".

"لستَ أنتَ من يتحدث هكذا، يا بوبي".

"أنا ساقط أليس كذلك؟ كان عليك أن تخبريني. لكني فكرتُ بأنك تريدين خادماً لينشر الأخبار. فكرتُ بأنك تريدين شخصاً تهيِّجه صرخاتك في الفراش".

"هذه واحدة من قصص دوريس مارشال الشنيعة".

"دعونا نأتي ببوبي للشهادة. إنه واحدٌ من أصحاب دنيس مارشال". كان يرفع رأسه ويخفضه. "دعونا نأتي ببوبي. بالإمكان فعل أي شيء مع بوبي". (قميصٌ لطيفٌ هذا الذي ترتديه يا بوبي). "الأمر مضحك جداً. لكنك اخترتِ الشخص الغلطَ".

"هذا هراء".

"أهو هراء؟". رفع يده اليمنى من المقود وقرع رأسه: "أنا ألاحظ كل شيء. كلُ شيء هنا".

"دائماً فكرتُ بأنك رومانسي، يا بوبي".

"اخترت الشخصَ الغلطَ".

"وددتُ لو كانت الأمور كما تراها. ما كنتَ تستطيع إنعامَ النظر في أناس المجمَّع".

"تماماً. ليست غلطةً من أحدٍ حين نرى الناس الذين نلقاهم هم مثلنا تماماً".

"لنتوقفْ عن هذا، يا بوبي. أنا أسحب كل شيء".

"أنت تتحدثين عن المتوحشين والسياط".

"أسحبُ ذلك".

"ثمّتَ الكثير من أمثالكِ، يا ليندا. علينا أن نحفظ أدمغتنا من الصدأ. نحن بين متوحشين ونحن بحاجة إلى أنشطتنا الثقافية. نحن بين هؤلاء المتوحشين القذرين جداً وعلينا أن نُذكّر أنفسنا بأنّ لدينا هذا الجمال. هل نستعمل معطّرَ المهبل يومياً؟".

"هذا سخيف".

"هل نستعمله؟ هل نستعمله؟ أي علامة نستعمل؟ البنت الحارّة، البنت الباردة، البنت الطازجة، الطازجة البنت؟ أنتِ لا شيء. أنت لست غير فرْجٍ نتنٍ. ملايين مثلك، ملايين، وسيكون المزيد من الملايين. (أنا جدُّ قابلة للتكيف آملُ في ألاّ يكونوا فعلوا شيئاً للزوجات البائسات). لا أدري من تظنين نفسك.

لماذا تظنين أن ما ترينه حول الأمور، يهمُّ؟".

مالت في مقعدها إلى الخلف ونظرت من نافذتها إلى الخارج. قرية أخرى: أكواخ متداعية مغبرة، خضروات استوائية في الباحة الخلفية، طريق فرعيّ ترابي: مشهد شمس وغبار وأشجار هناك، ثم الغابة بمحاذاة الطريق العام ثانيةً.

"هناك الملايين أمثالك. والملايين أمثال مارتن. أنتما لا شيء".

"أوقف السيارة رجاءً. سأخرج هنا. لا أريد أن أقول المزيد. أوقف السيارة رجاءً".

كبح السيارة، مع صرير على الطريق الساخن. لم يندفع الهواء عبر النوافذ.

كان نبض المحرك كالصمت. الأشجار تلقي ظلالاً جاثية على الخنادق. السماء عالية ساخنة.

قالت ليندا: "كنتَ على حق. لم تكن فكرةً صائبةً".

"أنتِ حمقاء. ستجابهين متاعب".

"أنا حمقاء جداً".

"هذه فكرتكِ. تذكَّري".

"سأدبِّر تدابير أخرى. ربما أجد سيارة أجرة أو شيئاً".

عندما استدارت تفتح الباب رأى ظهر قميصها مبتلاً. وأدرك آنذاك أن قميصه هو مبتلٌّ أيضاً، وأحسَّ بالبرد. وللحظةٍ، وهي تخطو على الطريق، ظهرتْ ليندا كأنها ضائعة لا تعرف الإتجاهات. نظّارتها السوداء تقنِّعُ تعبيرها. عدَّلتْ من هيأتها. وراقبها بوبي تشرع عائدةً إلى القرية التي كانا مرّاً بها للتو.

ناداها: "حقيبتكِ؟".

لم تلتفت. "تستطيع أن تأخذها".

فتح بابه ووقف على الطريق. لازمَهُ الإحساس بالطريق المتحرك. شعر بالدوخة في الهواء الساكن الساخن، لقد عاد ثانيةً إلى ذلك الإحساس بالرأس المثقل الموشك على الانفجار.

"ليندا!".

ظلت تمشي مشيتَها ذات الخطوات النشيطة القصيرة، غاضّة بصرَها، جدّ غريبة على السدَّة العالية للطريق الخالي، عابرةَ المرأى تماماً، ألوان سروالها وقميصها صارت في بغتةٍ، زاهيةً جداً ومرموقة، حتى لكأن اللون الحيويّ عاد أيضاً إلى الطريق والحقول والسماء، وصارت للمشهد تلك النوعية غير الواقعية للصورة الفوتوغرافية الملوّنة.

عاد إلى السيارة، صفقَ الباب يغلقه، ومضى، وهو يحكّ راحتيه الجافّتين على عجلة المقود، متفحصاً الطريق الأسود، شاعراً بالحرارة تأتي من غطاء المحرك، حيث انعكست الشمس في حلقة صغيرة من البريق المخدوش.

بعد دقائق، وهو يحسّ طوال الوقت بالشمس الآفلة، والظلال السود للأشجار، والحقول الفارغة، والسيارة الفارغة، وهدير المحرك والريح، بدأ يشعر بجو الكابوس. العقيد والفندق، الجندي بجانب المجرى العريض، الأولاد البيض يندفعون على الطريق مثل حيوانات بشارةٍ. ويركضون هاربين ببطء، الحركة الصامتة. ليندا على الطريق: كانت الصور واضحة، ذات تعاقُبٍ، لكنها كانت مثل أشياء متخيَّلة.

احتاجَ إلى هدأة النفس، وصار هادئ النفس. والإحساس بالكابوس خفّ إلى عنفه هو، وتوقُّعٍ للخطر. كان وحيداً، كان يستدعي الإنتقامَ. لكنه اندفعَ مسرعاً. كان خطرٌ في نهاية الطريق، خطرٌ في عزلته. لكنه سمح للزمن بأن يمرّ.

قفزت السيارة، وعادت من جديد، بقوّة، على الطريق، ولهنيهةٍ أفلت المقود من يديه. انخسف الطريق هنا. والسطح الإسفلتي الرقيق، الناعم والذائب في شمس ما بعد الظُّهر، صار يعلو وينخفض. إنه جزءٌ من الطريق معروفٌ لدى بوبي. رفع قدمه من دوّاسة البنزين. مطبٌّ آخر، انزلاقٌ آخر، لكنه كان مسيطراً. توقّفَ، ومرّةً أخرى أحسَّ بالصمت، بالنور، بالحرارة.

استدار ليعود القهقرى. كان الطريق خالياً كشأنه من قبل. وعلى القير المبتّل شاهد آثار عجلات سيارته. وفي فزعه، كان الطريق والحقول

مثل أشياء كان يتخيّلها. وقد دُهشَ، وهو يعود، حين وجد أنه رآها بهذا الوضوح، وتذكّرها بهذه التفاصيل. لقد خلّفت سيارته آثاراً واضحةً، طبيعية جداً.

لا أثرلليندا على الطريق العام. والقرية الصغيرة القائمة كلها على جانب واحدٍ من الطريق العام، عند الطريق الترابي، بدتْ مغلقةً مهجورة.

لم يظهر أحدُ حين أطلق بوبي بوق سيارته. الدكانات، أو الدكاكين الثلاثة، وهي تركيبات خشبية متداعية، كان لها لون ساحاتها العاري المغبر. وفي الإعلانات المثبتة بالمسامير على الأبواب المغلقة، وهي ألواحُ صفيحٍ تناهبَ ضوءُ الشمس ألوانَها كلّها سوى الأسود والأصفر الفاتح، امرأةٌ إفريقية ضاحكة ذات غطاءِ رأسٍ كالعمامة ترفع جرّةً لمرهم أكزيما، ورجلٌ إفريقي ضاحك يدخن سيجارة.

انعطف بوبي في الطريق الترابي. وفجأةً تصاعد الغبار. فجأةً صار كل ما يظهر على المرآة غباراً، كثيفاً مزعجاً، مثل دخان أصفر من نارٍ شديدة. أغلق بوبي النوافذ، لكنه وهو يمضي، ماحياً ما كان رآه من دغل وأشجار طويلة وكوخ خشبي فارغ، صار الغبار في السيارة أشدَّ كثافةً. رأى ظُلّةً واسعة من ألواح الحديد المموَّج منتصبةً في ساحة مزبلة، دهون سوداء عتيقة فوق التراب، تليها، خلف شجرتين عجفاوين أو ثلاث، بَنْغَلةٌ بيضاء على قوائم خفيضة، تَمْثُلُ مربَّعةً أزاء شمس ما بعد الظهر.

توقّف بوبي وأنزل نافذته. تحدَّر الغبار بطيئاً حول السيارة. وعندما أطلق بوبي بوق السيارة فتح شابٌّ هندي هزيل باب البنغلة الأمامي. نظر إلى السيارة، وأومأ. تردَّد بوبي. وقف الشابّ في موضعه، بين الشرفة والغرفة الداخلية، وسيطاً حائراً بين بوبي وشخصٍ ما في الداخل.

دخل بوبي البنغلة. الشرفة، وهي شرَكٌ لشمس ما بعد الظهر، وحرارتها تنعكس من الجدران البيض وترتفع من ألواح الأرضية، كانت خالية. وفي غرفة الاستقبال الصغيرة، بين الأزهار الورقية والكتب، والكراسي ذات الأُطر المعدنية المطليّة بالكْروم، والآلهة الهندية من لدائن بلون النحاس، ظهرت ليندا تشرب الشاي. وكانت تعضُّ بأسنانٍ باديةٍ طرفَ فلفلٍ مخلّل.

أهمل بوبي، الهنديَّ متوسط العمر، مُضيفَ ليندا، وقال: "ليس لدينا الآن فائضٌ من الوقت".

قالت ليندا: "أنا أشرب قليلاً من الشاي".

"حسناً. أفترضُ أننا لسنا في منتهى العجلة. أعتقدُ أنني سأشرب أيضاً قليلاً من الشاي".

"نعم، نعم".قال هذا الهنديّ متوسط العمر، وخرج من الغرفة.

لم يتكلم بوبي ولا ليندا ولا الشاب الطويل. كان الجو ساخناً جداً. كانت ليندا حمراء، وبوبي بدأ يتعرَّق. امرأةٌ فتيّة ترتدي الساري أخضر اللون، جاءت بصحن من المخللات، وكوبٍ إضافيّ، وخرجتْ ثانيةً.

قال بوبي بعد أن عاد الرجل المتوسط العمر: "لديكما مكانٌ لطيفٌ".

قال الرجل، جالساً، مؤرجحاً ساقيه من جهة إلى أخرى: "السيدة ماكارتلاند باعت المكان بسرعة حين ذهبت إلى الجنوب. البيت، الأثاث، الكتب، التجارة، كل شيء".

قال بوبي: "كتب لطيفة".

"أتريد قليلاً منها؟". الرجل، وقد هدأت ساقاه، انحنى نحو خزانة الكتب، وسحب عدداً من الكتب بيده اليسرى. "خُذ".

هزَّ بوبي رأسه: "أأنت ذاهب إلى الجنوب، أيضاً؟".

ضحك الرجل، ودفع الكتب إلى موضعها. "أفكر بتجارة الملابس في الولايات المتحدة. أو القاهرة. أنا بدأتُ فتح محلّ عصير فواكه في القاهرة".

"ما ذاك؟".

"هؤلاء المصريون، كما ترى، يشربون كثيراً عصير الفواكه الطازج. ولسوف أذهب حال ما أستطيع إخراج أموالي. أخي الآن هناك بالفعل. إلى أين أنت ذاهبٌ؟".

قال بوبي: "أنا أعيش هنا. أنا موظفٌ حكومي".

بطيئاً توقّفت ساقا الرجل عن التأرجح. ضحكَ.

نهضتْ ليندا: "أظنُّ علينا الذهاب".

ابتسم بوبي واحتسى شايه.

تساءل الرجل بعد حين "هل عرفتَ السيد ماكارتلاند؟".

وقف بوبي: "لم أعرفه".

"مات في ميعة صباه"، قال الرجل، وهو يتبع بوبي وليندا خارجين إلى الباحة والطريق، حيث الغبار لا يزال مقيماً. "كان متسابقاً عظيماً، وقد اعتاد أن يقود سيارته في الصباح الباكر من هنا إلى العاصمة بسرعة مائة ميل في الساعة".

بوبي، وهو يمشي هادئاً، ناظراً إلى السماء، متجاهلاً توديعات الرجل، قال: "هذا ماعلينا أن نفعله الآن كي نصل إلى الكولكتوريت قبل منع التجوُّل".

ركبا السيارة. صعد الهندي إلى شرفته وراقبهما يرجعان إلى الخلف في ساحة المرآب. الغبار بدأ يتلاطم ثانيةً. وعندما مضيا بسيارتهما مبتعدينِ حجبَ الغبار الطريق.

قالت ليندا: "أتصدِّق ان ذلك الرجل قاد سيارته إلى العاصمة بسرعة مائة ميل في الساعة؟".

"هل تصدقين؟".

"أتساءلُ لماذا قال ذلك".

في التقاطع كانت الدكاكين مغلقة فارغة شأنها من قبل. الأفارقة الناصلون على إعلانات الصفيح كشّروا مبتسمين، الظلال استطالت تحت الأفاريز.

انعطفا نحو الطريق العام، وأنزلا نوافذهما. شعّت الشمس منحرفةً خلال الزجاج الأمامي المخدَّش المغبّر. كل ما في السيارة غطّاه الغبار، وعلى لوحة القياسات كانت كل ذرّة غبار تلقي ظلاً متناهياً في الصغر. على القار الناعم، في الجانب الأيمن من الطريق، رأى بوبي أحد الآثار التي خلّفها في عودته إلى القرية. كلُ الآثار الأخرى مُحيتْ تحت وطأة أشكالٍ أكبر. أكثر من مركبةٍ ثقيلة قد عبرت، مُلازمةً بدرجة أو بأخرى جهة اليسار، متجهةً إلى الكولكتوريت.

قاد بوبي سيارته بحذر. وصل ثانيةً إلى المنطقة المنخسفة من الطريق، حيث القار الناعم على الأرض غير الممهدة ارتفع وذاب. ههنا توقَّفَ: لقد ظَلَّ شيءٌ من آثاره حين استدار.

قالت ليندا: "أنحن متأخران جداً؟".

"خسرنا نصف ساعة فقط. لكنني أتصورك سوف تبتسمين لهم بعذوبة، وسوف يقدمون لنا كوباً من الشاي".

الإثنان كلاهما ابتسما، كأنهما حقّقا نصراً على حدٍّ سواء.

في البداية، مع ابتسامات خاصة، ثم بوجهين ثابتين، مضيا خلال الهواء الساخن لما بعد الظهر، وقد بدأت الظلال تسقط على الطريق، منحرفةً نحوهما من اليمين، ولم يهتف أيٌّ منهما، حين شاهدا، فجأةً، جلمود الفهد، ثانيةً، أقربَ الآن وأكبر، نصفه ضوء ونصفه ظل، جدارُه العمودي أقلّ عموديةً، وجهتُه المنحدرةُ المزدهية بالغابة، أكثرُ أثلاماً.

قالت ليندا: "أتصدِّق أنه ذاهبٌ إلى القاهرة حقاً؟".

قال بوبي:"إنه يكذب. الكل يكذب".

ابتسمتْ.

ثم رأت ما كان بوبي يحدِّق إليه في نهاية الطريق: طابور الشاحنات العسكرية التي كانا يتبعان آثار عجلاتها.

9

أبطأ السيرَ.أسرعَ. أبطأ ثانيةً. لا هو ولا ليندا تكلّما.

جلمود الفهد، الناهض من الغابة، هو إلى يمينهما دوماً، وسفحُه الغابيّ في الظل. النبت بجنب الطريق العام تغيَّر هيِّناً، إنه لا يزال خفيضاً، بلا ثمر،لكنه يكتسب خضرةً استوائية زاهية مع المطر. اقتربا أكثر فأكثر من الشاحنات، وهي خمسٌ في طابور، ظلالُها المنحرفة تسقط على الإسفلت وتتراقص على امتداد الحافة غير المنتظمة. أحياناً، من ثغرةٍ في النبت، كان بوبي وليندا يتمكنان من رؤية الأرض الإستوائية الصِّرف وراء جلمود الفهد، منطقة قوم الملك، أرضاً غابيّةً مضاءةً بالشمس، خاليةً كما تبدو، مع قطع متناثرة فقط من سديمٍ أكثر بُنِّيةً، يشير إلى مواضع القرى، في تلك الغابة.

الجنود ذوو القلانس الخضر، الجالسون مع بنادقهم، في مؤخرة الشاحنة الأخيرة، عبسوا إزاء السيارة. وجوه الجنود الذين خلفهم كانت في الظل. ثم رأى بوبي، السائقَ. وجهُه وقلنسوتُه المنعكسان مختضَّين في وضعٍ جانبيٍّ على مرآة جناح العربة، يشكِّلان حدوداً سوداء عديمة الملمح على خلفيةٍ من الوهج. أحياناً حين تطبُّ الشاحنة، أو حين يلتفت لينظر إلى المرآة وإلى بوبي، يستمد الوجه سطوعاً أصفر من الشمس.

وهكذا، ولفترةٍ، مضى بوبي وليندا، محافظينِ على مسافة محدَّدة من الشاحنة الأخيرة. وراء الباب الخلفي، بعلامة الوحدة العسكرية المميِّزة، ظلَّ الجنود عابسين. بصورة متقطعة، شعر بوبي بنظرة السائق، وبين حين وآخر كان ذلك الوجه يشعّ في المرآة.

قالت ليندا: "لو استمررنا على هذا النحو فسوف نكون متأخرين بالتأكيد".

قال بوبي: "التجاوز على هذا الطريق ليس سهلاً، إنه يتعرَّج كثيراً".

مضيَا. والجنود ظلّوا يحدِّقون.

قالت ليندا: "ربما أقلقناهم".

بوبي لم يبتسم.

بلغا امتداداً من الطريق، مستقيماً، وخالياً بصورة جليّة.

أطلق بوبي بوق سيارته، وأسرعَ كي يتجاوز الطابورَ. تنبّه الجنود. بوبي المسرع، صعَّدَ بصره إليهم، ثم أشاح عنهم، بسرعة، وبهرتْه الشمس. شرع يتجاوزهم، مطْلقاً بوقَه. أخذت الشاحنة جانب اليمين. ومرَّت البقع أمام عيني بوبي، أسرعَ أكثر، وهو لا يكاد يكون خارج

الطريق فعلاً. ظلت الشاحنة تلزم جانب اليمين. بوبي يسرع جنب الشاحنة. شعر بعجلات سيارته اليمين تعتلي الحافة. والخندق اقتربَ. كبح السيارةَ، فارتجّتْ وطبّتْ. الشاحنة مضتْ متقدمةً. وتغضنت وجوه الجنود في ابتسامة ٍ وديّة. مرآةُ القمرة عكست ضحكة السائق: فجأةً صار ذا وجه.ثم اختفى ذلك الإنعكاس. كانت السيارة منحرفةً على الحافة. الشاحنة مضت متقدمةً أكثر، وعادت إلى انتظام الطابور. لم تعد وجوه الجنود متمايزة. ذراعٌ ترتدي الخاكي امتدّت من قمرة السائق ولوّحتْ على نحوٍ أخرق، اليد مترجّحةٌ من الرّسغ: إشارة التجاوز.

قالت ليندا: "إن لقيتَ الجيشَ تماوَتْ".

ظَهرُ قميص بوبي مبتلّ. وجهُه بدأ يلتهب. شعر بحرارة المحرك، وغطاءِ المحرك، والزجاج الأمامي. الهواء دافىء. أرضية السيارة دافئة. انبجس العرَقُ من جسمه كله. وخزتْه عنياه، والتصق السروال بقصبة ساقه.

أعاد تشغيل السيارة وأخرجَها من الحافة. ومن جديد تبع آثار عجلات الشاحنات، التي اتخذت أشكال سَحَّابٍ ضخمٍ على الإسفلت الناعم. ساق سيارته بطيئاً، لا يتعدّى خمسة وثلاثين ميلاً في الساعة، ولا يزالان يشاهدان، بين الحين والآخر، الشاحنات. الجلمود تضخَّمَ وقد رقّقَ السديمُ سفحه الغابيَّ ذا الظلال. وصار نور ما بعد الظهر داخناً.

الآن، انفتح الطريق العام وانفسح، ولأميالٍ أمامهما كان مستقيماً مثل طريقٍ رومانيّ، منتقلاً من تلٍّ إلى تل. شاحنات الجيش، الصغيرة في البُعد، صعدتْ، اختفت، ثم شوهدت تصعُد ثانيةً. كانت تدخل منطقة قوم الملك، والطريق العام هنا يتبع درب الغابة القديم. لقرونٍ،

وباستعمال ما تنتجه الغابة فقط، التراب، والقصب، بنى قومُ الملك دروبهم مستقيمةً مثل هذا، على التلال، وعبر المَناقع. من البعيد استطاع بوبي أن يرى البناية الحجرية البيضاء الصغيرة، مركز الشرطة، المنتصب عند حدود منطقة الملك. لكن العلم المرتفع اليوم ليس علَم الملك. لقد كان علمَ بلاد الرئيس.

عند البناية الحجرية حادت الشاحنات عن الطريق، وصار الطريق خالياً من جديد. لكن بوبي لم يُغذّ السير. إذ لا معنى للإسراع، فقد تجاوزت الساعةُ الرابعةَ، ساعة منع التجول. وسرعان ما صار بمقدورهما أن يريا البناية الحديثة المنخفضة الممتدّة، من زجاج وكونكريت ملوّن، لامعين كالخرز، وهي التي بناها الأميركيون في الغابة هديةً للبلد الجديد. كان المقصود بتشييدها أن تكون مدرسةً، تشمل رمزياً، منطقة الملك ومنطقة الرئيس. حظيتْ بالزيارات، لكنها لم تستعمل، ولم يكن فيها تلامذة ومعلمون، لقد ظلّت فارغة. اليوم لها استعمال. المساحة الممهّدة أمامها، وُسِّعتْ، وهي مزدحمة بالشاحنات الآن. وفي ظل الشاحنات مجموعات من جنودٍ سمانٍ.

لا حاجز على الطريق هنا. ولم يُشر إليهما أحدُ بالتوقف. لكن بوبي توقّف: المدرسة، والشاحنات والجنود إلى يساره، والبناية الحجرية التي يرفرف عليها علم الرئيس، عبر الطريق، إلى يمينه. لم ينظر الجنود إلى السيارة. لم يخرج أحدُ من البناية الحجرية. وراء جلمود الفهد أرضُ غابيّة ساطعة تمتد إلى الأفق خلال سديمٍ دخانٍ يزداد عمقاً.

قالت ليندا: "هل ننتظر مجيئهم هنا؟".

بوبي لم يُجب.

قالت ليندا: "ربما لم يكن منع تجولٍ"

أحد الجنود كان ينظر إليهما. كان أقصر من الجنود الذين وقف معهم، قرب الباب الخلفي المفتوح للشاحنة.

كان يشرب من كوب قصدير.

قالت ليندا: "ربما كان ما سمعه العقيد غير صحيح".

قال بوبي: "هكذا؟".

ابتعد الجنديّ عن المجموعة قرب الباب الخلفي، ونفض كوبه، ومشى مبطئاً نحو السيارة. كان حليق الرأس، كشيفاً. سرواله الجاسي مجعَّدٌ تحت بطنه، وأسفل فخذيه الممتلئتين المحتكّتين ببعضهما. مصَّ داخل خدَّيه السمينين ومطَّ شفتيه وبصق، باعتناء، مائلاً إلى جهة كي يدع اللعاب ينشف من شفتيه. ابتسم للسيارة.

ثم شاهد السجناء. كانوا يعتقدون الأرض. بعضهم منبطح، ومعظمهم عراة. عُريُهم هو ما أخفاهم في الشمس والظل بين الدغل والشجيرات والشاحنات. عيونهم اللامعة كانت حيّةً في بشرةٍ سوداء، لكن الحركة بين السجناء قليلة. كانوا قوم قبيلة الملك، الرشيقين، دقيقي العظام، كالحي السواد، ذوي الهندام، بُناةَ الطرق. لكن تلك الكرامة التي تمتعوا بها وهم أحرارُ، قد ذهبت،وهم الآن أهلُ غابةٍ فقط في قبضة أعدائهم. بعضهم كانوا موثوقين بالحبال، ثلاثةً ثلاثةً، أو أربعةً أربعةً كأنهم يساقون إلى النَخّاس. وعليهم، جميعاً، تظهر في لون الكبد،علامات الدم والضرب. واحدٌ أو اثنان كالموتى.

ابتسم الجندي، ويده المبتلة تمسك الكوب المبتل، واقترب من السيارة.

بوبي، وقد تهيّأ بابتسامة، مال على ليندا، محرِّراً بيده اليسرى قميصه البلدي الرطب من إبطه الأيسر، استفسَر: "مَن ضابطُك؟ مَن رئيسُكَ؟".

حوّلت ليندا نظرها من الجندي إلى البناية الحجرية البيضاء والعلم، والجلمود والأرض الغابيّة الداخنة.

ضغط الجندي معدته على باب السيارة واختلطت رائحة بدلته الخاكي الدافئة برائحة العرق من الإبط المفتوح لبوبي وظَهره الأصفر. نظر الجندي إلى بوبي وليندا ونظر في داخل السيارة، وتكلم في نعومةٍ بلغة الغابة المعقدة.

سأله بوبي ثانيةً: "من رئيسك؟".

قالت ليندا: "لنمضِ. إنهم غير معنيِّين بنا. لنمضِ".

أشار بوبي إلى البناية الحجرية: "هل رئيسك هناك؟".

الجندي تكلم ثانيةً، هذه المرة إلى ليندا، بلغته.

قالت منزعجة: "أنا لا أفهم"، ونظرتْ إلى أمام.

تصرَّفَ الجندي كأنه صُفع. ابتسم ابتسامةً غبية، ثم تراجعَ خطوةً عن السيارة. نفض كوبه القصدير. وتوقّفَ عن الإبتسام. قال بنعومة: "لا تفهمين. لا تفهمين". انحدرَ بنظرته إلى هيكل السيارة، الأبواب، العجلات، كالباحث عن شيء. ثم استدار وشرع يعود إلى جماعته.

فتح بوبي الباب، وخرج. كان الجو بارداً، وأحسَّ ببرودة القميصِ ذي العرق على ظهره، لكن القار كان طريّاً تحت قدميه. بمقدوره الآن أن يرى السجناء بوضوح أكثر. بمقدوره أن يرى دخان الأرض الغابية وراء الجلمود. ليس ما يراه سديماً، أو نيران الطبخ لما بعد الظهر، في تلك

الغابة كانت القرى تحترق. الجندي المستاء كان يتحدث مع رفقته. حاول بوبي ألاّ يرى. قالت له غريزته أن يعود إلى السيارة ويقودها إلى المجمَّع بلا توقفٍ. لكنه ضبطَ نفسه. قطع الطريق اللامع، بسرعة، مترجِّحَ اليمين، ودخل في الساحة المتربة والظلِ الذي تلقيه البناية الحجرية، وولجَ الباب المفتوح.

حالما دخل عرف أنه ارتكب غلطةً. لكن فات الأوان على التراجع. ففي الغرفة الباردة المعتمة، مع مناضدها وكراسيها المدفوعة إلى الجدران، والصورة الجديدة للرئيس على لوحة الإعلانات الخضراء بين بيانات قديمة عن الأسعار والضرائب والمجرمين المطلوبين وقوائم أخرى مطبوعة ومستنسخة، في هذه الغرفة، لاضابط، ولاشرطيّ. ثلاثة جنود حليقو الرؤوس كانوا يقتعدون الأرضية الكونكريتية تحت النافذة، وقلانسُهم على ركَبهم. وقفوا جميعاً عندما دخل بوبي.

قال بوبي: "أنا موظف حكوميّ".

قال أحد الجنود: "سيدي!"، ووقفوا جميعاً في وضع الاستعداد.

"مَن ضابطكم؟ مَن رئيسكم؟".

لم يجيبوا، ولم يعرف بوبي كيف يستمر، بعد بدايته الناجحة. لاحظوا تردده، فلم يعودوا عصبيّي المزاج. استراحوا. وصارت وجوهُهم ملأى بالتساؤل.

قال الجندي الذي في الوسط: "لا رئيس".

شعر بوبي أنه استعمل الكلمة الغلط. نظر من الجندي الذي في الوسط إلى الجندي الذي على اليمين، أكثر الثلاثة سمنةً، وهو من قال له "سيدي".

"أأنت من يسمح بالمرور هنا؟".

انتفخ خداّ الجندي السمين حتى عينيه الصغيرتين المترقرقتين. أشار بيمناه، بطيئاً، أمام وجهه، باسطاً راحته لبوبي.

قال الجندي الذي في الوسط: "لا مرور".

نظر بوبي إليه: "السيد وانجا-بتيري هو رئيسي". وضع، مبتسماً يديه أمامه مُلمِّحاً إلى كرش كبير، وتظاهر بالترنح تحت الثقل.

"السيد بوسوغا-كيسورو هو رئيسي الكبير".

لم يبتسموا.

"بوسوغا-كيسوروا"، قال الجندي السمين، متفحِّصاً وجه بوبي، محركاً خدَّيه وشفتيه كأنه يجمع بصاقاً. "بوسوغا-كيسوروا".

قال بوبي: "ليس عندكم منع تجول؟".

قال الجندي السمين: "منع تجوُّل".

قال الجندي في الوسط: "منع تجول".

"في أي وقت لديكم منع تجول؟ الساعة الرابعة، الخامسة، السادسة؟".

قال الجندي السمين: "الساعة الخامسة. الساعة السادسة".

قال الجندي السمين ممسكاً برسغ بوبي: "أنت تعطيني؟".

بَشرةٌ سوداء فوق ورديةٍ: نظروا جميعاً.

حركَ الجندي السمين إبهامه على محيط الساعة. كانت عيناه ودّيتين انثويتين. خداه وشفتاه شرعت تتحرك ثانيةً.

فتح الجندي في الوسط، أزرار جيب سترته، وأخرج علبة سجائر منسحقة نصف فارغة. كانت من العلامة التي يدخنها الإفريقي الضاحك في الإعلان.

في الخارج، كانت الشاحنات تهدر. ثمت كلامٌ عالٍ وصياح. الجزمات تَصِرُّ على الإسفلت، أبوابُ القَمْرات تنصفق. تحركت الشاحنات مبتعدةً، بطيئةً.

قال بوبي: "لا أعطيك. ليس لديّ مزيدٌ".

لقد أطلقَ مزحةً. ضحكوا جميعاً.

قال الجندي السمين: "ليس لديك المزيد". وتركَ رسغ بوبي.

قال بوبي: "أذهبُ".

سار نحو الباب. لمح الطريق المغمور بالشمس، والساحة المتربة ذات الظل المنحرف، ومقدمة سيارته التي تناثرت عليها الحشرات.

"يا ولد!".

توقّفَ، كانت غلطته. استدار ملتفتاً ليواجه الغرفة المعتمة.

الجندي في الوسط هو الذي تكلم. كان يمسك بسجارة غير مشتعلة جدّ بيضاء، بين وُسطاه وإبهامه.

"أنا أعطيك سجارة، يا ولد".

قال بوبي: "أنا لا أدخن".

"أنا أعطيك. تعال. أنا أعطيك".

وسار بوبي من الباب والسطوع نحو الجنود، مفضِّلاً أن يَحْدث ما سوف يحدث، هنا، في الغرفة المعتمة، لا في الخارج، أمام الآخرين.

كانت يد الجنديّ لا تزال ممتدّة، مفتوحة، والراحةُ إلى أسفل، والسجارة معلّقة بين الوسطى والإبهام. ثم افترق الإصبعان، وسقطت السجارة، وفي حركة افتراق الإصبعين ذاتها، جاءت الراحة على وجه بوبي، لتلمسه فقط كما يبدو، لكنها وقعتْ شديدةً على حنِكه. واليد الأخرى امتدتْ تمزِّق القميص البلدي الأصفر.

قال بوبي متراجعاً إلى الخلف: "سأقدِّم تقريراً عنك. سأقدِّم تقريراً عنك".

الجنود الآخرون كانوا خلفه، ليسندوه حين سقط، وليمسكوا ذراعيه ويلووهما بأيدٍ مجرّبة، وبدا آنذاك أن الجندي الذي يواجهه جُنَّ، لا بسبب كلامه، وإنما لصوت القميص الممزّق ومَرآه. ظلَّ يمزق القميص والفانيلة التي تليه، وبيده اليمنى التي كانت ممسكة بالسيجارة صار يخمش بغضبٍ أخرق، وجه بوبي، كأنه يريد أن يمسكه، بالأنف، والحنك والخدين، فقط.

قال بوبي: "سأقدِّم عنك تقرير".

لُويتْ ذراعاه أشدَّ، وأسقط إلى أمام، وحين صار على الأرضية الكونكريتية، وأحسَّ بالجزمات تركله على الظهر والرقبة والفكّ، رأى مندهشاً أن سيقان الجنديين كانت ثابتة تماماً. كان الجندي السمين، المزمجر حين قعد، ببدلته الخاكي الضيقة، هو الآن جنبه، يمسك بشَعره، ويضرب رأسه على الأرض، حاكّاً وجهه بشدّة على الأرضية، من هذه الجهة حيناً، ومن الجهة الثانية حيناً آخر. عرف بوبي أن جِلده يتسلّخ، لكنه لم يزل يلاحظ أن الجنود الآخرين ظلوا حيث هم.

فكَّر في البداية، أن الجندي ذا السيجارة أراد فقط أن يُذلَّه، ويُعَرِّيه، ويشوِّهه، وقد فهمَ الأمرَ نصفَ فهمٍ، وتعاطفَ نصف تعاطُف.

لكنهم مضوا أبعد من اللازم، وأحسَّ أن الجندي السمين الذي طلب الساعةَ، مصممٌ على القتل. فكَّرَ: يجب أن أحمي نفسي. يجب أن أتماوت.

ملقىً على صدره، جعل نفسه ثقيلاً، وذراعُه اليمين جامدةٌ على جهة رأسه. الجزمات تركل أضلاعَه، معدتَه، تركل وتدوس. حاول بوبي ألاّ

يتحرك، ولم يعتقد أنه تحرَّك. كان النشير الناعم لجصّ الأرضية يلتصق بجلده الرطب. لم يفتح عينيه، مخافة أنه ربما فقدَ البصرَ. ثم شعر بالجزمة قاسيةً على رسغه. شعر برسغه يفقد الإحساس، شعر بالورم يأتي. ثم، هاهو ذا على الطريق ثانيةً، في مشهدٍ ساطعٍ، وهو عصبيٌ المزاج بسبب سرعته، وآثار عجلاته، والطريق المبتلّ المتدحرج.

استفاق. فكَّر أنه سيفتح عينيه.وجهه كلُّه ملتهبٌ. باستطاعته أن يبصر. باستطاعته رؤية أنه لم يعد في الغرفة المعتمة أرجلٌ خاكيّة. تلبَّثَ ليتأكد. شعر بضرورة العمل فوراً ما دام صافي الذهن، متمتعاً بقوّته المستعادة. نهض واقفاً معتمداً على رسغه. كان نسي ذلك الجرح فتذكَّرَه الآن. استقام في وقفته لم ينظر إلى نفسه. وفي خَطوهِ تذكَّر أن ينظر إلى الأرض. لكنه لم ير السيجارة التي رماها الجندي.

النور أشدُّ صفرةً. والظلال انتشرت وصارت أقلَّ حدّةً. مزيد من الغبار والدخان. والشمس تجلّت على الزجاج الأمامي لشاحنة، وعلى نافذة من نوافذ المدرسة. الجنود أقعوا أو أجلسوا حول نيران صغيرة من فروع الشجر. يأكلون من صحون قصدير، ويشربون من أكواب قصدير، غير متعجلين، دائبين، عيونُهم وأصواتُهم مزهوّة ببهجة الطعام: أهلُ الغابة، ملوك الغابة في مختتَم يومٍ موفَّقٍ آخر. وعلى مبعدة يسيرةٍ، وراءهم، امتدَّ على الأرض، السجناءُ السود الموثقون بالحبال، ولم يتحركوا.

جندي رأى بوبي، وحدَّقَ إليه. التمعت عينا الجنديّ. وبدون أن يدير رأسه تكلَّم مع مَن بجانبه، فنظرَ الجمعُ كله. وضع بوبي يديه إلى جنبيه ووقف في مدخل الباب كي يتفحّصوه. شرع يمشي نحو السيارة، التي

ظلّت حيث خلّفها، مكشوفةً تماماً على الطريق المفتوح، وعجلاتُها غائصة قليلاً في الإسفلت. الجنود عادوا إلى مأكلهم.

مالت ليندا، وهي لا تزال في مقعدها، كي تفتح الباب. لم يجيء أحدٌ إلى السيارة. المحرّك استجابَ. أراحَ بوبي يده اليمنى على المقود. لم يمنعه أحدٌ من المغادرة. الجانبُ شبه المتعامد من جلمود الفهد كان في لون الذهب أيضاً، جانبُ الظلال كان غائمَ المرأى، والغابة على منحدراته السفلى هي الآن مثل جزءٍ من الدّغل المحيط.

على بعد أربعمائة يارة أو خمسمائة، فوق حافة التل، بلغا حاجز الطريق. الجندي ذو البندقية، ووجهُه أسود فقط تحت قلنسوته، أشار إليهما بالتلويحة الإفريقية الخرقاء المرفرفة كي يبطئا. لكن حتى قبل أن يتوقفا أشار إليهما بالمرور الرجل ذو القميص المزهر والسروال الأسود والشّعرِ على الطريقة الإنجليزية، وكان على الجانب الآخر من الطريق.

دخل بوبي وخرج عبر الحواجز البيض، ثم، ببطءٍ، عبر المركبات المتوقفة على الجانب الآخر من الطريق، وهي مركباتٌ قادمة من الكولكتوريت: حافلات الأجرة البيجو، الحافلات الصغيرة المعطلة، والسيارات الإفريقية. المسافرون كانوا على حافة الطريق. بعضهم يرفع أوراق فولسكاب مستنسخة، جوازات مرورهم، لكن الآخرين، اقتعدوا، منذ الآن، الأرض وتمدّدوا على العشب، أنصاف عراة، ممزّقي الثياب؛ والجنود بكامل قيافتهم يتحركون بينهم. بضعُ نسوةٍ إفريقيات كن في أزياء إدواردية. هكذا كان المبشرون الأوائل يلبسون حين ظهروا بين قوم الملك، ومُذّاك، لكن بأقمشة إفريقية الطراز، ظلت نساء قوم الملك يلبسن في المناسبات الرسمية، أو كلما ذهبن في رحلة طويلة.

استمرَّ الطريق مستقيماً، من قمة تل إلى قمة تل، شريطاً من الإسفلت مستعرضاً، خلال الغابة.

قالت ليندا: "لنتوقفْ قليلاً، يا بوبي".

توقّفَ هكذا على الطريق.

حاولتْ أن تنفض شعره، وتمسِّد خِرَقَ قميصه الأصفر. ليس بمقدورها أن تفعل غير هذا. لم يسمح لها بأن تلمس وجهه.

قالت: "ساعتُك مكسورة".

أغمض بوبي عينيه المثقلتين، وفكّر في تلك العتمة، بحزنٍ مفاجىءٍ عابرٍ إزاءها، التي عانت الكثير أيضاً: لكنّ هاتين هما يدا ممرِّضة.

فتح عينيه ورأى الطريق. مضيا. السماء فوقهما داكنه الزرقة، والضوء أخذ يأفل. الغابة الزّغباء تتوهج حيث تحترق قرى الملك.

كانوا قوماً عاشوا، معرَّضين الآن وعُزّلاً، في قرى على امتداد دروبهم المستقيمةالقديمة: الدروب التي نشرت سلطانَهم باعتبارهم فاتحي غابة، حتى جاء المستكشفون الأوائل. كانت القرى متجاورة، وكان الطريق الرئيس مزدحماً، في العادة، بالمشاة وراكبي الدراجات الهوائية. لكن الطريق خالٍ الآن، والقرى التي مرّا بها كانت خاوية، ميتة، محترقة. القرى الملتهبة كانت على الدروب الترابية المتفرعة من الطريق الرئيس.

قالت ليندا: "أتساءلُ إن كانوا أحرقوا المجمّع".

لكن، ليس من وجهةٍ أخرى يمضيان إليها.

انخفض الطريق، فغاب عنهما مشهد القرى المحترقة. كان الدغل عالياً مظلماً في هذا المنخفَض. لقد ولجا غابةً، والطريق وهو قَطْعٌ

مستقيمٌ أسود، انعطفَ بعيداً بين جدران غابة، صاعداً هابطاً، ثم ممتداً إلى أفقٍ عالٍ. الوجَعُ في رُسغ بوبي، وعيناه تَثقلان. ثم دخل في عاصفة بيضاء. مثل نديفِ ثلجٍ جاءت من الغابة، فراشاتُ، بيضاء، على الإسفلت، على العشب، على جذوع الشجر، في الهواء، ملايين وملايين من الفَراش الأبيض، تخفق آتيةً من الغابة. والعاصفةُ لم تتوقف. كان الفَراش ينسحق تحت عجلات السيارة، يمسُّ غطاء المحرك ويرفرف على المعدن الساخن ويموت؛ التصقَ الفَراش بالزجاج الأمامي.

ليندا شغّلت الغاسل، والماسحتين.

ارتفع الطريق. والفَراشُ توقَّف فجأةً مثل ما بدأ. الغابة انتهتْ. والسماء في الأعالي أمست ذات زرقة أشد دُكنةً. في البعد شاهدا القرى تحترق حول البلدة الصغيرة، وتتبدّى في الغسق الداهمِ مثل قليلٍ من خطوط الأنوار المتكسرة.

قال بوبي: "أظنُّ شيئاً أصاب رسغي".

"وددتُ لو أستطيع السياقة".

سمعَ الفزعَ في صوت ليندا، فلم يهتمّ. استمر الطريق فارغاً. والقرى التي مرّا بها أخرجتْ أحشاءها. أكواخ الطين والعشب المنهارة قد تُعتبر جزءاً من الغابة، أمّا الحديدُ المموَّجُ فإنه يصنع خرائب. هنا وهناك عاد أطفالٌ ونسوة إلى الخرائب، النسوة ممتلئات على طريقة نساء قوم الملك ويبدون مبالِغات في الملبس بثيابهنّ الإدواردية.

السيارة انقادت بنفسها. ولم يندهش بوبي، لأن النسوة ذوات الوجوه اللامعة إعياءً، وهن يتبعن الأضواء الأمامية للسيارة فقط، موجودات حيث كنّ، أو أن في المنطقة الصناعية الصغيرة خارج البلدة لا

تزال الكهرباء واللافتات المضاءة، أو أن الظلام مطْبقٌ لا محالة على قصر الملك ذي الإضاءة الشاحبة خلف أسواره العالية المضاعفة.

الأسوارُ اقتُحمتْ. وفي الداخل، الدّمار: شاحنات. جنود. نيران مخيّمٍ. إلى هذا الموقع القديم، منذ أقل من مائة سنة، جاء المستكشفون الأوائل بأخبارِ عالمٍ وراء الغابة. الآن يشهد الموقع خرابه الحقيقي الأول، وهو القصر الذي بُني معظمه في العشرينيات، أول قصر شُيِّد بمواد أقلّ زوالاً من القصب والعشب.

بين القصر والبلدة الكولونيالية كانت منطقة مفتوحة غير محددة الصفة: محطة قوافل، مَكبّ نفايات، مرعى، ساحة سوق، بلدة أكواخ. أضواء قليلة هناك، مستودعات جملة، أضواء مرور:علامات الطريق صارت معقدة. شاحنات عسكرية وسيارات جيب تقف في بعض التقاطعات. أحياناً تلتقط أضواء قليلة هناك، مستودعات جملة، أضواء مرور: علامات الطريق صارت معقدة. شاحنات عسكرية وسيارات جيب تقف في بعض التقاطعات. أحياناً تلتقط الأضواء الأمامية القلنسوة الخضراء والوجه المشعّ لجندي مبهور. لكن لم تمتدّ يدٌ خرقاء لتوقف بوبي. وفي الشارع الرئيس، حيث ست بنايات كونكريتية ذات ثلاثة طوابق أو أربعة تعلو فوق المشيَّدات الخشبية الأولى للمستوطنة الهندية-الإنجليزية، نُهبتْ بعض مخازن الأثاث الهندية. لكن معظم المخازن سليمة وقد سُمِّرتْ عليها الألواح.

بعد الشارع الرئيس تنفتح البلدة ثانيةً: حديقة عامة، في الجهة المقابلة للمنطقة السكنية الرئيسية ذات الأضواء المتفرقة، مستديرة، مع جنود، ثم إلى الأمام، خارج البلدة ثانية، وداخل العتمة ثانيةً، باتجاه

السماء المتوهجة، منطقة إفريقية بلا صفة، بيوت وأكواخ وحنفيات ماء عمودية، وساحات تصليح سيارات ذات شاحنات معطّلة، دكاكين وبَسطات، وقطع أرض خلفية للخضروات، على امتداد الطريق إلى المجمّع. هذا الطريق مزدحمٌ عادةً، وهو خطِرٌ في هذا الوقت من المساء بسبب السكارى والأفارقة القادمين من أعماق الغابة الذين لم يتعلموا، بعدُ، تقدير سرعة السيارات.

الطريق خالٍ الآن. لكنه وعرٌ، متحفّر بعد الأمطار، وذو مطبّات بسبب الإسفلت الذي ذاب وسال وتصلّبَ. وفي كل مطبٍّ كان بوبي يزداد وهنَاً.

الأشجار تحجب المجمّع عن الطريق.وفي آخر ممشى السيارة القصير، يشتعل مصباحان خابيان على عمودي البوابة الحديد. البوابة كانت مغلقة، والحاجز الأحمر والأبيض هابطٌ. توقّف بوبي. شعَّ مصباحٌ يدويّ قرب وجهه، وشاهد خارج الضوء بالضبط، شاحناتٍ وجنوداً.

تلاعبَ المصباح اليدوي على الزجاج الأمامي للسيارة، الملطخ بالبقايا الصفراء-البيضاء للفراشات المنعجنة، ثم استقرَّ على جواز المرور إلى المجمّع، الملصق من الداخل.

"بوسوا اي بيفيني. مسيه. مَيم".*

كان أحد حرّاس المجمّع، يقدم ترحيبه الضاحك باللغة الدارجة التي يتميز بها ويفتخر. لم يكن من قوم الملك، ولا من قوم الرئيس. لقد جاء من بلاد أخرى، وهو في الكولكتوريت محايد، متفرج، آمِنٌ مثل المجمّع الذي يحرسه.

* تحريف لتحية باللغة الفرنسية: مساء الخير، ومرحباً، سيدي، سيدتي.

المجمّع آمنٌ. والجنود كانوا هناك لحمايته. الحاجز الخشبي ارتفع، وركض الحارس ببدلته الحمراء-الزرقاء عتيقة الطراز، كي يفتح البوابة، كأنه متلهفٌ على إظهار حرصه وسلطة مخدوميه، أمام الجنود الذين يراقِبون. دفع نصف البوابة إلى الداخل وأمسك بها مفتوحةً، ورفع يده بالتحية حين مرّت السيارة، ثم ركض مع البوابة، ثانيةً، ليغلقها.

خارطة طرق المجمّع الكبيرة، كانت مضاءة. والشوارع ذات العلامات الدقيقة، المتعرجة بصورة مصطنعة خلال أراضي المجمّع، مضاءة جيداً. ضوءالفلورسنت يسقط على الأسيجة والحدائق. والنوافذ المفتوحة للبنغلات والشقق تُظهر ملابسَ لحاءٍ ومصنوعاتِ قشٍّ على الجدران. رسوم إفريقية، رفوف كتب. النادي الصغير كان مزدحماً.

قالت ليندا: "كيف رسغُكَ؟".

بوبي لم يُجبْ. كان صوت ليندا أرقَّ. أنشطَ. بإمكانه القول إن فزعها زال. المجمَّعُ مَرْبَعُها. ولديها أخبار.

بصورة متقطعة، خلال الليل، استيقظ بوبي من السياقة. وأخطار الطريق المشتتة، على راحة الضمادات. ومع انكشاف النور بدأ ينتظر لوقا، خادمه. استيقظ على المذياعات من منازل الخدم. ثم أيقظه وقع خُطى لوقا العارية الخفيفة في الغرفة المجاورة. ثمت إثمٌ في هذه الخطّة والرشاقة، وعندما دخل لوقا غرفة النوم على أطراف أصابعه، وسرواله الخاكي المنكمش عالقٌ في المنفرَج، وعالٍ على ركبتيه الصغيرتين، عرف بوبي من رهافة خطواته ومن قميصه المكرمش الأبيض، أن لوقا كان يسكر، وأنه نام بثيابه.

سحب لوقا الستائر، وقال بصوته الثقيل المخمور: "ثوبٌ أزرق، للحديقة، هذا الصباح". كانت تلك إحدى أمازيحهما المشتركة الخاصة، عن زوجةٍ في المجمّع، أميركية، حديثة الوصول، ظلت لعدة أسابيع تظهر مرتديةً الثوب الأزرق نفسه.

ثم التفت لوقا ورأى بوبي. وقف حيث كان، ومطّ شفتيه شديداً. كان لوقا من قوم الملك، وقد جاء من إحدى القرى القريبة، وعرف أساليب جيش الرئيس. حدَّقتْ عيناه الحمراوان. اتّسع منخراه، وارتعش وجهه الطويل النحيل. نَخَرَ، وانفتحت شفتاه المزمومتان. وبشخرةٍ، وضربات صغيرة بقدمه اليمنى، بدأ يضحك.

بعد ذلك، ولا يزال في خفّته، لكن بدون رهافة، متحركاً كأنه وحيدٌ، غير مراقَبٍ، لملمَ ملابس سفر بوبي.

فكّر بوبي: عليّ الرحيل. لكن المجمّع كان آمناً. والجنود يحرسون البوابة. فكّر بوبي: عليّ أن أطرد لوقا.

مختتَم من يوميات

السِّيرك في الأقصُر

THE CIRCUS AT LUXOR

كنتُ مسافراً إلى مصر، بالطائرة هذه المرة، وقطعتُ سفرتي في ميلانو. فعلتُ هذا لأسباب تتعلق بالشُّغل. لكن اسبوع عيد الميلاد ليس وقتاً للشغل، وكان عليَّ أن أظل في ميلانو طيلة أيام العيد. كان الطقس رديئاً، والفندق فارغاً وموحشاً.

ذات عشيّة، وأنا عائد إلى الفندق تحت المطر، بعد عشاءٍ في مطعم، رأيتُ رجلين صينيين يرتديان بدلتين داكنتي الزرقة يخرجان من مقصف الفندق. قلت في نفسي إننا آسيويون ثلاثة، نجوب أوروبا الصناعية. لكنهما لم ينظرا إليّ. كان لديهما رفقةٌ: ثلاثة صينيين آخرين خرجوا من المقصف، شابّان ببدلتين، وفتاة طريّة الملامح ترتدي سترة ذات أزهار وسروالاً فضفاضاً. ثم خرجَ خمسة صينيين، شبان وشابّات في منتهى العافية، ثم حوالي عشرة بعد ذلك عجزتُ عن العَدّ. تدفّق الصينيون خارجين من المقصف، وداروا في البهو الواسع المفروش بالسجاد قبل أن يتحركوا في جمعٍ بطيءٍ خافت الكلام ليرتقوا الدّرج.

ربما بلغ عدد الصينيين المائة. إذ اقتضى الأمر دقائق قبل أن يخلو البهو. النادلون وبأيديهم مناديل الخدمة، وقفوا عند باب المقصف يراقبون، كمن استطاعوا أخيراً أن يتبينوا أمراً مدهشاً. صينيان آخران خرجا من المقصف، وكانا الختام. إنهما قصيران، متقدمان في السنّ، مغضّنان، معروقان، يرتدي كلاهما نظّارات أحدهما يحمل حافظة نقود سمينة في يده الصغيرة، بطريقة مضحكة، كأن المسؤولية جعلته عصبياً: عدّل النادلون وقفتهم منتصبين.

الصينيّ الشيخ ذو الحافظة، حائراً في أوراق العملة الإيطالية، وبلا تصنُّع، دفع لكل نادلٍ مكافأةً وصافحه ثم انحنى الصينيان كلاهما ودخلا المصعد. وأمسى بهو الفندق موحشاً من جديد. قال موظف الإستقبال ذو البدلة الداكنة، متأففاً كالنادلين: إنهم السيرك، جاؤوا من الصين الحمراء.

*

غادرت ميلانو تحت الثلج. وفي القاهرة، في الأزقة خلف فندقي، كان الصغار ذوو الجلابيات الوسخة، المنهكون من الصيام، يلعبون كرة القدم في التراب الساخن الأبيض. في المقاهي التي أمست أشد رثاثةً مما أتذكر، كان رجال الأعمال اليونانيون واللبنانيون ذوو البدلات، يقرأون الصحف المحلية الصادرة بالفرنسية والإنجليزية ويتحدثون بانفعال مكظوم عن صفقات ممكنة في تبغ روديسيا، بعد أن حُرِّم الآن. المتحف مازال مكتظاً بأدلاّء مصريين مزودين بمعرفة محلية فقط. وعلى الشاطئ الآخر للنيل ارتفع فندق هيلتون جديد.

لكن لمصر ثورتها حتى اليوم. أسماء الشوارع الآن هي باللغة العربية حسبُ والباعة في أكشاك السجائر يردّون بحدّة، كما لو تعرّضوا لإهانةٍ، إن طلبتَ منهم سجائر مصرية*. وفي محطة السكة الحديد، حين ذهبت لأسافر جنوباً بالقطار كان ما يُذكِّر بالحروب التي جاءت مع الثورة. جنودٌ لوَّحتْهم الشمس، عائدون من الواجب في سيناء، يقتعدون أرضية غرفة الانتظار ويتمددون عليها. هؤلاء الرجال ذوو الوجوه المنكمشة هم حرّاس الوطن والثورة. لكنهم بالنسبة للمصريين ليسوا سوى جنودٍ عاديين، فلأحين عانوا من إهمالٍ أقدم عهداً وأعمق جذوراً من الثورة. عبر نوافذ القطار، وطوال النهار، كانت أرض الفلاحين تُطوى: النهر الموحل، الحقول الخضر،

* المقصود سجائر حشيشة.

الصحراء، الطين الأسود، الشادوف، والبدلات المتداعية، ذات السقوف المستوية، ولون الغبار: مصر كتاب الجغرافيا المدرسي. الغروب في سماءٍ داخنةٍ، الأرض شائخة. كان الظلام هبط حين نزلتُ من القطار في الأقصُر. ذلك المساء، في ما بعد، ذهبت إلى معبد الكرنك. إنها طريقة حسنةٌ لرؤيته أول مرة بمنجاة. مما يضيق به المرء في مصر: تلك الأعمدة الباذخة، العتيقة في أزمنة عتيقة، التي أعلى بناءَها رجالُ وادي النيل هذا.

*

لم تكن في مصر، ذلك العام، نقودٌ معدنيةٌ. هناك عملةٌ ورقيةٌ فقط. كل العملات الأجنبية خرجت بعيداً، والأقصُر الذي كان في أيام الإستعمار منجعاً شتوياً ذا شأن، تكيَّفَ لاستقبال سوّاحٍ أبسط. في فندق قصر الشتاء القديم حيث ينتصب في الممرات خدمٌ نوبيون يرتدون عباءات بيضاً طويلة، أخبروني أنهم سيُسكنونني في الغرفة التي اعتادوا أن يُسكنوا فيها الآغا خان. كانت غرفة بالغة السعة، بالغة التأثيث بطريقة قديمة مبهجة. وثمت شرفة، وإطلالة على النيل، وعلى تلال الصحراء المتطامنة في الضفة الأخرى، في تلك التلال كانت المقابر. لم تكن كلُّها للملوك حسبُ، ولا كانت كلها ذات مهابة. الفنان القديم كان يسجل حياة شخص أقلّ شأناً، يسجل بيدٍ أكثر حريةً مباهج تلك الحياة: مباهج النهر، المليء بالسمك والطير، مباهج المأكل والمشرب. لقد دُرست الأرض، وصُنِّفَ كل ما فيها، وصُمِّمَ في هيأة. إنها الرؤية الخاصة لأناسٍ لم يعرفوا أرضاً أخرى، ورأوا أرضهم بهذا الغنى والكمال. النيلُ الموحل كان ماءً فقط. أما في الرسوم فهو شارة خضراء زرقاء نتبيّنه، لكنه في المنتأى، نهرٌ في أرض خرافة.

يمكن أن تكون الحرارة عالية في المقابر. الدليل، وهو نفسه حارس الآثار أحياناً، يزحف، ويثرثر باللغة العربية، ليكسب قروشه الورقية،

مشيراً إلى كل رمز للربّة حاطور، ماسحاً بإصبعٍ خشنةٍ الرسومَ التي يُفترَض فيه أن يحافظ عليها. خارج المقابر، بعد العتمة والرؤى الساطعة للماضي، ليس سوى الرمل الأبيض الموطأ، وضوء الشمس المصعوق، والصبيان المتسولين ذوي الجلابيات أحياناً.

هؤلاء الصبيان، الذين ينطّون بصورة متوقَّعة من الصخر والرمل حين يقترب الناس، أراهم مثل نوعٍ من حيوان الرمل. لكن سائقي كان يعرف عدداً منهم بالأسماء، وعندما يُبعدهم كان يفعل ذلك بإشارةٍ متساهلة تعني في ما تعنيه، تلويحةً ما. كان السائق، شابّاً، ومن الصحراء، ولا شك في أنه كان صبياً ذا جلابيةٍ في أحد الأيام. لكنه ترعرع مختلفاً. إنه يرتدي البنطلون والقميص، ويعتدُّ بحُسن ملامحه. كان ثقةً، أميناً، متخلصاً من "لخبطة" دليل الصحراء. لكنه تعلّمَ في الصحراء، السأم. إنه يفكر دوماً بالقاهرة، وبعملٍ حقيقيّ. لقد سئم الآثارَ والسوّاح، ورتابة السياحة.

كنتُ أُمضي ذلك النهار كله في الصحراء. والآن حان وقت الغداء.

لديّ علبة غداء من "قصر الشتاء"، وكنت رأيت في موضعٍ ما بالصحراء، دار الاستراحة الحكومية الجديدة، حيث بمقدور السوّاح الجلوس إلى طاولات وتناول شطائرهم وطلب القهوة. حسبت أن السائق سيأخذني إلى هناك. لكننا ذهبنا عبر مسالك غير مألوفة إلى واحة صغيرة ذات نخل وكوخ واسع من اللّوح اليبيس. لم يكن في الواحة الصغيرة، سيارات، ولا حافلات صغيرة، ولا سوّاح.

كان فيها شغيلةٌ مصريون قلقون فقط ذوو لباس خشن. لم أرغب في البقاء. بدا على السائق أنه يحاول المجادلة، لكنه كان سأمانَ حسبُ. مضى بالسيارة إلى دار الاستراحة الجديدة، أنزلني، وقال إنه سيعود في ما بعد.

دار الاستراحة كانت مزدحمة. سوّاح ذوو نظارات شمسية يستكشفون

علب الورق المقوّى لغدائهم، ويشرثرون بلغات أوربية شتّى. جلستُ إلى طاولة مع شابين ألمانيين في الشرفة. مصريّ نحيل في منتصف العمر يتحرك بين الطاولات ويقدم القهوة. كان في مَحْزَمه سوطُ جَمل، ورأيت، لكن ببطء، إن الرمل حول دار الاستراحة ينبض بأطفال الصحراء. كانت الصحراء نظيفة، والهواء نظيفاً. هؤلاء الأطفال كانوا وسخين جداً.

دار الإستراحة ممنوعة عليهم. وعندما يقتربون، تحت إغراء شطيرة أو تفاحة كان الرجل ذو سوط الجمل يطلق صيحة تخويف جمل. وأحياناً كان يجري بينهم، ضارباً الرمل بسوطه، فيتفرقون فزعين، سيقاناً نَعَّمها الرمل، وجلابيات خافقةٍ لا ملامة على السوّاح الذين عرضوا الطعام. اللعبة المصرية بقواعد مصرية.

لم يزعج الأمر أحداً. الشابان الألمانيان عند طاولتي لم ينتبها. الطلبة الإنجليز داخل دار الإستراحة، خلف الزجاج، كانوا يتنافسون في حديثهم عن كارتر ولورد كارنارفون. لكن فوج السوّاح الإيطاليين متوسطي الأعمار، فهموا قواعد اللعبة، واشتركوا فيها. قذفوا تفاحات وجعلوا الأطفال يركضون بعيداً. وبمهارة وخبرةٍ، قسموا الشطائر وقذفوا بقطعها إلى الرمل، وجعلوا الأطفال يقتربون كثيراً من المكان. وفجأةً اهتاج كل شيء حول الإيطاليين وشرع الرجل ذو السوط، كمن فهم مهمته، يحرس ذلك الطرف من الشرفة، صائحاً، ضارباً الرملَ، كاسباً قروشه الورقية.

إيطاليّ طويل القامة، ذو قميصٍ كرزٍ وقف وتناول آلة التصوير. وضع الطعام تحت الشرفة تماماً فأقبل الأطفال راكضين. لكن الرجل ذا السوط، كمن يريد أن يكون أميناً لآلة التصوير-انهال بسوطه، لا على الرمل، وإنما على ظهور الأطفال، مطْلقاً صيحات جَملٍ أعلى. وبالرغم من هذا، لم يحدث حتى الآن أي انزعاج، لدى السواح في دار الإستراحة، ولدى السائقين المصريين

الواقفين قرب سياراتهم وحافلاتهم الصغيرة. فقط الرجل ذو السوط، والأطفال الباحثون في الرمل، كانوا مهتاجين. كان الإيطاليون باردين، والرجل ذو القميص الكرز كان يفتح علبة شطائر أخرى. رجلٌ أقصرُ قامةً، وأكبرُ سنّاً، في بدلة بيضاء، وقف يضبط آلة تصويره. أُلقي طعامٌ آخر، واستمر سوط الجمل يقرع الظهور، واستحالت صيحات الرجل ذو السوط إلى دمدمة.

الألمانيان عند طاولتي لم ينتبها، بعدُ، إلى ما يجري. والطلبة في الداخل ما زالوا يتحدثون. شعرت بيدي ترتعش. وضعتُ الشطيرةَ التي كنت آكلها على الطاولة المعدن. إن هذا كان قراري الأخير. اعتراني الحنق والقلق حين كدتُ أقع على الرجل ذي السوط. كنت أصيح. أخذتُ السوط منه، وألقيتُ به إلى الرمل. دُهش الرجل، ارتاح. قلتُ: "سأُبلغ القاهرة عنك". ارتعب. وشرع يتوسَّل باللغة العربية.حار الأطفال في ما يجري. ركضوا مبتعدين قليلاً، ووقفوا يراقبون. الإيطاليان وهما يعالجان آلتي تصويرهما، بَدَوا في أتم الهدوء خلف نظاراتهما الشمسية. والنسوة في الفوج السياحي عُدْنَ بظهورهنّ إلى الكراسي كي يتأملنني.

شعرت بأني مكشوف، عاجز، وأردت العودة إلى طاولتي فقط. وحين عدت تناولت شطيرتي. حدث الأمر بسرعة، وبلا أدنى إزعاج. الألمانيان نظرا إليّ، لكني كنت غير مبالٍ الآن بهما، ولا بالإيطاليّ ذي القميص الكرز. النسوة الإيطاليات وقفن. الفوج كان يغادر، وهو ينفض، بعنادٍ، علب الغداء ولفائف الشطائر، في الرمل.

الأطفال ظلوا ملازمين مكانهم. والرجلُ الذي أخذتُ منه السوط جاء ليقدم لي القهوة، وليتوسّل ثانيةً بالعربية والإنجليزية. كانت القهوة مجّاناً، هديةً منه إليّ. لكن، حتى وهو يتحدث، شرع الأطفال يقتربون. وسرعان ما يعودون ينقبون في الرمل عمّا رأوا الإيطاليّ يرميه.

لم أشأ أن أرى ذلك. السائق كان ينتظر، مستنداً إلى باب السيارة، متصالب الذراعين العاريتين. لقد رأى كلَّ ما جرى. كنت أتوقع منه، وهو الشابّ الصحراوي المتحرر، ذو البنطلون المحزَّم والقميص الرياضي، والتعلق بالقاهرة، إيماءةً ما، إشارةَ استحسان. ابتسم لي، من زاويتي فمه العريض، وبعينيه الضيقتين. سحق سجارته في الرمل، وأطلق الدخان من بين شفتيه، وتأوّه. لكنها طريقته في التدخين. لم أعرف بمَ كان يفكر. كان دقيقاً كشأنه من قبل، سأمانَ كشأنه من قبل.

أينما ذهبت عصر ذلك اليوم، وجدتُ الحافلة الصغيرة الفولكس واجن، ذات خضرة البازلاء، العائدة للفوج الإيطالي. في كل مكان رأيت القميص الكرز. تعلمتُ أن أتبيّنَ الخطوة القصيرة المكتنزة المتماشية معه، والنظارات المعتمة، والمَفْرِقَ المنحسر، وحركة الذراعين المتصلبة قليلاً. في العَبّارة، ظننت أني استطعتُ النجاة، لكن الحافلة الصغيرة وصلت، والإيطاليين خرجوا. ظننتُ أننا سنفترق عند شاطئ الأقصُر. لكنهم كانوا مقيمين، أيضاً، في "قصر الشتاء". القميصُ الكرزُ يبزغ واثقاً عبر الخَدم المصريين المنحنين في البهو، والبار، والمقصف الكبير ذي الأزهار الطرية والمناديل معقدة الطيّ.

في مصر، ذلك العام، كانت العملة ورقيةً فقط.

أقمتُ يوماً أو يومين على شاطئ الأقصر. وبانتظام رأيت الكرنك تحت ضوء القمر. وحين عدت إلى الصحراء عُنيتُ بأن أتجنب دار الإستراحة. السائق فهمَ. وبدون أي شماتة أخذني في الموعد إلى كوخ اللوح بين النخل. اليوم كان الشغل أكثر. كان ثمت ست حافلات صغيرة أو خمس، ملأى.

في الداخل، كان الكوخ معتماً، بارداً وساجياً. طاولاتُ أُلصقتْ بأخرى، وإلى لوحة الطعام المركزية هذه، جلس أربعون أو خمسون صينياً، رجالاً ونساءً، يتحدثون بنعومة. كانوا من فريق السيرك الذي رأيتُه في ميلانو.

الصينيّان المسنّان يجلسان معاً في طرفٍ من الطاولة الكبيرة، جوار سيدة رقيقة دقيقة تبدو أكبر سنّاً قليلاً كي تكون أكروبات. لم أكن رأيتُها في حشد ميلانو. وثانيةً، حين حلَّ وقتُ الدفع، استخدم الرجل ذو الحافظة السمينة يديه بصورة مضحكة. السيدة تكلمت مع النادل المصري. النادل نادى النادلين الآخرين فانتظموا صفّاً. والسيدة منحتْ كلَّ نادلٍ، مصافحةً وهدايا، مالاً، شيئاً في مغلّف، ومداليةً. النادلون ذوو الأسمال وقفوا منتصبين، مائلين بوجوههم، مثل جنود يتلقون أوسمةً. ثم نهض الصينيون جميعاً ،وخرجوا من الكوخ مع حديثهم وضحكهم الناعم ومرحهم المستريح. لم ينظروا إليّ، بل بدا لي أنهم لا يكادون يلحظون الكوخ. كانوا يتمتعون بالبرودة والملبس الجيد في الصحراء. الرجال يرتدون البدلات، والفتيات يرتدين السراويل الفضفاضة، كما كان الأمر في مطر ميلانو. كانوا جدَّ مغتبطين بأنفسهم، جدَّ أصحّاء، جدَّ راضين عن بعضهم بصمت: من الصعب اعتبارهم متفرجين.

النادل، ووجهه ما زال متوتراً من فرط السرور، عرض الميدالية على جبّته الوسخة المخططة. لقد خرجت الميدالية من بوتقة فَقدت حدَّتَها، لكن الوجه ذا التحديد الرديء صينيّ بدون شك، وهو، بدون شك أيضاً، وجه الزعيم.

في المغلف بطاقات بريد ملوّنة بهيجة لنبتات الفاوانيا الصينية.

فاوانيا! الصين! امبراطوريات عدَّة جاءت إلى هنا. وليس بعيداً عن موضعنا الآن كان التمثال الضخم الذي سجل الإمبراطور هادريان على ظُنبوبه أشعاراً منقوشة في مديحه، تخليداً لزيارته. على الشاطئ الآخر، غير بعيد عن "قصر الشتاء"، حجرٌ عليه كتابة رومانية خشنة تعيِّن الحدَّ الجنوبي للإمبراطورية، محدِّدة منطقة انسحاب. واليوم، تعلن عن نفسها امبراطوريةٌ نائيةٌ أخرى. ميدالية. بطاقة بريد. وكل ما يُطلَبُ بالمقابل هو الغضب والإحساس بالظلم.

ربما كان الزمن الطاهر الوحيد، في البدء، حين تعلم الفنان القديم، الذي لا يعرف أرضاً أخرى، أن ينظر إلى أرضه، ويراها مكتملة.لكن من الصعب عليّ أنا المسافر عائداً إلى القاهرة، الناظر بعيني الغريب إلى الحقول والعاملين فيها، إلى البلدات المغبّرة، وحشود الفلاحين الهائجة في محطات السكك الحديد، من الصعب عليّ تصديق أن براءةً مثل تلك قد وُجدتْ. هذه الرؤية للأرض، حيث النيل ماءٌ فقط، شارةٌ زرقاء خضراء، ربما كانت ملفقةً، شيئاً للحنين، شيئاً للقبر.

تكييف الهواء في الحافلة ليس على ما يرام، ربما لأن المضيفَين النوبيين، على عادة القرية، فضّلا الجلوس عند الأبواب المفتوحة ليتجاذبا أطراف الحديث. الرملُ والغبار يهبّان في الداخل طوال النهار، كان الجو ساخناً حتى غربت الشمس، وأظلم كل شيء تحت سماء حمراء. في قاعة الإنتظار ذات الإضاءة الضعيفة بمحطة القاهرة كان المزيد من الجنود متمددين عائدين من سيناء، فلاّحين في بدلات عسكرية مكتنزة من الصوف. إنهم عائدون في إجازة إلى قراهم. بعد سبعة عشر شهراً، سيعرف هؤلاء الرجال، أو رجالٌ مثلهم الهزيمة الساحقة في الصحراء، ولسوف تُظهرهم صورُ الأخبار الملتقطة من سمتياتٍ دانية التحليق، ضائعين، يحاولون العودة إلى الوطن سيراً على الأقدام، ملقينَ ظلالاً طويلة على الرمل.

آب ١٩٦٩- تشرين ثاني ١٩٧٠

تمّت ترجمة الكتاب
في التاسع عشر من شباط ٢٠٠٢
بمدينة لندن

ف. س. نايبول

نوبل ٢٠٠١

ولد ف.س. نايبول في ترينيداد عام ١٩٣٢

من أهم أعماله الروائية:

- بيت للسيد بيسواس ١٩٦١
- الرجال المقلدون ١٩٦٧
- رجال العصابات ١٩٧٥
- منعطف النهر ١٩٧٩

من أهم كتبه النقدية:

- الرحلة الوسطى: انطباعات عن خمسة مجتمعات ١٩٦٢
- منطقة ظلام ١٩٦٤
- الهند: حضارة جريحة ١٩٧٧
- عودة إيفا بيرون ١٩٨٠

نال العديد من الجوائز الأدبية الرفيعة، كان آخرها جائزة نوبل للآداب للعام ٢٠٠١.

ISBN:2-84305-653-X

9 782843 056536